

القمر في الشّعر العربيّ القديم

إعداد

محمد عيسى عبدالله الحوراني

المشرف

الدكتور جمال محمد مقابلة
أستاذ مشارك

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلّبات درجة الماجستير
في تخصص الأدب والنقد

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في الجامعة الهاشميّة
الزرقاء - الأردنّ

٢٩/ ١١ / ٢٠١٠م

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ: ٢٩/ ١١/ ٢٠١٠م

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
الدكتور جمال محمد مقابلة أستاذ مشارك/ الأدب والنقد	رئيسًا	....
أ .د محمد إبراهيم حوّر أستاذ/ الأدب والنقد	عضوًا	....
الدكتور علي مصطفى عشّا أستاذ مشارك/ الأدب والنقد	عضوًا	....
أ.د صلاح محمد جرّار أستاذ/ الأدب والنقد، الجامعة الأردنية	عضوًا	....

الإهداء

في العتمةِ
ينطفئُ الناس
وأبقى منشغلا .. بإضاءةِ روحي
.
.
.
.
لكِ .. يا قمري، ورفيقة دربي
ولكلّ
كواكبنا الصغيرة..

الشكر والتقدير

يطيبُ لي أنْ أتقدّمَ بخالصِ الشّكر، وعظيمِ الامتنان، للأساتذةِ الكبارِ الذين نهَلْــتُ مــن معارفهم ، وأفدتُ من عطائهم، وأخصّ بالشّكر أستاذي وأخي المشرف على هذه الرسالــــــة :

الدكتور جمال مقابلة

وأساتذتي الكبار الذين تشرَّفت بأن يكونوا مناقشيَّ في هذه الرسالة، أنهلُ من معيــنهم، وأحرصُ على الإفادةِ منهم:

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

الأستاذ الدكتور محمد حوّر

الدكتــــور علي عَشــــــا

لهم جميعا كلّ التقدير والاحترام والعرفان

المحتويات

ملخّص

القمر في الشّعر العربيّ القديم

إعداد

محمد عيسى عبدالله الحوراني

المشرف

الدكتور جمال محمد مقابلة

أستاذ مشارك

يُعَدُّ القمرُ من أبرزِ مظاهرِ الطبيعةِ الصّامتةِ الّتي ناجاها الشّعراء على امتداد مسيرة الشّعر العربيّ، إذْ كان له حضورٌ فاعلٌ لا يقلّ أهميّة عن حضور مظاهر الطبيعة الأرضيّة، فجاءت هذه الرسالة لاستجلاء ذلك الحضور، والكشف عن حالات تعاطي الشّعراء مع هذا الكائن السماويّ، فانبثق عن ذلك مجموعة من الأسئلة المحوريّة، أوّلها: كيف كان الحضورُ القمريّ في الموروث الفكريّ والثقافيّ العربيّ عمومًا؟ وثانيها: كيف كانت صورة القمر في الوعي الشعريّ جماليًّا وثقافيًّا؟ وثالثها: كيف استخدم الشّعراء صورة القمر للتعبير عن تشبيهاتهم، وهل كان حاضرًا في ركني التّشبيه؟ أم كان مقصورًا على المشبّه به في أغراض محدّدة كما يسود الاعتقاد ؟ وجاء الفصل الأخير تطبيقيًّا، بعد أن أجاب على سؤال عن وجود نماذج كثيرة لدى شعراء كبار قابلة للتطبيق.

وقد جاء التمهيد تحت عنوان: القمر في التدوين الثقافيّ العربيّ، وذلك في أربعةِ مباحثَ رئيسة، تفرّعت عنها معالجات متنوّعة، فبحثتُ في أسماء القمر الأكثر دورانًا في الشّعر العربيّ، ومن ثمّ حضوره في الثقافة العربيّة قديمًا، وصولاً إلى القمر والمعتقد، وخاتمًا بمبحث عن القمر في الثقافة العربيّة بعد الإسلام. وأمّا الفصل الأول فقد كان تحت عنوان : تجليّات القمر في الوعي الشعريّ ثقافيًّا وجماليًّا، وتكوّن من خمسة مباحث تمثّلت في النظرة الواقعيّة، والجماليّة، والنفسيّة، والفكريّة التأمّليّة، والنظرة العقديّة. وجاء الفصل الثاني تحت عنوان: التداوليّة الجماليّة لصورة القمر في الشّعر العربيّ، ألقيتُ فيه نظرة عامّة على تلك الصورة، وانطلقتُ بعدها إلى بيان الصّورة عبر ركنَي التشبيه، وذلك في الأغراض الشّعريّة المختلفة. وأمّا الفصل الأخير فهو دراسة تطبيقيّة للقمر عند خمسة من الشّعراء، هم ابن المعتزّ، وابن الروميّ، والبحتريّ، وابن خفاجة، والمعرّيّ.

وخرجت الرسالة بأن للقمر أهميّة كبيرة في حياة العربيّ عمومًا انعكست على ثقافته وفكره ومعتقداته، وأخذت مجالات متنوعة في السرد والتدوين الثقافيّ العربيّ، وقد تجلّى الحضور القمريّ في الشّعر القديم ثقافيًّا وجماليًّا، فقد رأينا كيف تجلّى في أنظار الشّعراء ومواقفهم الواقعيّة والجماليّة والنفسيّة والفكريّة والعقديّة، وكان ذلك التجلّي ثريًّا ومتنوعًا وغزيرًا، وقد تداول الشعراء القدامى عمومًا الصّور الجماليّة للقمر، ولم تكن صورته نمطية كما يتخيل البعض، وإنما كانت ذات أبعاد عميقة، إذ كان القمر محورًا للتشبيه ولم يقتصر على كونه مشبها به، والمشبه حكمًا هو العمدة المقصود لذاته، وإنّما تستحضر صورة المشبّه به لجلاء أوصاف المشبّه. وقد كان القمر حاضرًا في مختلف الأغراض الشّعريّة، ولم يقتصر على المدح والغزل والرثاء كما يرى البعض.

وبعد، فإن عدم تفرّد القمر بقصائد كاملة في الشعر القديم ولا سيّما الجاهلي منه، لا يعني عدم الاهتمام به، إذ إن القصيدة القديمة كانت ذات طابع تعدّدي ، فهي لا تحمل غرضًا بعينه، بل تتنوع مضامينها، ليكون الحضور القمري وافرًا كغيره من مضامين الطبيعة، فهناك شعراء كبار احتفَوا به، وقدمّوا لنا نماذج رائعة ، مع أن نظرة الشّعراء للقمر تتفاوت حسب المواقف النفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة، وقد يقع التفاوت لدى الشاعر الواحد منهم في المواقف المختلفة. وأرى أنّ هناك مادة خصبة، يمكن أن يكون القمر محورًا لدراستها مستقبلا، وهي مادة قابلة للدراسة على مستوى الشّاعر الواحد عند بعض الشّعراء، أو على مستوى العصر الأدبي، إذ إنّ اتساع رقعة هذه الرسالة جغرافيًّا وزمنيًّا، جعلها تحاول اكتناه الوجود القمريّ في الشّعر ، وتتبعه ظاهريًّا ، أكثر من الغوص في أعماقه.

المقدمة

كان للقمر حضور مميّز في الشّعر العربيّ على مرّ العصور، فقد تفاعل معه الشّعراء، وأدرجوه في أغراضِهم الشعريّة المختلفة، وكان حاضرًا في قصائدَ لم توضعْ له أصلا، مثلما كان محورًا لقصائدَ أخرى، متجليًّا في بعده السحيق ، وغموضه المهيب، واستدارته الوضّاءَة، وصلته بالأفلاك، والأنواء، وارتباطه بظواهرَ كونيةٍ كثيرة كالخسوف ، والمدّ والجزر، والتنجيم، ممّا دعا الشّاعر العربيّ إلى " النظر والتأمّل والتفكّر، فكان ثمّة جوانب فكريّة، وأبعاد شعوريّة، وقيم جماليّة بدا أثرها واضحًا في مناحي تفكيره وخياله ومعتقداته وطقوس عبادته، مثلما ظهر في تشكيلات فنّه وتضاعيف أدبه"[١].

وقد احتفى العرب القدماء بالقمر، فكان من معبوداتهم وأساطيرهم، فهو عندهم إله ذكر، بينما كانت الشّمس إلهًا مؤنّثًا، فغُلّب عليها في التسمية عندما أُطلق عليهما القمران[٢]، وقد كان حاديهم في السّفر، ومؤنسهم في السّهر، ومرشدهم في المواقيت، فاستعار له الشعراء ما يليق من وصف، وأسبغوا عليه هالة من الجلال والبهاء، وتناجوا معه، وبثوه مشاعرهم وشكواهم.

ومع مجيء الإسلام، ونزول القرآن الكريم ازداد حضور القمر، وأصبح في ما وجده الشّعراء في القرآن الكريم والسنّة الشّريفة منابع إضافيّة للإلهام، وارتبطت مسمّياته ولاسيّما (الهلال) بشهر رمضان ومقدم العيد، وكلّ ذلك كان حاضرًا لدى الشّعراء بصورة لافتة، مما دفعني إلى محاولة استجلاء ذلك الحضور.

---

(١) شامي، يحيى عبدالأمير : النجوم في الشعر العربي القديم(حتى أواخر العصر الأموي)، ط١، ١٩٨٢م منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ، ص ٢٣-٢٤

(٢) انظر: الجهاد، هلال: جماليات الشعر العربي: دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، ط١، ٢٠٠٧ م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ص ٣٩٦ .

وقد كنت – منذ الصّغر – أعشق القمر، وأجد على صفحته الوضّاءَة مُتعزًّلا لتفكير عميق، تشوبه الغِبطة حيناً والرهبة حيناً، وأرى فيه عوالم لم تُكتنه، وربّما استسَرَّ ذلك في نفسي، إلى أن طفا على سطح الذاكرة، عندما استبدَّت بِيَ الحيرةُ في اختيار موضوع الرسالة، فعدت إلى الذاكرة مستحضرًا كثيرًا ممّا قرأت عنه شعرًا ونثرًا، ومستحضرًا تلك الصّحراء المترامية الأطراف التي كنت أقطعها في السفر من الرياض إلى عمّان ، ومن شرقيّ الجزيرة العربيّة إلى غربيّها، وفي كلٍّ كان حضور القمر بردًا على النفس، وطمأنينة للروح، ومؤنسًا وحاديًا في آن، على الرّغم من الضّوء المنبعث من المركبة، ومن الأضواء التي تنبعث من بعض التجمّعات السكانيّة المنتشرة على مرامي البصر، وكان ذلك يدعوني إلى استحضار صورة العربيّ المسافر ليلا في بطن الصّحراء، وما من مؤنس آنذاك إلا القمر.

فبحثت حول الموضوع، وعدت إلى موسوعة الشعر العربي للوقوف على ما كتب في القمر، فوجدت شعرًا غزيرًا، ومادة خصبة، فتفتّقت في النّفس الرّغبة في الاستكشاف، وبحثت في المكتبات عن رسائل كتبت في الموضوع فلم أجد، ثم بحثت عن كتب ومؤلفات في الموضوع، فلم أجد دراسة وافية بما أطمح إليه، بل وجدت الحديث عن القمر كان عرَضًا في بعض الدراسات، ولم يكن مقصودًا لذاته، كما هو الحال في كتاب (النجوم في الشّعر العربيّ القديم حتّى أواخر العصر الأموي) وهو في الأصل أطروحة لنيل درجة الدكتوراة ليحيى الشامي، اقتصر بحث القمر فيه على أربع صفحات حسب.

فعرضت رغبتي على أستاذي المشرف الذي أبدى اهتمامًا خاصًا، وأشار عليّ بما ينبغي أن أقوم به، ووقف إلى جانبي مشرفًا وموجّهًا وأخًا كبيرًا، فجاءت هذه الرسالة في تمهيد وثلاثة فصول تسبقها المقدِّمة، وتليها خاتمة.

فأما التمهيد فهو بعنوان : القمر في التدوين الثقافيّ العربيّ:

وقد جاء في أربعة مباحث هي:

١. أسماء القمر الأكثر دورانًا في الشّعر العربيّ: إذ تبيَّن أنّ هناك أربعة أسماء هي: (القمر، والهلال، والبدر، والمحاق)، فجرى البحث في معانيها ودلالاتها في معاجم اللغة والمصادر التراثيّة.

٢. أوصافه، ومنازله، ومجال العناية به: إذ تناول هذا المبحث سمات القمر وعلاقته ببعض القرائن كالشّمس والليل والصّحراء، ومنازله وصلتها بالأفلاك والأنواء والكواكب، وارتباطه بظواهر معيّنة كالخسوف، والمدّ والجزر، والتنجيم، فضلا عن تجليّاته في أسماء الناس، والأمثال العربيّة.

٣. القمر والمعتقد: فتمّ البحث في عبادة القمر، وأسطرته، وارتباط عبادته بمعبودات أخرى، وانعكاس ظهوره وغيابه على بعض الكائنات.

٤. القمر في الثّقافة العربيّة بعد الإسلام : إذ جرى البحث في صورة القمر في القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشّريفة، ودلالاته الزمنيّة، وبعض الأحداث التي تتضمّن إشارات دينيّة، وانعكاس ذلك في التّدوين الثّقافي.

أمّا الفصل الأول فهو بعنوان: تجليّات القمر في الوعي الشّعريّ ثقافيًّا وجماليًّا:

وتجلّى ذلك في استقراء النصوص في خمسة مباحث:

١. النظرة الواقعيّة (الاهتداء به، والرفيق في السفر، والمؤنس في الليل، ومكانه بين النجوم والكواكب، ودلالاته الزمنية ..)

٢. النظرة الجماليّة (الاستدارة، واللمعان، والإضاءة، واللون ..)

٣. النظرة النفسيّة (الأنس، والوحشة، والحبّ، والبغض، والترقّب، والوسواس..)

٤. النظرة الفكريّة التأمّليّة (النموذج الأعلى، وأنسنة القمر،....)

٥. النظرة العقديّة (قبل الإسلام، وبعده، وصورته عند المتصوّفة..)

أمّا الفصل الثاني فهو بعنوان: التداوليّة الجماليّة لصورة القمر في الشّعر:

وجاء في ثلاثةِ مباحثَ:

الأوّل: نظرة عامة على حضور القمر في الشعر.

والثاني:القمر مشبَّهًا، كتشبيه البدر بـــ(الملك، والتّرس، والمرآة ،..) وتشبيه الهلال بـــ(الوليد، والنون، والقوس، والزورق..)

والثالث:القمر مشبّهًا به، وهو شائع في ثلاثة أغراض شعريّة، هي الغزل(تشبيه الحبيب بالقمر) والمدح (تشبيه الممدوح به) والرثاء (تشبيه المرثي به)، على أنّه يتكرّر في الأغراض الشعريّة الأخرى، ولكنّه أقلّ شيوعًا، فدرسته في تلك الأغراض مبيّنًا جوانب ذلك الحضور.

وتناول الفصل الثالث: الحضور الكلّيّ للقمر في الشّعر ممثّلا بدراسة نماذج لخمسة من الشّعراء الأكثر احتفاء بالقمر، سواء أكان ذلك من حيث التكرار في قصائدهم، أم من حيث إفراده بقصائد كاملة، ويخضع ذلك كلّه للدراسة والتحليل.

وتهدف هذه الرسالة إلى جلاء صورة القمر في الشّعر العربيّ، منطلقة من فرضيّة مؤدّاها: أنّ الشّعر العربيّ احتفى بالقمر، بصورة تستحقّ الدراسة والبحث لاستكناه جوانب ذلك الاحتفاء، وأنّ الدراسات في هذا المجال كانت قليلة جدًّا، ومقصورة على اختيار أبيات شعريّة في القديم كما هو الحال في كتاب(نثار الأزهار في الليل والنهار) لابن منظور، و(ديوان المعاني الكبير) لابن قتيبة، و(ديوان المعاني) للعسكريّ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانيّ، أو على مقالات ودراسات مقتضبة حديثًا في بعض الصحف والمجلات، أو ما جاء عَرَضًا في الدراسات الحديثة عن الأدب القديم.

ولم تقتصر هذه الدراسة على منهجٍ واحدٍ، إذ قامت على منهج المسارات المتوازية؛ فعمدت إلى الإفادة من منهج الفنون الأدبيّة، وكذا المنهج الاجتماعي، والتاريخي، فضلا عن الإفادة من المنهج الأسطوري في دراسة الأدب ولاسيّما في الفصل الأول، وقمت باعتماد الاستقراء إجراءً عامًّا في معالجة الموضوع عند الشّعراء.

وقد كان للرسالة مساران : توثيقيّ تسجيليّ يقوم على رصد تجليّات القمر في الشّعر، وتحليليّ تطبيقيّ يقوم على تحليل تلك التجليّات واستقراء معطياتها.

ونظرًا لاتّساع الرقعة الجغرافيّة، والتنّوع البيئيّ، وتطاول المسافة الزمنية الّتي تسطّحت عليها الدراسة، فإنّ أسلوب التخيّر كان الأداة المثلى لانتقاء المادّة المناسبة، والبعد عن التكرار في بعض المعطيات أو الاستشهاد بأشعار بعينها.

والله الموفق

تمهيد

القمر في التدوين الثّقافي العربيّ

المبحث الأَوّل:

أسماء القمر الأكثر دورانًا في الشِّعر العربِيّ

القمر أقرب الأجرام السماويّة إلى الأرض، وأكثرها تأثيرًا في حياتنا اليوميّة بعد الشّمس، وقد سميّ قمرًا لبياضه، ويكون بعد ثلاث ليال إلى آخر الشهر، والقمر تحيُّر البصر من الثلج، وقُمِرَ الرّجلُ إذا لم يبصر[(١)]، ويقال: أقمر الهلال إذا صار في الليلة الثالثة قمرًا، وليلة مقمرة وقمراء: أي مضيئة، وهو مشتق من القُمرة، وجمعه أقمار، وهو اسم جامع لكل مراحله، وقيل: إنّه يُسمّى لليلتين من أوّل الشهر هلالاً، وكذلك لليلتين من آخره، وما بين ذلك يُسمّى قمرًا[(٢)]، وكان الصيّادون يستغلّون الليالي المقمرة، وذلك لإقمار طرائدهم، وتسهيل اصطيادها، ومن هنا جاء القِمار بمعنى الخداع والاستلاب[(٣)]، قال عمر بن أبي ربيعة(ت٩٣هـ):

قَمَرَتْهُ فُؤَادَهُ أُخْتُ ريمٍ ذَاتُ دَلٍّ، خَرِيدَةٌ، مِعْطَارُ[(٤)]

وكانت العرب تقول: استرعيتُ ماليَ القمرَ، إذا تركتُه ليلاً هَمَلاً بلا راعٍ يحفظه، ومن ذلك قول طَرَفة (ت ٦٠ ق. هـ):

وكانَ لها جارانِ قابوسُ منهما وبِشْرٌ ولمْ أَسْتَرعِها الشمسَ والقَمَر[(٥)]

---

(١) انظر الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط ٢، ١٩٨٢م، مادة قمر

(٢) انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم، لسان العرب، د.ط، د.ت، دار صادر، بيروت، مادة قمر

(٣) انظر الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، د.ط، ١٩٧٩م، دار العودة ، بيروت، مادة قمر

(٤) البيت في أساس البلاغة ، قمر ، وفي شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢، ١٩٦٠م، مطبعة السعادة، مصر، ص١٣٢، والخريدة في الأصل اللؤلؤة التي لم تثقب، والمعطار ذات الرائحة الطيبة .

(٥) البيت في اللسان : قمر، وفي ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به حمدو طماس، ط١،٢٠٠٣ ، دار المعرفة، بيروت، ص ٤٤

" وللقمر من أوّل ظهوره إلى آخر سراره أسـماء: الهِـلال، والطـالِع، وأَرْمَـد، ونميـر، والزِّبْرِقان، والباهِر، والزَّمْهَرير، والغاسِق، وطُوَيس، وأُوَيْس، وزُرَيْق، ودُخَيْر، والبَدْر، والحلم، وعَفْراء، وساهُور، والسَّهَر، والعَقيب، وابنُ حِمْيَر.."[١].

وأشهر أسمائه بعد القمر: الهلال والبدر والمحاق، وهي أكثر الأسماء دورانًا فـي الـشعر، وربّما قيل أحدها للتعبير عن الذات الكاملة للقمر، أو المنقوصة له، على الرّغم من أنّ لكلٍّ منها دلالة على مرحلة من دورة هذا الكائن، فالهلال هو ذلك الوليد للّيالي الثلاث الأولى من الشهر، وكذلك للّيلتين الأخيرتين منه قبل أن يصبح محاقًا[٢].

والبدر: القمر ليلة أربع عشرة، وسُمّي بدرًا لأنّه يبادر الشمس بالطلوع، وقيل لأنّه مُدوَّر، وقيل لامتلائه وتمامه[٣]، وبدر القوم سيّدهم، قال ابن أحمر(ت ٧٥هـ):

وَقَدْ نَضْرِبُ البدرَ اللجوجَ بِكفِّـهِ   عليـهِ، ونُعْطِـي رغبَةَ المُتَوَدِّدِ[٤]

وقيل أيضًا في سبب هذه التسمية " قولان أحدهما أنّه اشتقّ له من كونه يبدر بطلوعه غيبوبة الشمس، وقيل سُمّي بدرًا لكماله وتمامه"[٥].

وأمّا المحاق فهو من قولنا: مَحَقَ الشيء إذا مَحاه وذهب به، وأمحق القمـر إذا دخـل فـي المحاق[٦]، وقيل سُمّي محاقًا لأنّه طلع مع الشمس فمحقته فلم يره أحد، ويكون عندما يستسـرّ

---

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ، كتاب نثار الأزهار في الليل والنهار، ، د ط ،١٩٨٣م، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٦٠

(٢) انظر، الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، اللسان، مادة هلل

(٣) انظرالجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، مادة بدر

(٤) البيت في اللسان انظر: بدر وهو للشاعر المخضرم عمرو بن أحمر الباهلي في ديوانه تحقيق حسين عطوان، د ط، د ت، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص ٥١

(٥) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ، كتاب نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٦٠

(٦) انظر الزمخشري، جارالله محمود، أساس البلاغة : محق

القمر لليلتين أو ثلاث فلا يرى غدوة ولا عشية [(١)] ، وفي ذلك يقول جِرانُ العَوْدِ النميريّ (ت٦٨هـ) :

وجهَّزْتَها قبلَ المَحاقِ بِلَيْلَةٍ فكانَ مَحاقًا كلُّه ذلكَ الشَّهْرُ

وقدْ مَرَّ تَجْرٌ فاشتَرَوا لي بِناءَها وأَثْوابَها، لا باركَ اللهُ في التَّجْرِ [(٢)]

وقال آخر:

يزدادُ حتَّى إذَا ما تَمَّ أَعْقَبَهُ كَرُّ الجديدينِ منْهُ ثمَّ يَنْمَحِقُ[(٣)]

وبالعودة إلى الجذر اللغويّ لكلّ من هذه الأسماء الأربعة، تظهر لنا العلاقة بين الدالّ والمدلول، فالقمر من قَمُرَ بمعنى خَدَعَ، أو عَشيَ النظر، ومن هذا المعنى أخذ لفظ القِمار، والمقامرة والقمراء، وربّما كان لهذا الاسم الجامع لكلّ المراحل والأطوار ارتباط بحقيقة نور القمر الذي لم يكن أصيلاً فيه، بل هو مستمدّ من غيره، وأمّا البدر فهو من بَدَرَ إذا باشر، فنقول: بدر القوم إذا باشرهم، وأمّا الهلال فمن قولنا: هلّ إذا ظهر، والمحاق من قولنا: محق الشيء إذا انتهى وزال.

---

(١) انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم، اللسان، مادة محق

(٢) البيت الأول في اللسان ، محق، والبيتان لجران العود النميري في ديوانه، رواية أبي سعيد السكري، ط١،١٩٣١م، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص١١، والمحاق مثلثة الميم وتعني آخر الشهر، وفي البيت الثاني إقواء وهو اختلاف حركة الروي، والتجر : جمع تاجر.

(٣) البيت في اللسان ، محق، والجديدان: الليل والنهار

المبحث الثاني:

القمر في الثّقافة العربيّة قديمًا

أ) أوصافه ومنازله ومجالات العناية به

لم ينظر العربيّ للقمر نظرة ماديّة صمّاء، ولم يُسقط عليه الملامح الأرضيّة التي تتكوّن قشرتها من خليط من الحجارة والتراب والرمال، كما أنّ نظرته لم تكن ساذجة بسيطة كما يعتقد البعض(١)، ولكنّها كانت نظرة تحاول سبر أغوار هذا الوجود، عبر هذا القرص المرتفع المنير، الذي يجوب سماء الأرض مراقبًا ومرافقًا ..

وهو في أطواره المختلفة آية من آيات الجمال التي أودعها الله هذا الكون، فكما أنّ استدارته سمة جماليّة تسرّ العين ، وتبعث الارتياح والطمأنينة في النفس، فإنّ في أطواره المختلفة التي يتجلّى فيها آياتٍ من الجمال الآسر الأخّاذ، فالعيون ترقب الهلال وليدًا على صفحة السّماء، وهي تلحظ نموّه حتى يكتمل بدرًا في صورة جماليّة نمائيّة، وبعد هذا النّضج والاكتمال، ينتقل إلى طور جديد، ثمّ لا يلبث أن يغيب، تاركًا الأنظار في ترقّب لعودة هذا الغائب الجميل، وهو ترقّب تغمره السعادة، ولا يشوبه الملل، لأنه يبشّر بميلاد جديد.

ونظرًا لمرور القمر في مراحل الولادة متجلّيًا في الهلال، مرورًا بربيع الشّباب باكتماله بدرًا، ومن ثمّ الوصول إلى الكهولة، ليصبح محاقًا، ثمّ ينطفئ، ليعيد الكرّة من جديد، في دورة مستمرّة، هي أشبه بحياة الإنسان على الأرض فقد تتبّع الشّعراء ذلك، وقرنوا مراحله

---

(١) انظر شامي، يحيى عبدالأمير : النجوم في الشعر العربي القديم (حتى أواخر العصر الأموي)، ط١، ١٩٨٢م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ، ص١٩٢

بمراحل نموّ الإنسان، فهذا رجل من بني سعد يقول:

ومَهْمَـا يَكُنْ رَيْبُ المُنونِ فإنَّنـي	**أرى قمَرَ الليْلِ المُعَـذَّبِ كَالْفَتَـى**
يُهَـلُّ صغيرًا ثمَّ يَعْظُـُـم قَدْرُهُ	**وصُورَتُهُ حتَّى إذا هُوَ مَا اسْتَـوى**
يُقَارِبُ يَخْبُو ضَوْءُهُ وشُعَاعُـهُ	**وَيمْصَحُ حتى يَسْتَسِرَّ فلا يُـرى**
كذلـكَ زَيْدُ المَرْءِ ثُمَّ انْتِقاصُـهُ	**وتكرارُهُ في إثْرِهِ بَعْدَ مَا مَضَـى**[١]

وهو في كل ذلك مثار إعجاب وتساؤل ودهشة، ممّا حدا بالعربيّ إلى مزيد من التفكّر في هذا الكائن السماويّ، فهو أحد المصابيح الكبرى التي تُزيِّن سماء الأرض، وتهدي المسافر في مفاوزها، وهو المفكرة الأولى التي جعلت من التقويم القمريّ محورًا للتاريخ وحسابات الزمن، فمنازله " ثمانية وعشرون منزلاً. ينزل القمر كلّ ليلة بمنزل منها من مهلّه إلى ثمان وعشرين ليلة. فإن كان الشهر تسعًا وعشرين ليلة، استسرَّ ليلة ثمان وعشرين" [٢].

أمّا إذا كان الشهر ثلاثين ليلة؛ فيستسرّ في ليلة تسع وعشرين، وهو في سراره نازل بالمنازل أيضًا، قال الشاعر:

تَلَقَّـى نَوْءَهُنَّ سَرَارُ شَهْـرٍ	**وخيْرُ النَّوْءِ ما لَقِيَ السَّـرَارا**[٣]

وقد كان العرب ينظرون إلى النوء نظرة مليئة بالغبطة والحبور إذا وقع في سرار الشّهر، لأنّه يكون أغدق خيرًا، وأكثر مطرًا[٤].

---

(١) انظرالأبيات في: المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد، الأزمنة والأمكنة ، ط١، ١٣٣٢هـ مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند، ج٢ ، ص٦٢، وتنسب للشاعر الجاهلي حنظلة ابن أبي عفراء الطائي، ويمصح: يغيب

(٢) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم ، الأنواء في مواسم العرب، ١٩٨٨، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ص٤

(٣) البيت في اللسان مادة قمر وهو للراعي النميري، عبيد بن حصين من ديوانه، شرح واضح الصمد، ط١، ١٩٩٥، دار الجيل ، بيروت، ص١٥١

(٤) انظر المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، ج١، ص٢٨٤

وقد اعتنى العرب بالقمر في مجالات حياتهم المختلفة ، فكانوا يسمّون الليالي من وحيه، فيقولون:" ثُلاث غُرَر وثُلاث نُفَل وثُلاث تُسَع وثُلاث عُشَر وثُلاث بيض وثُلاث دُرَع وثُلاث ظُلَم وثُلاث حنادس وثُلاث دآدي وثُلاث محاق والعرب تسمّي كل ليلة من لياليه باسم"[١].

والملاحظ من هذه التسميات أنّها جاءت لتبيان مواطن الظهور والاختفاء الزمانيّة للقمر ، ليسهل على العربيّ استجلاء مواعد سفره، أو خروجه للصيد والرعي وغير ذلك..

وكان العصر العبّاسيّ حافلاً بالتّدوين في علم النجوم عمومًا، والقمر خصوصًا، فقد اهتمّ الخلفاء العباسيّون بالنجوم، وقَرَّبَ أبو جعفر المنصور المنجّمين، فظهرت معارف نثريّة جديدة، واشتهرت أسماء العديد ممّن كتبوا في هذا المجال[٢]، كما أنّ هناك بعض القصائد التي نظمت في هذا العلم، ولكن المهمّ هنا هو تلك الكتب التي تحمل الطابع القمريّ، أو تلك المحطّات التي وقف فيها بعض المؤلّفين مع القمر في كتبهم[٣] ، وقد وقفتُ على بعض ما جاء فيها في محطّات متعدّدة من هذه الرسالة.

---

(١) ابن منظور، صاحب لسان العرب ، كتاب نثار الأزهار في الليل والنهار، ، ص٦١ والدرع بضم الدال وفتح الراء: ما اسودّ أوّلها وابيضّ آخرها، والدآدي مفردها دأدأة، والدأداء آخر الشهر

(٢) انظر أبو سويلم، أنور عليان، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ط ١، ١٩٨٣م، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ص٧٣

(٣) من هذه الكتب: الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، والأنواء لابن قتيبة، وديوان المعاني للعسكري، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ، ورشف الزلال في وصف الهلال لصلاح الدين الصفدي ، وغيرها..

ب) ارتباطه ببعض الظواهر

ارتبط القمر عند العرب ببعض الظواهر الكونيّة الأخرى، حتى أصبح قرينًا ملازمًا لبعضها، فعندما يذكر الليل والصحراء تنبري إلى الأعين صورة القمر والنجوم، وعندما ينوي العربيّ السفر والارتحال في مفاوز الصحراء، يأخذ من الليل مجنًّا يقيه غوائل الحرّ في النّهار ووحشة الظلام في الليل، وقسوة الصّحراء، وكان لا بدّ من هادٍ يهتدي به إلى وجهته، فكانت النجوم دليله، ولا بدّ من نور ينير طريقه؛ فكان القمر. لذا لا غرو إذا رأينا المرتحلين يتخيّرون الليالي المقمرة للرّحيل أو للرعي أو اللجوء إلى بطن الصحراء ورمالها. وكانت العرب تقول : " في ليالي القمر سافروا في يمنة الليالي، فإنّ أُنس القمر يُذهب وحشةَ السفر" [١] .

واحتياج العربيّ للقمر في الظلمة كاحتياجه للزّاد والأنيس في السفر، وقد أدرك العرب ذلك قديمًا، فهذا أعرابيّ خرج " في ليلة مظلمة فَضَلَّ عن الطريق، ثمّ طلع القمر فاهتدى، فرفع رأسه إلى القمر وقال: ماذا أقول لك؟ إن قلت حسَّنك الله فقد فعل، وإن قلت رفعك الله فقد فعل"[٢]. وعلاقة القمر بالليل علاقة تلازميّة على الرغم من التّنافر الحاصل في المدلول، فالقمر يقتضي الإنارة، والليل يقتضي الظلمة، ومن هنا قال أحد الأعراب مخاطبًا القمر:" والله ما أبقيتَ للّيل إلا اسمه"[٣].

وقد كان العربيّ يفرّ من مناطق الجدب إلى مناطق الغيث، وكان يرقب مطالع النجوم ومساقطها، ويتابع الأنواء متابعة حثيثة، باحثًا عن بواعث الخير، ونزول المطر.[٤]

---

(١) ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار ص٦٠

(٢) نفسه ص٦٠

(٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، ط ١، ١٩٩٩م، دار الأرقم، بيروت، ج٢، ص٥٦٢

(٤) انظر أبو سويلم، أنور عليان، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ص٧٢-٧٣

وأمّا اقتران اسمه باسم الشمس في علاقة تلازميّة أيضًا، فهو ممّا أثار حفيظة الأعراب في الحديث عنهما والمقارنة بينهما، فقد قيل لأعرابيّ: الشّمس أحسن أم القمر؟ فقال: القمر أحسن والشّمس أجهر. قيل وكيف صار القمر أحسن ؟ قال : لأنّ العيون عليه أجسر. وقال أعرابيّ: ما فقدت القمر إلا فقدت أخًا أنيسًا [(١)].

ولكنّ الشّاعر الكبير أبا الطيّب المتنبّي(ت٣٥٤هـ) يرى أنَّ القمر يتكسّب نوره من الشّمس، لذا فهو أقلّ أهميّة، كما أنّ الشّمس أقلّ أهميّة من الممدوح لأنّها تتكسّب نورها منه، والمهمّ هنا، هو ذلك الرابط الوشائجيّ بين الشّمس والقمر:

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النورَ طالِعَةً   كما تَكَسَّبَ منها نورَهُ القَمَرُ [(٢)]

ومن الظواهر الطبيعيّة التي ارتبطت بالقمر ظاهرتا الكسوف والخسوف، وقد أسهمت هاتان الظاهرتان في شيوع كثير من الأساطير والخرافات حوله، فكان البعض يعتقد أنّ ذلك يحدث بسبب تصارع الآلهة، وبعضهم رأى أنّه مؤشّر على حدوث كارثة، أو موت إنسان عظيم، يقول عنترة (ت ٢٢ق.هـ) :

خُسِفَ البَدْرُ حينَ كانَ تَمَامَا   وَخفَى نُورُهُ، فَعَادَ ظَلامَا

وَدَرَارِيْ النُّجُومِ غارَتْ وَغَابَتْ   وَضِياءُ الآفاقِ صارَ قَتَامَا

حينَ قالوا زُهَيْرُ ولَّى قتيلا   خيَّمَ الحُزْنُ عِنْدَنا وأَقَامَا [(٣)]

---

(١) انظر: ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار ص٦٠، وانظر الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج٢ ، ص ٥٦١

(٢) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، شرح ديوان المتنبي للعكبري، ضبطه وصححه كمال طالب، ط١،١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت ، ج٢، ص٩٧

(٣) العبسي ، عنترة بن شداد، ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طرَاد، ط١، ١٩٩٢م ، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٣٨، وزهير هو زهير العبسي.

وقالت الخنساء(ت٢٤هـ) ترثي زوجها مرداسًا:

لمّـا رأيْتُ البَدْرَ أَظْلَمَ كاسِـفًا   أَرَنَّ شواذٌ بَطنُهُ وسَوائِلـهْ

رَنينًا وما يُغْني الرنينُ وقَد أتَى   بمَوْتِكَ من نحوِ القُرَيَّةِ حاملُهْ[١]

وبقي ذلك سائدًا إلى أن جاء الإسلام، فنفى مثل هذا التخرّص، وقدّم سبقًا علميًا على لسان رسوله الكريم الذي نفى أن يكون للخسوف والكسوف علاقة بموت أحد أو بحياته [٢].

وقد خلطت الثقافة العربيّة قديمًا بين ظاهرتيّ الكسوف والخسوف، وكثيرًا ما استعمل الشّعراء تحديدًا إحداهما وقصدوا الأخرى، على أنّ العلم أثبت أنّه " عندما تتحرّك الأرض وتأخذ موضعًا بين الشّمس والقمر يحدث خسوف القمر، وعندما تكون الأجرام الثلاثة على خطّ واحد، بحيث لا يستطيع نور الشّمس الالتفاف أو السير في خطوط منحنية، لذا فإن نور الشّمس لا يصل إلى القمر فيبدو مائلاً إلى اللون الأحمر الغامق"[٣].

أمّا كسوف الشّمس فيحدث " عندما يتحرّك القمر، ليأخذ له موضعًا بين الشّمس والأرض وعندها تكون الأجرام الثلاثة على خطّ واحد وتصبح السماء معتمة لبضع دقائق، وبالإمكان أثناء ذلك مشاهدة النجوم"[٤].

كما ارتبطت ظاهرتا المدّ والجزر أيضًا بالقمر، ولكنّهما لم تشكّلا بعدًا تأمليًا عند العربيّ، وربّما كان ذلك لبعد العربيّ في أواسط الجزيرة العربيّة عن البحر، أو لتكرار هذه الظاهرة بصورة يوميّة ممّا يجعل منها شيئًا مألوفًا، وصورة دارجة .

---

(١) الخنساء، تماضر بنت عمر، ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، ط٢، ٢٠٠٤م، دار المعرفة ، لبنان، ص١٠٢، وأرنّ: بكى، وشواذ:اسم جبل.

(٢) انظر المبحث الرابع من هذا الفصل (القمر في الأحاديث النبوية الشريفة)

(٣) البدوي، خليل، موسوعة دار المعارف الشاملة / الموسوعة الفلكية، ط ١، ١٩٩٩م، دار عالم الثقافة ، عمان، الأردن.ص١٤

(٤) نفسه ص٢٤

ج) تجلّياته في أسماء الناس

كانت العرب تسمّي أبناءَها تيمُّنًا بما هو خير، وبما هو مصدر للقوّة والقدرة، فاستعارت من بعض الحيوانات أسماءَها، ومن بعض مظاهر الطبيعة مدلولاتِها، فكان للقمر حضورُه الكبير في أسماء الناس ذكورًا وإناثًا، إلاّ أنّ الغلبة في تسمية الذكور كانت للقمر بمسمّياته، والغلبة في تسمية الإناث كانت للشمس بمسمّياتها، وربّما كان الرصيد الثقافي الموروث الذي قرن القمر بالذكورة هو الذي أفضى إلى تلك التسميات، فقد سمّت العرب الذكور هلالاً وبدرًا وقمرًا، كما سمّت الإناث قمرًا، وكانت هذه الأسماء الثلاثة أكثر تجاوبًا في أسماء النّاس من غيرها.

وقد تكرّر ذكر هذه الأسماء في الشّعر، وكثيرًا ما ربط الشعراء بين الاسم والمسمّى، وقد حاز البدرُ والهلالُ على نصيب كبير من هذه الأسماء، ولم تكن مقصورة على أسماء الناس، بل تجاوزتها إلى أسماء المواقع والأماكن والأقوام والقبائل، مثل بني هلال وبني بدر وغيرهم، يقول عنترة:

زيدًا وسُودًا والمُقَطَّعَ أقْصَدَتْ ... أرْماحُنا ومُجاشِعَ بنَ هلالِ[(١)]

وهو إذ يذكر أسماء هؤلاء جميعًا، فإنّ ما يعنينا هو الاسم الأخير الذي يدلّ على أنّ الهلال كان له صدى كبير في أسماء النّاس منذ القدم، ولا يفوتنا هنا تسمية بعض القبائل العربيّة المغرقة في القدم باسمه، وسيرة بني هلال حاضرة في الأذهان.

والبدر والهلال تحديدًا كانا من أبرز أسماء القمر التي انعكست في أسماء الناس، ولاسيّما الذكور منهم، إذ غاب الهلال عن أسماء الإناث، مع أن بعضهم أنّثه وسمّى ابنته هلالة، في حين اشترك القمر والبدر في أسماء الإناث والذكور.

---

(١) العبسي ، عنترة بن شداد، ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طرَاد، ص١٣٢

وفي ذِكر بني بدر يقول جرير(ت١١٠هـ):

خَدَمْنَ بني غَيْظِ بنِ مُرَّةَ بَعْدَ مَا خَدَمْنَ النشاوَى من شُروبِ بني بَدْرِ[١]

ويقول ذو الرمة(ت١١٧هـ) مادحًا شخصًا اسمه هلال:

حَنَّتْ إلى نَعَمِ الدَّهْنَا، فَقُلْتُ لَهَا أُمِّي هِلالا عَلَى التَّوْفيقِ وَالرَّشَدِ[٢]

وتراثنا الأدبيّ حافل بكثير من هذه الأسماء، ولكنّ ذلك لم يرق للمعرّي (ت٤٤٩هـ)، إذ يقول:

سَمَّوا هِلالاً وَبَدراً أَنجُماً وَضُحًى وَفَرقَداً وَسِماكاً شَدَّ ما كَذَبوا[٣]

وهو هنا يسجّل موقفه من هذه الأسماء، وهو موقف لا يفترق عن مواقفه المعروفة من الكون والحياة والناس، إذ يرى أنّ اختيار الناس لأسماء القمر، وتحديدًا في طوري البدر والهلال، واختيارهم كذلك لأسماء النجوم، بكلّ ما تتّصف به تلك الكائنات من جوهر نقيّ وصورة مشرقة، ما هو إلاّ تزوير للحقيقة التي تنبع من كونهم بشرًا، والبشر في جوهرهم وصورتهم لا يعادلون جوهر هذه الكائنات، أو يحاكون صورها، ولكنّ الناس عمومًا – حسب رأيه – يحاولون إضفاء الجماليّات الكونيّة على أنفسهم، وتقمّص أسمائها، لطمس الحقائق المُرّة التي يخفونها .

---

(١) الخطفي ، جرير ابن عطية ، ديوان جرير، شرح يوسف عيد، ط١،١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت ، ص٢٥٣ ، وهو يقصد عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري.

(٢) ذي الرمة ، غيلان بن عقبة ، ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه مجيد طراد، ط٢، ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٦٨، وأمّي: اقصدي، ويقصد هلالا ابن أحوز التميمي .

(٣) المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبدالله، اللزوميات، تحقيق سيدة حامد وآخرين،د ط، د ت، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ج١، ص١١٢

د) تجلّيات القمر في الأمثال العربيّة

نسج العربيّ قديمًا كثيرًا من الأمثال حول النّجوم والكواكب، ولا غرابة في ذلك، فقد كانت تلك المصابيح سقفًا لبيته الكبير في تلك الصّحراء الموحشة، وكان للقمر المكانة الكبرى بين تلك المصابيح، فقد دخل في عباداتهم كما دخل في أساطيرهم[١]، ولمّا كان المَثَلُ أداة رئيسة من أدوات الأسطورة، تختصر نفسها فيه خشية الضياع، ثمّ تُعيد شرحَ نفسها عبر قصّته، فهي ملزمة أن تُختَصَر وتُكثَّف[٢] ، ومن ثمّ أنْ تُشرَح وتُفسَّر، لتبقى رصيدًا للأجيال، يَحضُر في كل موقف، ويُتناول في كل مأدبة.

ولستُ هنا في صدد مناقشة علاقة المَثَل بالأسطورة، ولكنّني أريد أن أعرض بعض الأمثال القديمة في السّرد الثقافيّ العربيّ، في ما يخصّ القمر، ومنها:

- **(إن يبغِ عليْكَ قومُكَ لا يبغِ عليكَ القَمَر)**[٣]

تراهن قوم في الجاهليّة على الشّمس والقمر ليلة أربع عشرة، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يُرى، وقالت طائفة بل يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا في رجل جعلوه بينهم حكمًا، فقال رجل منهم: إنّ قومي يبغون عليّ فقال الحكم (إن يبغِ عليك قومُك لا يبغ عليك القمر) فذهب كلامه هذا مثلاً، والبَغي الظلم، يقول: إن ظلمك قومك لا يظلمك القمر، فانظر يتبيّن لك الأمر.

- **(فلانٌ لا يخرُجُ منْ جَهَالَتِه، حتّى يَخْرُجُ القَمَرُ منْ هالَتِه)**[٤]

---

(١) انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل

(٢) انظر : زكريا محمد: ذات النحيين؛ الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة، ط١، ٢٠١١م الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ص٥

(٣) انظر: الهروي أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال تحقيق عبدالمجيد قطامش، د ط،١٩٨٠، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، مكة المكرمة ، ص١٠٢

(٤) انظر: الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر ، أساس البلاغة، ص ٥٢٣

وهو مَثَل يُضرَب على ما لا يمكن حصوله، فالقمر لا يخرج من دارته.

- **(اسْرِ وقمرٌ لَك)**[١]

أي اغتنم طلوع القمر.

- **(لأَبْكِيَنَّكَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)**[٢]

أي أنّ الحزن سيبقى طول الدهر، لأنّ البكاء هنا قائم طول طلوعهما.

- **(في القمَرِ ضِيَاءٌ، والشَّمْسُ أَضْوَأُ مِنْه)**[٣]

وهو يُضرَب للأمر الواضح، إذا ما بدا ما هو أوضح منه.

- **(أَبْهَى مِنَ القَمَرَيْن)**[٤]

يُضرَب في شدّة الجمال والبهاء، والقمران: الشّمس والقمر،وقد غلّبت العرب القمر على الشّمس، وذلك لتغليبهم المذكّر على المؤنّث في الاستخدامات اللغويّة[٥].

- **(أُريها السُّها وتُريني القَمَر)** [٦]

وهو يُضرَب لمن يغالط في ما لا يخفى، أو لمن تحاوره في شيء، فيردّ بشيء بعيد عن مجرى المحاورة.

وقد دخل الشعراء في تناصّ مع كثير من هذه الأمثال، فكان لها حضور يؤكّد انسجام النظرة إلى القمر في الموروث شعرًا أو نثرًا، ومن ذلك ما يروى عن أحد الشعراء في

---

(١) انظر:الهرري، أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال ص٣٨١

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ج ٣ ، ص ٣٣٤

(٣) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال ، تحقيق قصي الحسين،د ط، ٢٠٠٣م، دار مكتبة الهلال ، بيروت ج٢، ص٣٠

(٤) نفسه ص٣٥٧

(٥) انظر مبحث عبادة القمر في هذا الفصل

(٦) انظرقصة المثل : زكريا محمد، ذات النحيين ، ص ٢٣٧-٢٥٨

أيّام الحجّاج، عندما اشتكى بعض الناس خراب السواد، فحرّم لحوم البقر ليكثر الحرث، فقال الشاعر:

شَكَوْنا إليهِ خَرابَ السَّواد فحـــرَّمَ فينا لحومَ البقَـــــر

فكانَ كما قيلَ من قبلِنا : أُريها السُّها وتريني القمر[١]

ويُضَمِّن ابن خفاجة(ت ٥٣٣هـ) المثلَ نفسَه، فـــي إحـــدى مقطوعاتـــه الـــشّعريّة، مستحضرًا، الموقف والصورة، يقول:

بَهَرْتِ جمالا فَرُدَّ البَصَـــرْ؛ وَذُبْتُ سَقامًـــا فَفُـــتَّ النَّظَرْ

فصرتُ إذا أَمْكَنَتْ لُقْيَـــةٌ أُريكِ السُّها وتُريني القمر[٢]

فهو هنا يصف جمالها الباهر، الذي يرتدُّ عنه البصر لشدّة وضوحه، بل يصاب مـــن ينظر إليه بالسقام، ويُفتّ نظره، وعند اللقاء يطلّ الشاعر علينا بهذا المثل، للدلالة علـــى بعد الشقّة بينهما على الرغم من اللقاء.

---

(١) انظر زكريا محمد، ذات النحيين؛ الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة، ص ٢٣٧

(٢) ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيق عبدالله ســندة،ط ١، ٢٠٠٦م، دار المعرفـــة بيـــروت، ص١٢٢

المبحث الثالث : القمر والمُعْتَقَد

أ) عبادته

نظر النّاس منذ فجر التاريخ إلى السّماء بشيءٍ من القداسة، وتأمّلوا تلك الكائنات المرصّعة فيها، ولاسيّما الشّمس والقمر، فهما الأكثر مساسًا بالحياة على الأرض، وهما الأكثر إثارة للتفكّر والتأمّل. ونظرًا للغموض الذي يكتنف هذا الوجود لدى الإنسان البدائي، وبحثه الحثيث عن سرّ وجوده وكينونته، كان البحث عن المعبود، فاتّخذ كثير من الناس الشّمس إلهةً، وكذا اتخذّ آخرون القمر.

وقد كانت " الشّمس والقمر محور الاعتقادات الفلكيّة والدينيّة عند البدويّ، ذلك أنّ القمر مرتبط برعاية قطعانه على ضوء نوره، بينما كانت الشّمس تتعلّق بحياة زراعته لتمنحها الدفء والنموّ والحياة "(١).

وهذان المحوران اللذان استقطبا اهتمام الإنسان منذ الأزل لاتصالهما بالحياة الأرضيّة، أصبحا معبودين، إذ تفتّحت على أهميّتهما العيون الباحثة عن مرجعيّة لهذا الكون، ويُذكَر أنّ أهل مأرب قديمًا عبدوا الشمس، في حين عَبَدَ قومُ عادٍ القمر(٢).

" ويرى بعض المؤرّخين أنَّ ديانات جميع الشماليّين والجنوبيّين تتّصل بعبادة القمر، فهو مقدّم عندهم على الشّمس، لأنّ الشّمس محرقة أمّا القمر فهو دليل الرّكب، ورسول القوافل، فكان القمر هو الأب السماويّ، أمّا الشّمس فقد اتّخذت منزلة الأمّ العظمى"(٣).

---

(١) حتي، فيليب ، تاريخ العرب المطول، ط٣ ، ١٩٦١، دار الكشاف ، بيروت، ج١، ص١٣٥

(٢) انظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٣، ١٩٥٦، مطبعة السعادة، مصر،ج٢ ، ص ١٥٤

(٣) الشورى، مصطفى عبدالشافي ، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ط١، ١٩٦٦م، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، ص١٢٠

واللافت أنّ أولئك الأقوام ومَن سبقهم من الأمم أدركوا مُبكّرًا أنَّ الشّمسَ نارٌ والقمرَ نورٌ، وهو ما أكّده القرآن الكريم في ما بعد، وأكّده العلم الحديث لاحقًا، إذ تبيّن أنَّ نورَ القمر ما هــو إلا انعكاس لتوهّج الشّمس.

وقد " عُدّت (آلهة السّماء) أقدم أنواع الآلهة بمنظور الفكر الأسطوريّ، قبــل أن تنــزل منزلة البشر، وفي مقدّمة تلك الآلهة (الشّمس والقمر) بوصفيهما إلهين قائمين بذاتهما، في حين كان يتمّ تشخيص بقيّة الآلهة عن طريق ارتباطهما بالنجوم والكواكب السيّارة "[١].

ويؤكّد عبدالله الطيّب في (المرشد على فهم أشعار العرب) أنّ الشّمس كانت معبودة ســابقة عند الساميّين، وأنّها كانت إلهةً للخصب، ومن هنا شبّه العرب المرأة بالشّمس،ولا ريب عنده أنَّ القمر كان عند العرب من الآلهة المذكّرة، ويحسبه كان زوج الشمس، لذلك غلّبوه عليها، فقــالوا (القمران) [٢].

ولكنَّ الطيّب لم يقدّم ما يؤكّد هذه المقولة، فكيف تكون الشّمس رمزًا للخصوبة عند مَن يراها محرقة؟ وهل شبّه العرب النساء بالشّمس لهذا السبب، أم أنّ ذلك التشبيه اتّخذ بُعــدًا جماليًّــا ؟ فنحن لا نجد شاعرًا يصوّر أنثى ولودًا بأنّها الشّمس لخصوبتها.

وفي بلوغ الأرَب تأكيد أنّ القدماء اتّخذوا للقمر صنمًا على شكل عِجل وبيده جوهرة، تمامًا كالصّنم الذي اتّخذوه للشّمس، وكانوا يأتونه للزيارة ومعهم الطعام والشراب فيُقيمون عنده أيّامًــا معلومة، يقضونها في الصّوم والصّلاة والعبادة، أو الرقص والغناء، وذلك لــزعمهم أنّ تــدبير العالم السفليّ راجع إليه [٣].

(١) النعيمي، أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإســلام، ط١ ، ١٩٩٥م، ســينا للنــشر، مصر، ص١٤٠

(٢) انظر الطيب، عبدالله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ط ١، ١٩٧٠، دار الفكر، بيروت، ص٨٨٠

(٣) انظر: الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في أحوال العرب، تحقيق محمــد الأثــري، ط٣، د ت، مطابع دار الكتاب، مصر، ج٢، ص ٢١٦

ب) ارتباط عبادة القمر بمعبودات أخرى

نظرًا لميل الإنسان إلى التجسيم، وربط المعتقدات بالواقع المعيش، فقد ربطوا بين الثّور الوحشيّ والقمر مُطلقين عليه أسماء الآلهة "ود" أو " سين" أو " شهر" .

وإذا كانت عبادة الثّور مرحلة أولى فإنّ عبادة القمر مرحلة ثانية، إذ " وجدت في معابد القمر – جنوبيّ الجزيرة – صور للثور قدَّمه عابدوه قرابين للإله أو نذورًا كانت عليهم له، ولقد عُرف القمر باسم " ثور" [١]. وقد عُثر في منطقة ظفار العمانيّة على تمثال من البرونز لثور يرمز إلى الإله القمر [٢].

وقد كان الربط بين الحيوانات الأرضيّة والمجموعات النجميّة كبيرًا، فأطلقوا المسمّيات الحيوانيّة على تلك المجموعات. وفي نظرتهم للقمر، وتصوّراتهم حوله، ومراقبتهم لمنازله وتطوّراته، ربّما كان الهلال أشبه بقرني الثّور، ولا غرابة في الربط بينهما إذًا، إذ كانت عبادة " الثور" تجسيدًا أرضيًّا لعبادة القمر السماويّ[٣].

فالقمر بمنازله المتغيّرة قد ارتبط منذ زمن مُبكّر بطقوس الزراعة والخصب واستنزال المطر، فرأوا الهلال كقرون الثّور، والثّور فيه قوّة الإخصاب، ومن هذه الجهة جاءت عبادة "الثور" ، وهذا يتفق مع طبيعة الإنسان القديم في الميل إلى التجسيم أكثر من ميله إلى التجريد العام" [٤] .

---

(١) الشورى ، مصطفى عبدالشافي ،الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ص٧٣

(٢) انظر صورته في: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢، ١٩٧٨م، دار العلم للملايين، بيروت، ج٨، ص ٨٧

(٣) انظر، نيلسون، ديتلف وآخرين، التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين، د.ط ،١٩٥٩م مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ، ص ٢٠٧–٢٠٨

(٤) الشورى، مصطفى عبدالشافي، الشعر الجاهلي(تفسير أسطوري) ص ١٢٠

ويرى البعض في بيت لبيد (ت ٤١هـ) واصفًا بقرة وحشيّة:

وتُضيءُ في وَجْهِ الظلامِ مُنيرَةً كَجُمَانَةِ البَحْرِيِّ سُلَّ نِظامُها[١]

يرون فيه ربطًا بين القمر السّماويّ والثّور والبقرة الوحشيّة على الأرض، بل إنّ الأخيريْن كانا رمزيْن لذلك الإله القمريّ في المرحلة الطوطميّة والحيوانيّة[٢].

ونظرًا للاقتران الحاصل بين مصدريّ الضوء في البيئات المختلفة قديمًا، فقد ارتبطت عبادة القمر بعبادة الشّمس وعبادة الكواكب الأخرى منذ زمن بعيد، وفي القرآن الكريم ما يؤكّد تلك العبادات، كما سنرى في المبحث الرابع من هذا الفصل.

ويؤكّد نصرت عبدالرحمن أنّ الجاهليّين عبدوا " ثالوثًا مكوّنًا من القمر والشّمس وعثتر، وكان هذا الثالوث أشبه بعائلة مقدّسة من أب وأمّ وولد "[٣] ويرى أنّ المقصود بعثتر هو الشّعرى، لا كما يرى المؤرّخون بأنّه الزهرة[٤]، وعندما أدرك القدماء اختفاء هذه الكواكب ليلاً أو نهارًا، عملوا على تجسيدها في صور وأشكال أصنام وتماثيل ليعبدوها[٥].

ومهما يكن فإنّ القمر كان من أبرز الكواكب التي عُبدت قديمًا، والنظرة إلى المعبود غالبًا ما يشوبها القداسة، وهذه الهالة القدسيّة لا تنقطع بسهولة ، فلا بُدّ من أنْ يبقى لها انسرابُها في الوعي الثقافيّ سردًا وشعرًا.

---

(١) ابن ربيعة، لبيد بن مالك العامري ، ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، ط ١، ٢٠٠٤م، دار المعرفة، بيروت، ص١١٢ وجه الظلام: أوله، والجمانة: خرزة من الفضة، ونظامها :خيطها

(٢) الشورى، مصطفى عبدالشافي، الشعر الجاهلي (تفسير أسطوري) ص١٣٢

(٣) عبدالرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، ط٢، ١٩٨٢م، مكتبة الأقصى ، عمان، ص ١١٣

(٤) انظر، نفسه، ص١١٣

(٥) انظر: المسعودي، مروج الذهب ، ج٢ ، ص٢٣٦

ج) أسطرت القمر

يرى آخرون أنّ عبادة القمر ارتبطت بعبادة سماويّة أخرى، وأنَّ القدماء أوجدوا صورًا أرضيّة لتلك المعبودات السماويّة، وربّما كان ذلك لتمثّل الصّورة عن قرب عند العبادة، واستيعاب الرمز روحيًّا للدلالة على المرموز، فقد ورد أنَّ العرب القدماء عبدوا ثالوثًا " هو القمر، واسمه عند المعينيّين ود، وكان إلههم الأكبر، وتليه الشّمس وهي زوجه، وسمّوها اللات، ومنها ولد (عثتر) أو العزّى، وهي الزهرة أو فينوس "(١).

وأيًّا يكن؛ فقد كانت النظرة إلى الشمس والقمر تشوبها القداسة حينًا، وتشوبها الخرافات أحيانًا، فكان القمر الأب الأكبر في حين كانت الشّمس الأمّ الكبرى، وكان العربيّ ينظر إليهما على أنّهما نجمان من نجوم السماء، ولم يكن آنذاك يفرّق بين النجم والكوكب مع أنّهما مختلفان، فالأوّل مضيء بنفسه، بينما الآخر مضيء بغيره، ولكن ليس ثمّة ضرورة لهذا التمييز من الناحية الأدبيّة، إذ طالما تجاوزه الشّعراء، فأباحوا لأنفسهم إطلاق لفظة الكوكب على النجم والعكس صحيح (٢).

ومع أنني أتّفق مع الآراء التي تقول بعبادة القدماء للقمر، إلاّ أنّ تلك الحقبة ليست محورًا في هذه الدراسة، فمحورها يبدأ مع أوّليّات الشّعر الجاهليّ التي وصلت إلينا، وهي الفترة المتعارَف عليها بقرابة مئتي سنة قبل الإسلام، وباستقراء شعر هذه الفترة، لم أجد ما يشير إلى عبادة القمر بصورته السماويّة، أو إلى عبادته بصورته الأرضيّة، مع أنّنا نجد الكثير من الحديث عنه، بصفات لا تدلّ من قريب أو بعيد على عبادته.. كما أنّ تلك الأشعار التي وصلت إلينا حول الثور الوحشيّ لا تشير صراحة إلى عبادته، وإن كانت تحمل بعض مظاهر القداسة .

---

(١) شامي، يحيى عبدالأمير، النجوم في الشعر العربي القديم، ص٦٠

(٢) انظر، نفسه، ص٢٢

ونظرًا للأهميّة الخاصّة للقمر، فقد تحوّل في كثير من الأحوال، لدى عدد مــن الــشعوب القديمة إلى أساطير، ومن ذلك ما جاء في محاولة لتفسير البقع الداكنة على وجه سطحه، إذ تقول إحدى الأساطير: إنّ القمر كان يلاحق الشّمس بحبّه لها حتى أغضبها، فلطّخت وجهه المــستدير بالرّماد كي يدَعَها وشأنها، ومنذ ذلك الحين والقمر يحتفظ بالبقع السّوداء [١].

وقد كان للشعر العربيّ موقفه من ذلك ، عندما تسابق الشّعراء إلى وصــف تلــك البقــع الداكنة، بأنّها من أثر اللطم، يقول الوأواء الدمشقي(ت ٣٨٥هـ):

ولَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ البَيْنِ طُولاً   كأَنَّ ظَلامَهُ لَــوْنُ الصُّـــدودِ

بياضُ هِلالِهِ فيهِ سَــوادٌ   كَإِثْرِ اللَّطمِ في يَقَقِ الخُــدودِ [٢]

وفي ذلك يقول أبو العلاء المعرّيّ أيضًا:

وما كُلْفَةُ البَدْرِ المُنيرِ قديمَةً   ولكنّها في وَجْهِهِ أَثَرُ اللــَّدْمِ [٣]

كما كان للشعر العربيّ القديم دوره في تحويل القمر إلى أسطورة، إذ رأى القدمـــــاء أنّ " صورة الثّور الوحشيّ في الشّعر العربيّ تحكي في عناصرها المتكرّرة قصّة يمكــن ربطهــا بأسطورة القمر المعروف باسم ثور"[٤].

ومثل هذه الأبيات وغيرها في الشّعر العربيّ القديم، يدلّ على تأثّر الشعراء بما ورد مــن أساطير وأقاويل حول كائنٍ كانَ وسيبقى مصباحًا لهذه الأرض.

---

(١) انظر: القمر علم وأخبار وأشعار، ملف العدد، مجلة القافلة، أرامكو، الظهران، المجلد الرابع، العدد ٥٢، ٢٠٠٣م، ص ٨٩

(٢) الدمشقي، الوأواء، ديوانه تحقيق سامي الدهان، ط٢،١٩٩٣م، بيروت، دار صادر، ص٨٦ واليقق : البياض

(٣) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله ، سقط الزند، دار بيروت ودار صادر ، د ط، ١٩٥٧م، بيروت ص٢٣ والكلفة هي اختلاط اللون، واللدم : اللطم

(٤) البطل، علي، الصورة في الشعر الجاهلي، ط٣ ، ١٩٨٣م، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيــروت، ص ١٢٤

د) انعكاس ظهوره وغيابه على بعض الكائنات:

ساد الاعتقاد قديمًا بوجود تأثير لظهور القمر وغيابه على الزراعة والحيوانات، وتنـــامى ذلك الاعتقاد ليصل إلى حَدّ إقران بعض الأحداث بعلاقة مباشرة أو غير مباشرة بمنازل القمر، معتقدين أنّ للقمر تأثيرًا على الحياة في الأرض، ولا سيّما في الميلاد والنموّ والموت رابطـــين بين ولادة القمر واكتماله ومحاقه، وكان بعضهم يرى في ظاهرتي الكسوف والخـــسوف نـــذيرًا بالمجاعات وسِنيّ القحط والجدب، فضلاً عن الحروب، أو موت عظيم أو حدوث كارثة(١).

ورأى بعضهم أنَّ النوم في ضوء القمر، وتأمّله عند الإغفاء قد يؤدّي إلى الجنون، وأسقطوا على نموّ النباتات أثناء البذار في ضوء القمر صفات ديمومة الاخضرار، والنموّ السريع.

ومن هنا فقد كان للقمر دور كبير في التنجيم والكهانة، فكان المنجّمون يـــستعينون بـــبعض منازله للتدليل على آرائهم، وتسويغ مقولاتهم، وقد انتقلت تلك النظرة إلى الأمثال العربيّة عبـــر كثير من العبارات المسجوعة، أورد كثيرًا منها المرزوقيّ في كتابه " الأزمنة والأمكنة"(٢).

وكلّ هذه المعتقدات هي وليدة الصّلات بين الأعلى والأسفل، كما يرى محمـــد عجينـــة(٣)، فلهذين الاتّجاهين أهميّة كبرى في رسم الفضاء الأسطوريّ، ويدلّل على ذلك بعلم التنجيم ، وما ينطوي عليه من إيمان ضمنيّ بالحتميّة التي تفرضها الكواكب على الأرض(٤).

ويُعلّل العربيّ كثيرًا من التصرّفات الحيوانيّة بارتباطات مباشرة أو غير مباشرة بالقمر، ومن ذلك ما قيل عن عيون السنّور التي تصبح أكثر استدارةً ولمعانًا بضوء القمر، وكذلك ما للكلاب

---

(١) انظر النعيمي، أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ص١٤٤

(٢) انظر المرزوقي ، الباب السابع والعشرين، الأزمنة والأمكنة، ص٦٠-٦٥

(٣) انظر: عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب في الجاهلية ودلالاتها، ط١، ١٩٩٤، دار الفـــارابي، بيروت،ج٢، ص١٨٩

(٤) انظر: نفسه ص ١٩١

من علاقة صداميّة مع ضوئه ، ممّا دعا العربيّ إلى ضرب نباح الكلب لضوء القمر مثلاً على عدم الفائدة، ومن ذلك ما جاء في شعر إبراهيم بن هرمة (ت ١٧٦هـ):

وإنّي وَمَدْحِيكَ غَيْرَ المُصيبِ لَكَالكَلْبِ يَنْبَحُ ضَوْءَ القَمَـــرْ

مَدَحْتُكَ أَرْجُو لَدَيْكَ الثَّـــوا بَ فكنْتُ كَعَاصِرِ جَنْبِ الحَجَرْ[١]

وقد كان سائدًا عند العرب قديمًا " أنَّ النطفة إذا وقعت في الرحم أوّل الهلال، خـرج قويًّـا ضخمًا، وإذا كان في المحاق خرج ضئيلاً شختًا " [٢].

ومن الطبيعيّ أن نرى صورة عكسيّة، وهي تعليل وجود البثور على وجه القمر الجميـل، فرسموا لتلك العلامات أشكالاً مختلفة كالقطّة والضفدع والأرنب، بل إنّ بعـضهم رأى صـورة رجل قد سجن هناك.. وما زالت بعض الخرافات تتناقل حتّى يومنا هذا عـن صـورٍ لكائنـات تشاهد على صفحة ذلك القرص المنير.

والسّرد العربيّ حفل بكثير من القصص حول القمر وتأثيره في الحياة الأرضيّة, ولم يقتصر ذلك على مجالات المدح والثناء فقط, بل تجاوزها إلى النقيض من ذلك أحيانًا, فقد أكثر بعـض الأعراب من ذمّه, وإظهار عيوبه, " فقد قيل إنَّ أعرابيًّا رأى رجلاً يرقب الهلال, فقال له : مـا ترقب منه وفيه عيوب, لو كانت في حمارٍ لرُدَّ بها . فقال وما هي ؟ فقال : إنّه يهدم العمـــر,

---

(١) ابن هرمة، إبراهيم ، شعر إبراهيم بن هرمة القرشي، تحقيق محمد نفاع و حسين عطوان، د ط، د ت، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص١١٤ والشطر الثاني من البيت الأول يضرب مـثلا علـى خيبة الأمل.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البخلاء ، تحقيق طه الحاجري، د ط، د.ت، دار المعارف، مصر، ص ١١١

ويُقرِّبُ الأجل, ويحلّ الدين, ويقرض الكتّان, ويشحِّبُ اللون, ويفسد اللحم, ويفــضح الطــارق, ويعين السارق "" [١] .

ومثل هذه الأسجاع, وإن جاءَت في إطار الذمّ إلاّ أنّها تبوح بأهميّة القمر عنــد الأعرابــيّ, وذلك بما أودعه فيه من صفات تنمُّ عن فعل تأثيريّ مدمّر لهذا الكائن العلــويّ علــى الحيــاة الأرضيّة .

ولعلّ ما قاله الأعرابيّ يُعدّ واقعيًّا إذا ما قيس بالدلالتين الزمنيّة والضوئيّة, فالزّمــان يهــدم العمر, والضوء يكشف السارق ... ولكنّ الغريب هنا, هو علاقة القمر بالثياب المصنوعة مــن الكتّان, وهو في الأصل نباتٌ تُحاكُ من أليافه وخيوطه الثياب, فما هو ذلك التأثير السحريّ الذي يقوم به القمر ليبلي الكتّان؟! وهل لهذا ارتباط بانعكاس تأثيره على الكائنات الأرضــيّة ؟! ولِــمَ الكتّان تحديداً ؟!

كُلُّ هذه الأسئلة تغلغلت في نفوس الشعراء وعيونهم, فسطَّروا ذلك شعراً .

يقول أحدهم :

تَرى الثيابَ مِنَ الكتّانِ يلمَحُها — نورٌ من البدرِ أحيانــاً فيَبليهــا

فكيفَ تُنكِرُ أن تبلى غلائــلُهُ — والبدر ُفي كُلِّ وقتٍ طالع فيها [٢]

وقال الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ) :

كيــف لا تُبلــى غلائلــهُ — وهــو بدرٌ وهــي كتّــانُ [٣]

---

(١) الصفدي, صلاح الدين خليل, رشف الزلال في وصف الهلال ص١٤٧

(٢) انظر البيتين في : الصفدي, رشف الزلال في وصف الهلال ص١٤٩

(٣) انظر, نفسه ص١٤٩

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ, فقد دارت حول القمر أحاديث وأقاويل كثيرة, اتّشحت في كثيـــر من الأحيان بثوب الخرافة وقد أشار إلى ذلك المعرّي بقوله :

قد صدَّقَ الناسُ ما الألبابُ تبطِلُــهُ   حتى لظنّــوا عجوزاً تحلِبُ القمرا

أناقَةٌ هو أم شاةٌ فيمنَحَـــــــــها   عُسّاً تغيثُ به الأطيافَ أو غُمُرا ؟[١]

(١) العلوي, هادي, المنتخب من اللزوميّات, ط١, ١٩٩٠, مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكيّة في العالم العربي, دمشق, ص١٧٧

المبحث الرابع:

القمر في الثقافة العربيّة بعد ظهور الإسلام

أ) القمر في القرآن الكريم

ورد ذكر القمر في القرآن الكريم في سبع وعشرين آية، غالبًا ما اقترن فيها بالشّمس واللّيل والنّهار، فضلاً عن انفراده في عدد منها، وهو في كل ذلك بُرهان للناس على تسخير هذه المخلوقات الكونيّة لخدمة الحياة على سطح الأرض، في دعوة ربّانيّة إلى التأمّل والتفكّر في هذه الحركة الدقيقة لكلّ منها، وإلى هذا الإعجاز في تسيير هذا الكون وفق نظام دقيق يدلّ على عظمة الخالق، قال تعالى:**﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [١]، وقد بيّنت الآيات في أكثر من موقع أنّ هذا التسخير لهذه الموجودات دالّ على مسيرتها في الحركة الكونيّة، والأهميّة الخاصّة الّتي تضفيها تلك الحركة على الحياة الأرضيّة، فهذا النظام الإلهي الدقيق هو الذي يحافظ على التوازن في مسيرة المنظومة الكونيّة، قال تعالى: **﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾**[٢]، وقال تعالى : **﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾**[٣]،وفي آية أخرى: **﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ**

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٤

(٢) سورة الرعد، الآية ٢

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٣٣

بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١]، وتتعدّد الآيات التي تنصّ على تسخير القمر ، وطبيعة حركته في هذا الكون ، ومنها :﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[٢] ، وهذا التسخير مُدرك للناظرين المتأمّلين في خلق الله: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾[٣]، وقـــال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[٤] ، وقال تعالى: ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** ﴾[٥] وتلك الحركة الكونيّة تدلّ على تنظيم فائق لهذه الأجرام: ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [٦]، كما قال تعالى :﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ [٧].

وقد ورد ذكره في بعض الآيات موضّحًا كيف كانت نظرة الإنسان له، فقد كان يشوب تلك النظرة شيء من التّقديس، وإسباغ السموّ والرفعة على هذا الكائن السّماويّ، وربّما هــذا ما

---

(١) سورة النحل، الآية ١٢
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٣
(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦١
(٤) سورة لقمان، الآية ٢٩
(٥) سورة فاطر، الآية ١٣
(٦) سورة يس، الآية ٤٠
(٧) سورة الزمر، الآية ٥

جعل سيّدنا إبراهيم – عليه السلام – يتأمّله ويتفكّر فيه بحثًا عن المعبود، وهو في تأمّله السماويّ، لم يقنع بما قنع به قومه من عبادة الأصنام والكواكب، فرأى في هذا الكوكب المنير المراقب لهذه الأرض احتماليّة الربوبيّة، ولكنّه ما فتئ أن استنكف عن هذا الاعتقاد بمجرّد غياب القمـــــــــــــــر: **﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾** (١).

وهذا يوسف – عليه السلام – يرى القمر ساجدًا له، وفي هذه الرؤيا نجد الواقع مقلوبًا، ففي حين رأى إبراهيم احتماليّة أن يكون هذا القمر ربًّا وهو ينظر إليه بشيء من القداسة، نجد يوسف هو الذي يتمتّع بهذه القداسة، إذ تسجد له الكواكب والشّمس والقمر : **﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾** (٢).

وقد قيل في تفسير هذه الآية: إنَّ الشّمس أُمّه والقمر أبوه، وهو ما يعزّز النظرة القائلة بتذكير القمر وتأنيث الشّمس، وإذا كانت رؤيا يوسف – عليه السلام – جعلت من القمر رمزًا لكائن أرضيّ في عمليّة السجود التي تدلّ على التكريم والإكبار لا على العبادة، فها هو القمر كغيره من المخلوقات يسجد لخالقه: **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُـــومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾** (٣).

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٧٧
(٢) سورة يوسف ، الآية ٤
(٣) سورة الحج، الآية ١٨

ومن هنا فقد نهى اللهُ عن السجود للقمر، وأمر بالسجود لخالقه: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾(١).

وقد ورد ذكره مقترنًا بالحساب والتقويم، وسبق أن عرفنا ارتباطه بالتقويم القمريّ والسنة القمريّة، كما عرفنا ذلك الارتباط من خلال منازله، فبه تعرف الشّهور والسّنون : ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾(٢) وفي سورة الرحمن:﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾(٣)، ومع هذه الحركة تتصدّر التغيّرات التي تطرأ عليه ، وتنعكس على النظرة الأرضيّة له، فهو يتحرّك بين مجموعات نجميّة ويقع في كل منها بمنزلة تسمّى منازل القمر :﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴾ (٤).

وإذا كان في حركته المستمرّة يرشدنا إلى التقويم، ونعتمد عليه في احتساب السّنين والحساب، فهو في نوره الهادئ يخفّف من حدّة الظلام، ويبعث نورًا يُنير أرضنا ليلاً :﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (٥)، وقد فرّق العلماء بين الضّياء والنّور، فعَدُّوا الشّمس مصدرًا مضيئًا بنفسه، إذ ينتج الإضاءة عن طريق احتراقه، بينما عدّوا القمر منيرًا بغيره، فما هو إلاّ مرآة تعكس نور الشّمس، وقد بيَّنت الآيات لنا كلّ ذلك، ففرّقت بيــن كلّ من

---

(١) سورة فصلت، الآية ٣٧
(٢) سورة الأنعام، الآية ٩٦
(٣) سورة الرحمن، الآية ٥
(٤) سورة يس، الآية ٣٩
(٥) سورة يونس، الآية ٥

الشمس والقمر في نسبة الضوء والنور لهما، قال تعالى:﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وجَعل فيها سِراجًا وقمرًا مُنيرًا** ﴾[١]، ويؤكّد على حقيقة هذا الفرق بين الشّمس التي هي مصدر الضوء والقمر الذي هو نور:﴿ **وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾[٢].

وأمام هذا البيان القرآنيّ المعجز في التفريق بين الضّوء والنور، نجد القرآن الكريم يتحدّث عن جوانب أخرى من الدلائل الإعجازيّة التي كان القمر محورها، قال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [٣]، ﴿**وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ [٤].

كل ذلك جعل من القمر أهلاً لأن يقسم الله به، وله – جلّ وعلا – أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، والقَسَم عادة يدلّ على عظمة المُقسَم به وأهميّته، وقد تكرّر القسم الإلهي بالقمر في أكثر من آيةٍ قرآنيّة كريمة، فقد قال تعالى: ﴿ **كَلاَّ وَالْقَمَرِ**﴾ [٥]، ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**﴾ [٦] ، ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا**﴾ [٧].

---

(١) سورة الفرقان، الآية ٦١
(٢) سورة نوح، الآية ١٦
(٣) سورة القمر، الآية ١
(٤) سورة القيامة، الآيتان ٨–٩
(٥) سورة المدثر، الآية ٣٢
(٦) سورة الانشقاق، الآية ١٨
(٧) سورة الشمس، الآية ٢

ب) القمر في الأحاديث الشريفة

دحضت الأحاديث الشّريفة كثيرًا من التصوّرات التي كانت سائدة لدى الناس عن القمـــر، فبيّنت بطلان المزاعم والخرافات التي تناقلها الناس عنه، وعن أطواره المختلفة، وعلى رأســـها الزعم بأنّ ظاهرتي الكسوف والخسوف تدلان على موت عظيم أو حدوث كارثة ، فقال الرسول ــ عليه السلام ــ في الحديث الصحيح والمتّفق عليه: **(إن الشّمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله تعالى وإلى الصلاة)**[1].

وقد ورد ذكر القمر بصفته الجماليّة في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، كما أنّ الصحابة في وصفهم لوجه الرسول – ﷺ– شبهّوه بالقمر، وفي تلك التشبيهات ما يُضفي أبعادًا جماليّـــة خاصّة، تجمع ما بين من أُرسل للناس نورًا على الأرض، وما يرونه من نور سماويّ ، حباهم به الخالق جلّ قدره.

ومن جهة أخرى كان القمر محطّة من محطّات الإعجاز ، إذ انشقّ على عهد الرســـول – ﷺ– وقد تحدّثت عن ذلك الأحاديث النبويّة الشّريفة، كما ورد في القرآن الكريم.

وأمّا هلال رمضان فقد اتّخذ محطّة ثابتة في التصوّر الإسلاميّ، فهو إعلان بدء فريضة

---

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، ط١، ١٩٢٩م، دار إحيـــاء التـــراث العربـــي، بيروت، لبنان، كتاب الكسوف المجلد الخامس ص٢٠٠

الصوم، وإعلان انتهائها مبشّرا بحلول العيد، فقد قال – ﷺ– :" **لا تصوموا حتــى تــروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن غُمَّ عليكم فاقدروا له**" [(١)].

ومنذ هذا الإعلان النبويّ أصبح الهلال رمزًا إسلاميًّا ذا أهميّة بالغة، وأصــبح تحرّيــه ضرورة ملحّة، وأمام ذلك الترقّب والانتظار، واكب الفكر النظر، فكان ميدانًا للتأمّل والتفكّــر، وعندما سُكّت النقود لأوّل مرّة في سنة خمس وسبعين للهجرة، ظهر عليها رمز الهــلال، كمــا ظهر على مآذن المساجد، والنقوش الداخليّة والخارجيّة فيها، وما زال ذا أهميّــة بالغــة رمــزًا إسلاميًّا، فرأينا الهلال الأحمر ، ورأينا كيف يُزيّن المسلمون به بيوتهم ولا ســيّما فــي شــهر رمضان.

كلّ هذا انسرب في الوعيّ الشّعريّ لدى الشّعراء العرب فيما بعد، وأصبح للهــلال تحديــدًا محطّات ثابتة لدى بعضهم، وقد ذكر الحمويّ في خزانة الأدب أنّ الشّعراء وصلوا في تشبيهاتهم الهلال إلى السبعين [(٢)]، وهو ما يوحي بهذا الحجم الكبير الذي شكّله الهلال في الوعي الشّعريّ العربيّ.

---

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيام، المجلد السابع ص١٨٨

(٢) انظر ،الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب، تحقيق عصام شعيتو، ط١، ١٩٨٧م، دار مكتبة الهلال ، ص ٢١٨

الفصل الأول

تجلّيات القمر في الوعي الشّعريِّ

ثقافيًّا وجماليًّا

المبحث الأوَّل:

النظرة الواقعيَّة

كان القمر محوراً من محاور الطبيعة الصّامتة الّتي فتن بها الشّعراء، ورأوا فيهـا تجليًّـا لديمومة رقابيَّة تطلُّ على الصّحراء المترامية الأطراف من علٍ، فتبعث نورًا دافئًا يبدّد وحـشة الليل، ويهتك أستار الدجى، ويخفّف من أعباء السّفر في الّليالي القاسية، إذ كان يلجـأ العربـيّ للسفر ليلا هربًا من شدّة الحرّ في النّهار، متخيِّراً الّليالي المقمرة لتعينه على الإبصار في مفاوز الصّحراء، فها هو الشنفرى (ت٧٠ق.هـ) وقد اختار اعتزال المجتمع خوفًا من القِلـى، وآثـر صحبة مجتمع البيئة البريّة على قسوتها ومرارتها، يشدّ رحاله متخيِّرًا الرحيل في ضوء القمر:

أَقيمُوا بَنِـي أُمِّي صُـدورَ مَطِيِّكُـمْ   فإنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَـلُ

فَقَدْ حُمَّتِ الحاجاتُ والليْلُ مُقْمِـرُ   وَشُدَّتْ لِطِيَّاتٍ مَطَايا وَأَرْحُـلُ

وَفي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى   وَفِيها لِمَنْ خَافَ القِلى مُتَعَزَّلُ(١)

ولّليلة المقمرة لون خاصّ تستمدّه من نور حاديها، وهو لون يبعث على الراحـة والأُنـس والطمأنينة، إنَّه الأبيض المشوب بالفضّيِّ والمائل إلى الحمرة أحيانًا، وقـد اسـتمدّ كثيـر مـن الشّعراء صورة الفضّة الذائبة للتعبير عن نور القمر وصفائه، وابن المعتز(ت٢٩٦هـ) يعكـس صفاء إحدى الليالي المقمرة على صورة فضّة ذائبة بحجم البلد، دلالة على نـور القمـر الـذي ينسدل على الأرض من علٍ:

هَلْ لَكَ فِي لَيْلَةٍ بَيْضَاءَ مُقْمِـرَةٍ   كَأَنَّـهَا فِضَّةٌ ذَابَتْ عَلَى الْبَلَـدِ(٢)

---

(١) الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، ديوان الشنفرى، تحقيـق إميـل بـديع يعقـوب، ط٢، ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي ، بيروت، ص٥٨، وحمّت: قُدّرت، والطيّات: الحاجـات، والمنـأى: المكـان البعيـد، والقلى: الكراهية، والمتعزّل: مكان العزلة.

(٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق يونس الـسامرائي، ط١، ١٩٩٧م ، عالم الكتب، ، بيروت لبنان، ج٢، ص٩١

وفي الإطار نفسه يقول أيضًا:

كَمْ لَيْلَةٍ مَحْمُودَةٍ أَحْيَيْتُهَـــــا جَاءَتْ بِأَسْعَدِ طَائِرٍ لَمْ يُنْحَسِ

بَيْضَاءَ مُقْمِرَةٍ أَتَاهَا صُبْحُهَا وَثِيَابُهَا مِنْ ظُلْمَةٍ لَمْ تَدْنَسِ(١)

وفي الليالي المقمرة يطيب السّمر، وتتبدَّى الأطايب، وينعم السّمار باللذائذ يقول أبو هلال العسكرّي(ت٣٩٥هــ) :

كمْ تناولْتُ اللذاذَةَ مِنْ كَثَبْ وَالدَّهْرُ مَسْكُونُ الحَوَادِثِ وَالنُّوَبْ

فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ تَحْسبُ أَنَّها تُلْقِي عَلَى الآفاقِ أَرْدِيَةً قَصَبْ(٢)

والليلة المقمرة كما يراها الشعراء، ذات لون أبيض، تشرق عليهم بنورها الهادئ، مما يجعل الليل نهارًا في النور، وظلا يقي أذى الحرّ، قال ابن طباطبا(ت٣٢٢هــ):

وَلَيْلَةٍ مِثْلِ يَوْمٍ شَمْسُهَا قَمَــرٌ بَدَتْ بُدُوَّ الضُّحَى ظَلاءَ قَمْرَاءَ

يا حُسْنَهَا لَيْلَةً عَادَ النَّهارُ بِها أُنْسًا وَطِيبًا وإِشْرَاقًا وَلألاءَ (٣)

ولما كانت الليلة القمراء هدفًا ينشده العربيّ، فقد كان القمر هو المخلّص من السواد والظلمة، وهو الذي يقي العربيّ تغوُّل الصحراء في الليالي الحندسية، ومن هنا ترثي الدعجاء بنت المنتشر أباها بوصفه قمرًا يستضاء به، فهو يجلو السّواد :

مِرْدَى حُروبٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ كَمَا أَضَاءَ سَوادَ الطِّخْيَةِ القَمَرُ(٤)

والأخطل(ت ٩٠هــ) يرى سنة ممدوحه نورًا هاديًا كما هو نور القمر للمسافر:

---

(١) السابق ص١٥٣ ، وفي محاضرات الأدباء، ج٢، ص٥٦٩: بيضاء قمراء

(٢) العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله ، شعر أبي هلال العسكري، تحقيق محسن غياض، ط ١، ١٩٧٥ م، منشورات عويدات، بيروت، ص٧٥

(٣) انظرالبيتين :ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار ص ٦٧

(٤) شيخو، لويس ،رياض الأدب في مراثي شواعر العرب، جمع وضبط وتعليق لويس شيخو، د ط، ١٨٩٧م، المطبعة الكاثوليكية، ص١٢٢-١٢٣

تُضيءُ، في الليْلَةِ الظلماءِ سُنَّتُهُ كما يُضيءُ لِمَنْ يَسْري بهِ، القَمَـــرُ[(١)]

ويرى الفرزدق(ت١١٠هـ) ممدوحه الوليد بن عبدالملك بدرًا يهتدى به إذا انحرف الحاقدون عن الطريق القويم:

هُوَ القَمَرُ البَدْرُ الذي يُهْتَدَى بِـهِ إذا ما ذَوُو الأَضْغانِ جَارُوا عَنِ السُّبُلِ[(٢)]

وأمّا سابق بن عبدالله البربريّ(ت١٣٢هـ) فهو يرى أنّ العلم شبيه بالقمر، فالأوّل يزيل الجهل، والآخر يجلو الظلام، وذلك في صورة شعريّة بيّنت النظرة العربيّة العميقة إلى أهمِّيّة العلم في زمن مبكّر:

والعلمُ يَجْلُو العَمى عن قلْبِ صاحِبِهِ كمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ القَمَـــرُ[(٣)]

وإذا كان ضوء القمر هو الممحاة التي تجلو الظلام، فقد ربط الشعراء بينه وبين من يسري ليلا، فهو الأنيس إذا عزّ الرفيق، تقول الخنساء:

جَـمٌّ فَواضِلُـهُ، تَنْـدَى أَنَامِلُـهُ كَالْبَدْرِ يَجْلُو ولا يَخْفَى عَلى السَّاري[(٤)]

ولمّا كان القمر يضيء الظلام فقد استعاره الشّعراء لتصوير جمال معشوقاتهم، يقول عمر بنُ أبي ربيعة:

خَوْدٌ تُضيءُ ظَلامَ البيتِ صورَتُها كما يُضيءُ ظلامَ الحِنْدِسِ القَمَـــرُ[(٥)]

---

(١) الأخطل، غياث بن غوث ، شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق فخرالدين قباوة، ط٤، ١٩٩٦م، دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر بيروت، ص٤٤٥

(٢) الفرزدق، همام بن غالب ، ديوان الفرزدق، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، ط ١، ١٩٩٧م، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ص٥٣٩

(٣) البربري، سابق بن عبدالله، شعرسابق بن عبدالله البربري، تحقيق بدر أحمد ضيف، د ط، ١٩٨٧م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ص٣٥

(٤) الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، ص٦٤

(٥) ابن أبي ربيعة، عمر، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢، ١٩٦٠م، مطبعة السعادة، مصر، ص١١١ والخود بالفتح: الفتاة الناعمة، والحندس: الظلام الشديد.

وفي إطار تفاعل الشّعراء مع مظاهر الكون، كانت السّماء بمصابيحها المتنوِّعة محطَّة مهمَّة في إدراج عناصرها في مكوِّنات قصائدهم، وكان القمر دائمًا من أكثر تلك المصابيح توظيفًا في الشّعر، فهو إضافة إلى جمال طلعته، يجلو العتمة، ويتربَّع على عرش الكواكب والنجوم، ممَّا جعل الشّعراء في وصفهم لجماله الطبيعي يقرنونه بالنجوم والكواكب الأخرى، ويرسمون من تلك الكائنات صورًا طبيعية يحاكونها ويتسامرون معها، فها هو ابن المعتزّ يجعل من الثريَّا هودجًا ومن القمر حاديًا للناقة التي تحمل الهودج:

كَأَنَّ الثُّرَيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ　　　يَحُثُّ بِها حَادٍ إِلَى الغَرْبِ مُزْعِجُ (١)

ويجمع الوأواء الدمشقيّ بين الثريّا والبدر، جاعلا الأخير يجلوها بنوره، وعندما يحين الفـــراق، يراها فتاة جميلة، يسقط قرط من أذنها:

وَجَــلا الثُّرَيَّـــا في مَلا　　　ءَةِ نورِهِ البَــدْرُ التَّمَـــامْ

فَكَأَنَّهَـــا وكَأَنَّــــــهُ　　　إِذْ حَالَ بَيْنَهُمَا انْصِـــرامْ

خَوْدٌ هَوَى مِنْ أُذْنِهـــا　　　قُرْطٌ فقبَّلَـــهُ غُــــلامْ(٢)

وعلاقة البدر بالثريّا جليّة لدى الشّعراء ، فإذا أسبغ الوأواء المكوّنـــات الـــسّابقة علـــى صورتيهما ، مجسِّدا العشق القديم بينهما، فإنّ حسان بن ثابت(ت٥٤هـ) يرى اســـتعلاء القمـــر على سائر النجوم:

قدْ أَبْرَزَ اللهُ قولاً فوقَ قَوْلِهم　　　كَما النُّجومُ تَعَالى فوقَها القَمَرُ(٣)

---

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق يونس السامرائي ،ج٢، ص٦٤

(٢) زاهر، جمال ، شعر الوأواء الدمشقي، دراسة فنية، ط١، ٢٠٠٧م، دار الوفاء، الإسكندرية، والـــوأواء هو أبو الفرج محمد بن أحمد العناني

(٣) ابن ثابت، حسان، شرح ديوان حسان بن ثابـــت، لعبـــدالرحمن البرقـــوقي، د ط،، ١٩٢٩م، المكتبـــة التجارية الكبرى، طبعة المطبعة الرحمانية بمصر، ص ٢٢٦

ويذهب أبو العلاء المعرّي مذهبًا آخر في تلك العلاقة بين القمر والثريّا، فيسبغ عليهما ثوب العشق، فالهلال الذكر يعشق الثريّا الأنثى، وكعادة العرب في العشق، فهنـاك فـراق وتفريـق دائمان بين المعشوقين، فلا غرو إذًا؛ إذا اعتنقا الوداع:

فَكَأَنّي مَا قُلْتُ وَالْبَدْرُ طِفْـلٌ وَشَبَابُ الظَّلْمَاءِ في الْعُنْفُـوَانِ

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزّنْـ ـجِ عَلَيْهَا قَلائِدٌ مِنْ جُمَـانِ

وكَأَنَّ الهِلالَ يَهْوَى الثُّرَيّـا فَهُمَـا لِلْـوَدَاعِ مُعْتَنِقَـانِ[١]

فالمعرّي في البدء يشير " إلى أنّ تلك الليلة كانت في مفتتح الشهر، حين كنّى عن ذلك بالجملـة الحالية(والبدر طفل) ثم أشار إلى أنّها كانت فريدة نادرة الحدوث حين حدد بدقّة زمنيّة توقيتهـا في البيت الأخير (وكأنّ الهلال يهوى الثريّا)، فالقمر إنما يقترن بالثريّا في ليلة يتيمة في السنة ثم يفترقان، وقد ألمح إلى ذلك حين جعل عناق التلاقي عناقا للوداع أيضا ".[٢]

على أنّ الثريّا ليست الوحيدة التي تسعى للوصال مع القمر، فهو غاية كل النجـوم، بوسـامته المطلقة وعلوّه الباهر، ومكانته الرفيعة، يقول الأخطل:

وما يُلاقُونَ فَرَّاصاً إلى نَسَـبٍ حتَّى يُلاقيَ جَدْيَ الفَرْقَدِ القَمَـرُ[٣]

والحطيئة(ت ٤٥هـ) يرى الأحساب مضيئة كالليلة القمراء التي تضيء الدرب للساري:

نَمْشي إِلَى ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضَأْنَ لَنا كَمَا ضَوَّتِ الليْلَةُ القمراءُ للسَاري[٤]

---

(١) الفهيد، جاسم سليمان حمد ، التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العـلاء ،ط١، ٢٠٠٥م، دار حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الكويت، ص٦٢

(٢) نفسه ص ٦٢

(٣) الأخطل، غياث بن غوث، شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص١٥٣، وفراص هو فراص بن معن الباهلي، وجدي الفرقد: نجم لا يلتقي مع القمر، ويريد أن بني سليم ضـعاف النـسب لا يجارون بني تغلب في ذلك.

(٤) الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، دراسـة وتبويـب مفيـد قميحـة،ط١ ، ١٩٩٣م، دار صادر، بيروت ص١١٥، والشطر الثاني مكسور ولم يشر إلى ذلك المحقق.

وإذا كان القمر زينة الكواكب، وأرفعها مكانة لدى الشعراء، فهو يرتبط بعلاقة وشيجة بالليل، فالليل هو المكان والزمان اللذان يحتضنان هذا الكائن المنير، الذي يجوب السماء، فحضوره إعلان للبهجة والأنس والطمأنينة، وغيابه إعلان خوف وحسرة، فأسهب الشعراء في وصف ذلك القرص المستدير، بمراحل نموّه المختلفة، ولونه المتلألئ، ومكانته السامقة، وصوروا علاقته بالنجوم والكواكب، ومنازله المختلفة، وارتباطه بالتقويم ، واستدلّوا بالأنواء على معرفة الفصول والتغيّرات الجويّة ونزول القمر.

ولما كان القمر نوراً والليل ظلاماً، والشيء يعرف بضده، كان العربي ينتظر طلوع القمر عند اشتداد العتمة يقول سعيد بن حميد (ت٢٥٠هـ):

وَعَدَ الْبَدْرُ بِالزِيَارَةِ لَيْلاً — فَإِذَا مَا وَفَى قَضَيْتُ نُذُورِي

قُلْتُ:" سيدِي" وَلِمْ تُؤثِرِ الليْـ — ـلَ على بَهْجَةِ النَّهَارِ المُنِيرِ

قالَ لِي: لا أُحِبُّ تَغْيِيرَ رَسْمِي — هَكَذَا الرَّسْمُ في طُلُوعِ البُدُورِ[(١)]

وعلى الرغم من أن العلاقة بين الليل والقمر تلازميّة، فإذا غاب القمر تغوّل الليل واستأسد، واشتدّ على المدلجين فيه، يقول ابن المعتز:

يا رُبَّ لَيْلٍ ضَاعَ مِنِّي كَوْكَبُهْ — مُشْتَبهٌ مَشْرِقُهُ وَمَغْرِبُهْ[(٢)]

وهذا الليل الذي تشتبه فيه العيون المبصرة مع العيون العور، يبتلى صاحبه بالهموم، ويطول نظراً لانحجاب الرؤية، وغياب الأنيس مما يقتضي حضور القمر، قال العسكري:

---

(١) سعيد بن حميد، رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، تحقيق يونس السامرائي،د ط، ١٩٧١م، مطبعة الإرشاد ، بغداد ص١٣٣، والشطر الأول من البيت الثاني مكسور، وأظنه أراد : سيدي بكسر السين

(٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق يونس السامرائي، ج٢، ص٤٥٨

وذكَّرَنيه البدرُ والليلُ دونَـــــهُ فباتَ بِحَدِّ الشَّوْقِ والصبرُ يلعــبُ

فَأَزْدَادُ في صُبْحِ الظَّلامِ صَبَابَةً فلا صعب إلا وهو بالليلِ أصعبُ[(١)]

وهذه الليالي المظلمة هي التي تحجب ضوء القمر، ولها في ذلك أساليب متعدّدة، فهي التي تقصم البدر، قال المعري:

وانْحلَّ بَدْرُ التَّمِّ بَعْدَ كَمَالِــهِ كَأَنَّ بِهِ الظلْمَاءَ قاصِمَةٌ قُلْبَــاً[(٢)]

وهي أيضاً التي تسير جنودها لحجب نوره، يقول الشاعر:

البَدْرُ يَأْخُذُهُ غَيْمٌ وَيَتْرُكُـــــهُ كَأَنَّـــهُ سَافِرٌ عَنْ وَجْهِ مَلْطُومِ[(٣)]

ويسمي العرب الليلة التي يحتجب فيها القمر بالليلة الغمى وهي ليال موحشة، يقول راجز:

لَيْلَةٌ غُمَّى طامِسٌ هِلالُهَـــا أَوْغَلْتُهَا وَمُكْرَهٌ إِيْغَالُهـــــــا[(٤)]

وفي تلك الوحشة يغيب الأحباب الذين يبددونها بأنسهم، وإذا كان الغياب مستمراً، فإن مـــا يحجبه هو الموت، ومن هنا رثى أبو تمام(ت٢٣١هــ) خالد بن يزيد بن مزيد:

أَشَيْبَانُ لا ذاكَ الهِلالُ بِطالِــعٍ عَلَيْنَا ولا ذَاكَ الغَمَامُ بِعَائِـــــــدِ

فَيَا وَحْشَةَ الدنْيَا وَكَانَتْ أَنِيسَةً وَوَحْدَةَ مَنْ فيها بِمَصْرَعِ وَاحِدِ[(٥)]

وإذا كان يشبّه هنا المرثي بالهلال وبالغيم، فلا أرى بأسًا في أن يكون قصد الهلال ذاته والغمام ذاته، فقد دأب العربيّ على إسقاط حزنه وألمه وحرقته على الموجودات، فربّما يقصد

---

(١) العسكري ، شعرأبي هلال العسكري ،ص٦٢

(٢) المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبدالله، اللزوميات ، تحقيق سيدة حامــد وآخــرين، ج١، ص١٣٢ ، والشطران مختلفا الوزن، وهكذا وردا في الديوان.

(٣) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق يونس السامرائي، ج٢، ص٢١١

(٤) انظرالبيت في إصلاح المنطق لابن السكيت، يعقوب بن إسحق(ت٢٤٤هــــ) تحقيــق أحمــد شــاكر وعبدالسلام هرون، دط، دت ، دار المعارف بمصر، ص ٣٢٤

(٥) أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عــزام، ط٣،دت، دار المعارف، ج٤، ص ٧١

بموت خالد غياب الهلال حزنًا عليه، وغياب الغمام، بانقطاع الخير، ليتحوّل في البيت الآخر إلى وحشة الدنيا بعامّة، بعد أن كانت أنيسة بوجود المرثيّ – الهلال – الغمام .

ونظرا لهذا الارتباط الوشائجي بين القمر والليل، فقد أسهب الشعراء في حديثهم عن كل منهما بصورة منفردة، وعن ارتباط كل منهما بالآخر، " فصوروا انكشاف ظلمات الليل عند خروجهم إلى الصيد، وشدة ظلمته وسواده عند طروقهم بيوت الخمارين، أو عند تسللهم إلى معشوقاتهم، وشكوا من طوله وانسداله في مجال حديثهم عن آلامهم، ووجدوا في كثافة الظلام وسواده مجالا لتشبيهاتهم، فشبّهوا سواد ظفائر محبوباتهم، وكثافة شعرهنّ بسواد الليل وكثافته".(١)

وإذا كانت العلاقة بين الليل والقمر تلازميّة فهي تنافريّة بينه وبين النهار، فهو لا يقوى على الشّمس التي تمحقه، كما لا يقوى على معارضة الحكم الصادر بحقّه، فهو حكم نافذ بمحاقه، يقول البحتريّ (ت٢٨٤هـ) مادحًا:

وَجَلالٌ لَوْ كَانَ للقَمَرِ البَـدْ ... رِ لَمَا جَازَ فيهِ حُكْمُ الْمُحَـاقِ (٢)

ولما كان العربيّ يعتمد التقويم القمريّ، فقد تابع مسيرة القمر خلال منازله الشهرية، بتحولاته المختلفة، فرسم الشعراء صوراً واقعيّة لتلك التحوّلات وراقبوا طلوعه وغيابه، قال أبو تمّام:

إِنَّ الْهِلالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُـوَّهُ ... أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُون بَدْراً كَامِلاً(٣)

---

(١) أبو سويلم، أنور عليان، الطبيعة في الشعر العباسي ص٦٧

(٢) البحتري، الوليد بن عبيد، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، د.ط، ١٩٦٤،دار المعارف بمصر ج٣، ص١٤٦٣

(٣) أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبده عزام، ، ص٦٩٣

لكنّ جريرًا يعقد مقارنة بين السنين التي تأخذ من عمره والسّرار الذي يأخذ من الهلال:

رأَتْ مَرَّ السنينَ أخذْنَ منِّــي كما أَخَذَ السَّرارُ من الهلالِ[١]

والسّرار الّذي يتسلّل إلى محق الهلال هو ما حدا بمهيار الديلمي(ت٤٢٨هـ) إلى جعله صفة لممدوحه فهو يسلب الكمال، في حين يأتي البدر بالكمال يقول:

ولوْ لمْ تَكنْ في العلوِّ السماءَ لما كانَ غُنْمُكَ منها هِــــلالا

سَرَيْــتَ إليه فكنتَ السَّرارَ لَــهُ ولِبَدْرِ أَبيه الكَمَــــالا[٢]

وبهذا يكون طلوع القمر مكروهًا لدى البعض، أولئك الذين يسعدون بالسّرار، وسرار القمر هو استتاره بعد المحاق، قال كثيّر(ت١٠٥هـ):

هلالُ عَشِيَّةٍ لِشَفَا غُــرُوبٍ تَسَرَّرَ لَيْلَةً بَعدَ المَحــــاقِ[٣]

على أنّ ظهور القمر في الليل لا يرضي جميع الناس، فهناك من يريد أن يتّخذ من الليل ســترًا، والقمر يهتك الأستار، وفي هذا الإطار يكثر وصف الشعراء لترقّــب غيــاب القمــر لالتقــاء محبوباتهم، يقول أحدهم:

سَيِّــدِي لا تَأْت فِي قَمَرٍ لِحَديثٍ وارْقُبِ الدُرَعــا

وتَــوَقَّ الطِّيبَ لَيْلَتَنَــا إنَّهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَـــا[٤]

---

(١) الخطفي، جرير بن عطية ، ديوان جرير، شرح يوسف عيد، ط١، ١٩٩٢، دار الجيل ، بيروت، ص٥٣٠

(٢) الديلمي، مهيار ، ديوان مهيار الديلمي، ط١، ١٩٢٦، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ج٢، ص٤٠

(٣) كثيّر عزة، كثير بن عبدالرحمن، ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه إحسان عباس، د ط،١٩٧١م، دار الثقافة ، بيروت، ص ٣٨٩

(٤) ابن برد، بشار، ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر بن عاشــور، د ط، ١٩٦٦م ، مطبعــة لجنة التأليف والترجمة، ج٤، ص ١٠٦، والدرع، جمع درعاء وهي الليلة التي يطلع قمرها فــي آخرها عند الصبح وهي ثلاث ليال من آخر الشهر، والواشي: النمام، وهو هنا يشبه الطيب لنشره رائحة صاحبه بالنمام.

فالمطلوب هنا أن لا يأتي وقت طلوع القمر خوفاً من افتضاح أمره بالرؤية البصرية، وكـذا يطلب منه أن لا يتطيّب عند القدوم خوفاً من افتضاح أمره بحاسة الشم.

وفي هذا السياق ينتظر عمر بن أبي ربيعة غياب القمر:

وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَهـوى غُيُوبـَهُ   وَرَوَّحَ رُعْيـانٌ وَنَوَّمَ سُمَّـرُ(١)

وفي تصغيره للقمر هنا بعد آخر لا أرى فيه تحبّبًا أو تقربًا، كما أنّني لا أرى فيه تقليلا للحجم، إذ لو كان ذاك لاستطاع الإتيان ببدائل من مسمّياته، ولكنّ الدلالة هنا تبوح بالكره، وعدم الرغبة في الظهور، فالغرض من التصغير هنا التحقير، فوجود القمر يعني بقاء الرعاة والسّمار في سهرهم، مما يسهل انكشاف أمره لو غامر في لقاء المحبوبة، وغياب القمر يعني مغـادرتهم إلى غفواتهم مما يتيح له اللقاء دون رقابة.

والكثير من الشّعراء نظروا للقمر نظرة استجلاء واقعيّة فحسب، فرصـدوه فـي معـرض الاستخدام اللفظيّ الدالّ على هذا الجرم السماوي، والمرتبط ببقيّة الأجرام الأخـرى كالـشّمس وغيرها، يقول المتنبي:

فَجِئْنَاكَ دُونَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ فِي النَّوَى   وَدُونَكَ فِي أَحْوالِكَ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ(٢)

وقال في رثاء والدة سيف الدولة، مستخدمًا القمر والشّمس بمعنييهما المعروفين، لافتًـا إلـى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية المتمثل في وجود الذكر والأنثى، وتقدمة الأوّل في الأطـر الاجتماعيّة السائدة على الثاني، بل يتجاوز ذلك إلى الأطر اللفظيّة، وكنت قد أشرت في الفصل

---

(١) ابن أبي ربيعة ،عمر، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ص٩٦
(٢) المتنبي، أحمد بن الحسين، شرح ديوان المتنبي للعكبري، تحقيق كمال طالب ،ج٢، ص١٥٤

الأوّل إلى تغليب لفظ القمر على الشّمس نظرًا لتذكيره، ليأتي المتنبي هنا معلّلا ومُبَرْهِنًا على أنّ التذكير والتأنيث ليسا في باب الفخر أو الانتقاص:

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَــنْ فَقَدْنَــــا   لَفُضِّلَت النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَــــالِ

وَمَا التَّأْنِيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْــبٌ   وَلا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهِـــــــلالِ[١]

كانت هذه أبرز ملامح النظرة الواقعيّة التي نظرها الشّعراء للقمر، فقد رأوه حاجة ملحّــة فــي الليالي البهيمة، فكان مصباحهم السماويّ الذي يحول دون تغوُّل الليل عليهم في مفاوز البطحاء، فكان هاديًا في سفرهم، جاليًا عتمة صحرائهم، وكان رفيق نجومهم ، تربط بها رابطة القرابــة والعشق والحضور، بل كان مبرزًا بين تلك النجوم والكواكب له علاقة استقطابيّة لبعضها كمــا هو حال نزوله بالمنازل، وله حال طرديّة لبعضها الآخر فلا يلتقي بها، وكان غايــة الوضــوح والظهور، إذا غاب اشتبهت الأمور على أهل الصحراء ، فلم يعودوا يــستجلون طــرقهم، وإذا استبدّ به الغيم ارتقبه المسافرون من وراء حجابه.

كما نظر الشعراء إليه نظرة واقعيّة عندما رصدوا مسيرته التقويميّــة والنمائيّــة، ورصــدوا تسمياته المختلفة ، وحركته في بطن السّماء، وكان بعضهم على غير العادة ينتظر غيابه، وذلك لتنفيذ مآرب خاصة في جوف الظلام خشية الانكشاف عند وضوح القمر.

---

(١) السابق ج٣، ص١٩

المبحث الثاني

النظرة الجماليّة

(الاستدارة، واللمعان، والإنارة، واللون)

القمر من أكثر الكواكب التي تفاعل معها الشّعراء من منظور جماليّ، سواء أكان ذلك من حيث تحوّلاته وأطواره التي تشدّ الأنظار، أم من حيث حركته في صفحة السّماء هاديًا ومؤنسًا ومنيرًا، فوصفوا مواطن الجمال فيه من خلال الاستدارة واللمعان والإنارة واللون، فكانت هذه المواد المرئيّة للعين الأرضيّة مادة مشهودًا لها بالجمال والبهاء والألق. وسأقف على الأطر الجماليّة من خلال جعله مشبّهًا أو مشبّهًا به في الفصل الثالث من هذه الرسالة، بينما سأقف هنا مع هذا النور القمريّ الذي يتسلّل بياضه ووضوحه إلى رحاب الأرض، يجعل من مادتّه واستدارته وأطواره ووقت طلوعة سمات جماليّة تسهم في تلوين الصور الشعريّة المستمدّة من دالّته، وهي دالّة الجمال والوضوح الذي يتمتّع به قرص مضيء في ليل أسود، يهلُّ كالقوس المنير، ويمتلئ أوّلا بأول كمرآة من ذهب، ناثرًا ضوءه الشفّاف الهادئ على هذا الكون المعتم.

وقد أغدق الشعراء أوصافهم على جماله، وخاصّة في استدارته عندما يكون بدرًا، فكان مثالا على أوج الجمال، وذروته وكماله، يقول الوأواء الدمشقي:

مَنْ لَمْ يَرَ البَدْرَ لا يَرَى عَجَبًا فِي لَيْلَةِ التَّمِّ إذْ بَدَا طَرِبا

أَسْفَرَ لِلشَّمْسِ كَيْ يُقَبِّلَهَا فَمَا رَآهَا فَعَادَ مُنْتَقِبا[(١)]

فالبدر عنده هو زينة السماء ، وذروة جمالها وحسنها، لذا فإن من لا يراه يخسر كثيرًا،

(١)زاهر ،جمال ، شعر الوأواء الدمشقي(دراسة فنية) ط١، ٢٠٠٧م، دار الوفاء، الاسكندرية، ص ٨٢

ولاسيّما إذا كان في ليلة التمّ، حينما يكون كامل الاستدارة، وكامل الرجولة أيضا، مما يستنهض فيه الرغبة في تقبيل محبوبته الشمس، وعندما لا يجدها يعود إلى نقابه، وكنت قد أشـــرت فـــي الفصل الأول إلى ذكوريّة القمر في الوعي الثقافيّ العربيّ ، وأنوثة الشمس.

وهذا الجمال الفائق الرائق في آن ، هو جمال البدر في استدارته واكتماله في كبد الـــسماء، وهو متفرّد في ذلك، لذا؛ فإنّ الجمال الذي يكون للبدر ، لا يكون لأي من أطوار القمر الأخرى.

واستدارة البدر سمة جماليّة أسقطها الشّعراء على وجه محبوبـــاتهم أو ممـــدوحيهم، يقـــول الأخطل:

مهاةٌ، منَ الّلائي إذا هيَ زُيِّنَتْ تضيءُ دُجا الظلماءِ كالقَمَرِ البَدْرِ[1]

ويكون القمر بدرًا عند إتمامة أربع عشرة ليلة، لذلك أطلق عليه (قمر ابن أربع عشرة) وهي سنّ يتعادل بها اليوم مع السّنة للدلالة على اكتمال النضج الجماليّ عند المرأة، يقول ابن الزيّات (ت٢٣٢هـ):

بـــدرًا بَدَا في ليلةِ البــــــدرِ	**في ليلةِ الأَربــــــعِ والعَشــــْرِ**
لِذلــكَ الشهْـــــرِ لديَّ يـــــدٌ	**لا ينقضي الدهرَ لها شكـــــــري**
أَطْلَعَ بَدْرينِ ومـــا عهدنـــــا	**بأنْ نرى بدرينِ في شَهْـــــــــرِ**
وَيْلِيَ مِن بدريـــنِ في ليلـــةٍ	**كلاهما في ضوئهِ يَسْـــــــــرِي**[2]

فانظر إلى هذه المقارنة التي تحمل مقاربة بين أربعة عشر يوما هي زمن اكتمال البدر، وأربع عشرة سنة هي زمن النضج عند الأنثى.

(١) الأخطل، غياث بن غوث ، شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق فخرالدين قبـــاوة، ص٤٧١، والمهـــاة البقرة الوحشية استعارها للمرأة، ودجا الظلماء: شدة سواد الليل

(٢) ابن الزيات، محمد بن عبدالملك، ديوان الوزير محمد بن عبدالملك ابن الزيات، تحقيق جميل سعيد، د ط، د ت، المجمع الثقافي ، مصر، ص١٨٣

والإنارة من أهمّ السّمات الجماليّة للقمر، سواء أكان بدرًا أم هلالا، ولكن هذه الــسّمة عندما تتوافق مع سمة الاستدارة والاكتمال تكون أنضج وأوضح، يقول البحتري:

بِتْنَا ولي قَمَرانِ، وجهُ مُساعِدي والبدرُ إذ وافَى التمامَ وأَكْمَلا(١)

فالإنارة والإضاءة كلاهما من سمات القمر ، ومع أن القرآن الكريم فرّق بين ضوء الشمس ونور القمر، كما أسلفت في الفصل الأول، إلا أن الشعراء من قبل ومن بعد، لم يفرّقوا بينهمـــا، فقــد استخدموا ضوء القمر كثيرًا، وقلّما استخدموا نوره، ولكنّهم في مجال الوصف الجماليّ استخدموا القمر المنير، وقلّما استخدموا القمر المضيء، قال عنترة العبسي:

أَشَارَتْ إليها الشمسُ عندَ غروبِها تقولُ إذا اسْوَدَّ الدُّجى فاطلعي بعدي

وقالَ لَها البدرُ المنيرُ ألا اسْفِري فإنَّكِ مثلي في الكَمَالِ وفِي السَّعْدِ(٢)

فالبدر يساوي الكمال ، والمنير يساوي السعد، والاكتمال لا يكون إلا بالانكشاف، ففـــي قوله : اسفري، استحضار لحالتي الاحتجاب والتجلّي.

وأما الأخطل فيصف لنا ممدوحه عكرمة الفيّاض بصفتي البياض والاستدارة، فهو بـــدر أبيض اللون، يرمي الناس في أبصارهم بسهام طلعته، فتشخص تلك الأبصار إليه، وهـــو فـــي إسناده الفعل (رمى) للناس، فإنما يضعهم في حالة من الذهول أمام الممدوح، في مظهر يحمـــل نوعًا من القداسة لهذه الهالة البدريّة:

إذا نحنُ هايَجْنا بِهِ يومَ مَحْفِلٍ رمى الناسُ بالأبصارِ أبيضَ كالبدرِ (٣)

---

(١) البحتري، الوليد بن عبيد، ديوان البحتري ، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ج٣، ص ١٦٥٢

(٢) العبسي، عنترة بن شداد، شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، ط ١، ١٩٩٢م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٦١

(٣) الأخطل، شعر الأخطل صنعة السكري، تحقيق فخر الدين قبـــاوة، ص ٢١٣ ، وهايجنـــا: فاخرنـــا، والمحفل: الحشد، والأبيض هنا الممدوح الذي تشخص الأبصار إليه.

وأبو فراس الحمْدانيّ(ت٣٥٧هـ) يربط بين البدر والضياء، والحسن والبهاء ، في معرض وصفيّ جماليّ شموليّ:

كانَ قَضيبًا لَهُ انْثِنـاءُ؛ وَكانَ بدرًا لَهُ ضِيـاءُ

فزادَهُ رَبّهُ عـذارًا تَمَّ بِهِ الحُسْنُ والبَهاءُ(١)

والقمر المنير هو الذي جعل جريرا يؤكّد أن بني عقال لا يرجون النجوم لأنهم لن يطالوها، كما أنهم لا يرجون البدر المنير:

فَما تَرْجُو النجومَ بَنُو عِقَالٍ ولا القمرَ المنيرَ إذا استنارا(٢)

وحسّان بن ثابت(ت٥٤هـ) يربط بين بركة الرسول ــ ﷺ ــ وضوء البدر:

وافٍ وماضٍ شِهابٌ يُسْتَضاءُ بِهِ بَدْرٌ أنارَ على كلِّ الأَماجيدِ

مُبارَكٌ كضياءِ البدرِ صُورَتُـهُ ما قالَ كانَ قضاءً غيرَ مردودِ(٣)

والإنارة تقتضي اللمعان كما هو الحال في اللون، ومن هنا كان القمر محورًا وصفيًا لكلّ ما هو لامع برّاق: فكان سيف الممدوح ورمحه، والشرر المتطاير عند تلاقي السيوف والرماح، كما كان الصورة المشرقة، التي تتبعها النجوم المزهرة كما يراها علي بن الجهم (ت٢٤٩هـ) في الخليفة المعتصم وولاة عهده:

كأنّـهُ وولاةُ العهْدِ تتبعُـهُ بدرُ السماءِ تَلَتْهُ الأنجُمُ الزُّهُـرُ(٤)

---

(١) الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، تقديم وشرح عبدالقادر محمد مايو، ط١،٢٠٠٠م دار القلم العربي، سوريا، ص١٨-١٩

(٢) الخطفي، جرير بن عطية، شرح ديوان جرير، تحقيق يوسف عيد ، ص ٣٤٤، وبنو عقال هم بنو عقال بن محمد المجاشعي

(٣) ابن ثابت، حسان، شرح ديوان حسان بن ثابت، عبدالرحمن البرقوقي،ص ٨١

(٤) ابن الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم، دط، د ت، دار صادر، بيروت ، ص ١٢٢

وقال النابغة الذبياني(ت ١٨ق.هـ):

مُتَوّجٌ بالمَعالي فوقَ مَفْرِقِـــهِ وفي الوغى ضيغمٌ في صورةِ القمرِ[(١)]

ولمّا كان اللمعان دليل إضاءة وإشراق، فقد اقترن لون القمر بكل من الفضّة والزهر والبياض، فكانت هذه الألوان هي أكثر انعكاسًا في الشعر، وهي ألوان تتنافى مع الوسط القمري الأسود المعتم، مما يجعل من حضورها جمالا يزداد حسنًا بوجود ضدّه، يقول أبو فراس:

وَهَلْ تَجْحَدُ الشمسُ المنيرةُ ضَوْءَها ويُسْتَرُ نورُ البدرِ، والبدرُ زاهرُ[(٢)]

وهذا اللون الزهري هو الأبيض ذاته، وهو ما تراه الخنساء في صورة أخيها صخر ـ البدر:

أَغَرُّ أَزْهَرُ، مثلُ البدرِ صورتُـــهُ صافٍ، عتيقٌ، فما في وجههِ نَدَبُ[(٣)]

والقمر الزاهر يتكرّر وصفه كثيرًا في الشّعر العربيّ، وهو لا يقتصر على الدلالة اللونيّة، بل يدلّ على الحيويّة والنشاط والنماء وكمال النضج، إضافة إلى التفتح، ففي بيت الخنساء كان (أغرّ أزهر) وفي بيت لأمامة بنت ذي الإصبع العدوانيّ، كان (فتى أبلج)، تقول:

كَمْ مِنْ فَتًـــى كَانَتْ لَهُ مَيْعَـةٌ أَبْلَـجَ مِثْلِ القَمَـرِ الزَّاهِـــرِ[(٤)]

واللون الأغرّ، هو ما دعا حسانًا إلى استعارته لوصف الرسول ـ ﷺ ـ :

أَغَرُّ كَلَوْنِ البَدْرِ من آلِ هاشمٍ أَبِيٌّ إِذَا سِيمَ الظُّلامَةَ مِجْســـرُ[(٥)]

(١) النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، ط٢،٢٠٠٥م، دار المعرفة بيروت،ص٦٦

(٢) الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، تقديم وشرح عبدالقادر محمد مايو،ص١٥٦

(٣) الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمدو طماس،ص ١٧ والأغر: الأبيض، والأزهر: المشرق، والعتيق : القديم، والندب: الجرح

(٤) البيت في رياض الأدب في رثاء شواعر العرب، لويس شيخو، ص٧٠، والميعة: ريعان الشباب، والأبلج: الواضح

(٥) ابن ثابت، حسان ، شرح ديوان حسان بن ثابت، لعبدالرحمن البرقوقي، ص ١٨٠، والمجسر الجسور الذي يتحدى الظلم.

وقال نُصيب(ت١٠٨هـ):

أغــرُّ إذا الرِّواقُ انجابَ عنْهُ　　　بدا مثلَ الهِــلال على المثالِ

تَرَاآهُ العُيُونُ كَمَا تـَـرَاءَتْ　　　عَشيَّةَ فِطْرِهَا وَضَحَ الهِلالِ[١]

والأغر من الألوان أوضحها وأظهرها، لذا فإن اللون الأبيض هو الأقــرب إلــى هــذا الوصف ، وقد أكثر الشعراء من إسباغه على القمر، وعدّوه اللون الأقرب لنوره وجماله ، يقول الفرزدق(ت١١٠هـ):

راحُوا بِأَبْيَضَ مثلِ البدرِ يحمِلُهُ　　　غُتْمُ العُلُوجِ بِأَقياد مُذِلاتِ[٢]

هذه بعض النماذج من النظرة الجمالية للقمر في الشعر العربي القديم، وهي فــي مجملهــا تدور في فلك الاستدارة، واللمعان ، والإنارة، واللون، فالاستدارة سمة بدريّة تتجلّى فيها منــابع الجمال السماويّة والأرضيّة معا، فالبدر دائرة متكاملة، والأرض كذلك، كما أنّ الأفق الذي يراه العربيّ على مدّ بصره يبدو دائريًّا أيضًا، فضلا عن أن الوجه المستدير يعدُّ سمة بشريّة جماليّة، واللمعان هو أداة أثمن المعادن لاستلاب البصر وخلب اللب، فكان القمر صورة للذهب والفضّة، والنور جمال داخليّ وخارجيّ ، تتّصف به القلوب البيضاء ، كما تتّصف به الجماليّات الكونيّــة المحيطة، أمّا اللون فهو الأبيض اليقق الّذي تتجلّى فيه مظاهر الانبهار والهــدوء والطمأنينــة، وكلّها سمات جماليّة في اكتناه ملامح الصورة القمريّة، وإسقاطها على المحيط الجماليّ للشاعر، أو إسقاط المحيط الجماليّ عليها.

---

(١) نصيب بن رباح، شعر نصيب بن رباح، تحقيق داود سلوم، ، د ط، ١٩٦٧م، مطبعة الإرشاد، بغــداد ص١١٩

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرحه وضبط حواشيه وقدم له عمر فاروق الطبــاع، ط١، ١٩٩٧م، دار الأرقم، بيروت، ص١٢٧ وغتم العلوج: سودها

المبحث الثالث

النظرة النفسيّة

(الأنس، والوحشة، والحبّ، والبغض، والترقّب، والوسواس)

للحالة النفسيّة عند الشعراء دور كبير في نظرتهم للطبيعة من حولهم، ولا سيّما الطبيعة السماويّة الّتي كان لها انعكاس مباشر على حيواتهم، وتأثير هائل على مشاعرهم، إذ تسربّت المعتقدات إلى تلك المشاعر ، وكان القمر من أهمّ موجودات الطبيعة الصامتة تأثيرًا على نفسيّات الشّعراء.

وابن الروميّ يرى البدر قريبًا على الرغم من بعده، وهذا القرب بالنور الّذي ينبعث منه إلى الآفاق ، فينشر في فضاء الشّاعر ويؤنس نفسه، والأنس والبهجة من المظاهر النفسيّة الّتي كان يعكسها القمر على الشّعراء:

لا أشتكي البدرَ على بُعدِهِ   لقد أضاءَتْ لي آفاقُهُ

ليسَ بِمَكْفورٍ ولا ضائعٍ   إينَاسُهُ نفسي وإرفاقُهُ[(١)]

وقد كلف غير واحد من الشّعراء بالقمر إلى درجة العشق ، بل عاينوا ما يعكسه على دواخل نفوسهم، كما عاينوا ما يعكسه على منابت رؤوسهم، ومنهم ابن قلاقس(ت٥٦٧هـ) الذي عشق القمر، وكتب فيه كثيرًا، لدرجة أنه يرى ما خطّ في رأسه من الشيب ناتجًا عن كَلَفِهِ بالهلال:

فامْسَحا عارِضِي فليسَ قَتيرًا   ما بدا فيّ مِنْ غُبارِ الليالي

كَلَفي بِالهِلالِ عَوَّضَ رَأْسِي   عَنْهُ مِنْ كلِّ شعرةٍ بهلالِ[(٢)]

---

(١) ابن الرومي،ديوان ابن الرومي، تحقيق عبدالأمير علي مهنا، ط١، ١٩٩١، دار مكتبة الهلال، بيروت،ج٤، ص٣٢٥

(٢) ابن قلاقس، نصر بن عبدالله، ديوان ابن قلاقس، تحقيق سهام الفريح، ط ١ ، ١٩٨٨م، مكتبة المعلا ، الكويت، ص١١٦

ويربط الأخطل بين الكوكب النحس والقمر المحاق، وكثيرا ما ربط الشعراء بين النحوس والمحاق، وقد عدّ بعضهم سرار القمر ومحاقه من الأيّام النحسة، يقول الأخطل:

فإنْ يَكُ كوكبُ الصَّمْعاءِ نحسًا　　　بهِ وُلِدتْ وبِالقَمَرِ المحاقِ(١)

وقال الفرزدق مادحًا بني حنيفة، ومشيدًا بشجاعتهم، فكان النصر لهم سعدًا، وكانت الهزيمة على أعدائهم نحسًا :

لَقَوا مَنْ سارَ مِنْ هَجَرٍ إليهمْ　　　بِنَحْسِ النجمِ والقَمَرِ المُحاقِ(٢)

والليالي الممحوقة الهلال طويلة قاسية، يشوبها السّواد ، حتى وإن بدت نجومها، فالسعود لا تكون في النجوم، وإنّما في الهلال، وهو ما يراه مهيار الديلمي(ت٤٢٨هـ):

وأطْلَعَتِ السُّعودُ لهم هلالا　　　جديدَ النورِ بانَ من النجـومِ(٣)

والسعود تولّدِ السرور، وهو حالة نفسيّة تنفطر من الانعكاسات المحببة للنفس البشريّة، وممّا يعكس ذلك رؤية القمر ، أو رؤية من يذكّرك بالقمر، فالشريف العقيليّ(ت٤٥٠هـ) يرى هلال السّرور موشومًا به زند ممدوحه:

يا أبا اليُمنِ يا قليلَ النظيرِ　　　أنتَ أبهى من الهلالِ المنيرِ

لا أراني الإلهُ عيشَكَ إلا　　　وعلى زَندهِ هلالُ السرورِ(٤)

وكثيرا ما تنقلب المشاعر والأحاسيس إلى الضدّ عند رؤية الهلال، فحالة السّرور الّتي تبعثها رؤية الهلال في النفس لا تطول، لأنّها حالة انكسار زمني يعود بالإنسان إلى النقص بعد اكتمال فترة النضج:

---

(١) الأخطل، شعر الأخطل، تحقيق فخر الدين قباوة، ص ٦٧، والصمعاء جدة عمير بن الحباب وكانت سوداء.

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق ، تحقيق عمر فاروق الطباع، ص٤٥٥

(٣) الديلمي، مهيار ، ديوان مهيار الديلمي، ج٣، ص ٢٩٨

(٤) الشريف العقيلي، علي بن الحسين، ديوان الشريف العقيلي، تحقيق زكي المحاسني، دط،دت، دار إحياء الكتب العربية ص ١٧٨

ويصبح الهلال آلة لهدم العمر ، ولكنّ طبيعة النفس البشريّة تتجاذبها المشاعر المتنافرة، فالشاعر يفرح لرؤية الهلال على الرغم من أنّه يعي حقيقة هدمه للعمر، بحلوله منازله المختلفة، ومداورة الليالي، ولكنّ المعرّي له نظرة أخرى، فهو يرى الهلال المتجدّد في كل شهر صـــورة للبدر الإنسانيّ الذي يريد :

تَمَتَّعَ أبكارُ الزمـــــــانِ بأيْدِهِ   وجِئْنا بوَهْنٍ بعدما خَرِفَ الدَّهْرُ

فليتَ الفتى كالدهرِ جُدِّدَ عُمْرُهُ   يعودُ هِلالا كُلَّمَا فَنِيَ الشَّهْرُ[١]

والمعرّي هنا، يرسم صورة ممتدّة زمنيًا عبر مفردات الزمان والـــدّهر والـــشّهر، فالزمــــان يساوي الشّهر، وهو فانٍ لا محالة، والدّهر يساوي الفتى بتجدّده وانبعاثه، والهلال هو الديمومـــة المتجدّدة، والولادة المستمرّة، التي تبقى نابضة بالحياة، وتقهر تقلبّات الزّمن، وخـــرف الـــدّهر. والهلال الوليد يبشّر بالنموّ والاكتمال والوصال، في حين أنّ المحاق ينذر بالفراق، ويجعل مـــن لقاء الأحبّة موعدًا للفرقة:

ولمْ أرَهَا إلا تَعِلَّةَ سَاعــــــــةٍ   على ساجِرٍ أو نَظرَةً بالمُشَرَّقِ

وحيثُ الجميعُ الحابِسونَ بِراكِسٍ   وكان المحاقُ مَوْعِدًا للتَفَرُّقِ[٢]

وكثير من الشعراء رأوا أن الظهور القمري يحد من لقائهم محبوباتهم، فيختلسون وقـــت السرار والمحاق للقائهن رغبة في عدم انكشاف سرّهم ، وافتضاح أمرهم، وهو ما يولِّد أحاسيس قد تبدو متناقضة بين الرغبة في رؤية القمر والرغبة في سراره، فهؤلاء لا يكرهون القمر لذاته بل يكرهون ما قد يترتَّب على ظهوره من انكشاف أمرهم، وبالتالي عدم المقـــدرة علـــى لقـــاء محبوباتم.

---

(١) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، اللزوميات، تحقيق سيدة حامد وآخرين، ج٢، ص٥٣

(٢) ابن ندبة، خفاف(ت٢٠هــ)، شعرخفاف بن ندبة، جمعه وحققه نوري حمودي القيـــسي، د ط، ١٩٦٧، مطبعة دار المعارف ، بغداد ص٦٤

ويظهر ذلك عند عمر بن أبي ربيعة في أكثر من موقف، ليكون القمر بحضوره حالة مـــن التوجس والخوف والريبة، بينما يكون غيابه أكثر أمانا وطمأنينة:

فَتَأَهَّبْــتُ لها في خِفْيَـــةٍ　　　حينَ مالَ الليلُ، واجتَنَّ القَمَــر(١)

وقال أيضا على لسان المحبوبة:

قالت: أردتَ بِذا عَمْدا فضيحتَنا　　　وصَرْمَ حبلي وتحقيقَ الذي ذكروا

هَلَّا دَسَسْتَ رسولا منكَ يعلمُني　　　ولم تَعَجَّلْ إلى أن يسقطَ القَمــرُ(٢)

وابن قلاقس يشتهي لباس الليل، لأن الوصال يكون فيه أسهل:

يا رُبَّ ليلٍ أشتهي لباسَـــــهُ　　　قدْ عطَّرَ الوصلُ لنا أنفاسَهُ(٣)

على أنَّ مشاعر الكره والبغض طغت على نظرة بعض الشّعراء للقمر في حالة غرائبيّة تتعدَّد أسبابها لدى الشّعراء ، يقول أحدهم:

لقد سرَّني أنَّ الهلالَ غُدَيَّـــةً　　　مضى وهو ممشوقُ الخيالِ دقيــقُ

أضرَّت بهِ الأيَّامُ حتى كأنَّـــهُ　　　سِوارٌ لواهُ باليديــن رقيـــــقُ

وقفتُ أُعَزِّيهِ وقد دقَّ شخصُهُ　　　وقد حانَ من شمسِ النهارِ شروقُ(٤)

والخشية هنا من ظهور الهلال الذي يقتضي تنفيذ العهد، والوفاء بالدين، وقد كانت العــرب تتَّخذ من منازل القمر مواعد فيما بينهم. ومع أنَّ النظرة العامَّة لدى الشعراء كانت تنادم القمر،

---

(١) ابن أبي ربيعة، عمر، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيــق محمــد محيــي الــدين عبدالحميــد، ص١٤٨م

(٢) نفسه ص١١٥

(٣) ابن قلاقس، ديوان ابن قلاقس، ص٦٠٦

(٤) أبو نؤاس، ديوان أبي نؤاس، ط١، ٢٠٠١م، دار صادر، بيروت ، ص ٢٧٨

وتبثّه الشكوى والشّجون والأسرار ، فكان مرآة لحالاتهم النفسيّة عند ظهوره وغيابه، ورأوا في حضوره ألوانًا من السّعادة والفرح والطمأنينة، وفي غيابه أنواعًا من الألم والحسرة والفراق، فالخنساء ترى الشمس كاسفة لمهلك أخيها، وترى القمر غير متّسق، وهي حالة كانت سائدة في الجاهليّة، تقول:

والشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لِمَهْلَكِهِ   وَمَا اتَّسَقَ الْقَمَرُ(١)

والصورة نفسها تتكرّر عند الشّعراء اللاحقين بعد الإسلام، مع أن الرّسول ـ ﷺ ـ نهى عن ذلك، وبين أنّ الكسوف والخسوف آيتان من آيات الله، لا يحدثان لموت أحد، وكنت قد أشرت إلى ذلك في الفصل الأول، ولكنّ ظلال ذلك بقي ممتدًّا في الشّعر العربيّ كونه أصبح جزءًا من ثقافة العرب، وإن تمّ نفيه من معتقداتهم، فحسّان بن ثابت على مكانته في الإسلام، يرى أن القمر يسْوَدُّ لوفاة الرسول ـ ﷺ ـ ومع أنّ حسّانًا يريد أن يسقط بواعث الحزن على الطبيعة الأرضيّة والعلويّة نظرًا لموت سيِّد البشريّة، إلا أنّه وقع في شَرَكِ ذلك التصوُّر الثقافيّ في استحضار حالتي الموت والحزن:

أظلَمَتِ الأَرْضُ لِفِقْدَانِهِ   واسْوَدَّ نورُ القَمَرِ الناصِلِ(٢)

وهذا الانعكاس للون الأسود على القمر، هو وليد نفسيّة الشاعر التي تعكس مصابها على الموجودات من حولها، ولمّا كان المصاب جللا، فقد أسقط الشاعر حزنه على أوضح الموجودات، وأكثرها إشعارًا بالسعادة، ليوضّح انقلاب النور إلى ظلام.

---

(١) الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء، تحقيق حمدو طماس، ص ٥٧

(٢) ابن ثابت، حسان، شرح ديوان حسان بن ثابت، لعبدالرحمن البرقوقي، ص ٣٣١ والناصل: الخارج من السحاب.

وحال انعكاس السّواد على كلّ من القمر والشّمس، تعني إلى حدّ ما، مشاركة الطبيعة السماويّة للشّعراء في مصابهم، وأوس بن حجر(ت٢ق.هـ) يؤكّد ذلك، فالشّمس والقمر وسائر الكواكب تظهر عليها حالة الحزن، لفقد فضالة بن كلدة، الذي لا يستوي مع الآخرين كما لا تستوي الفقود بموته:

ألمْ تُكسَفُ الشمسُ والبدرُ والـ ـكواكِبُ لِلْجَبَلِ الوَاجِـبِ

لفقدِ فَضالةَ لا تَسْتَوي الـ ـفُقُودُ ولا خَلَّةُ الذاهـبِ[١]

وبعض الشّعراء له قمران، أحدهما قمر السّماء، وهوملك جماعيّ، والثاني قمر خاصّ، وهو المحبوبة، ولكنّ ظهور أحدهما يقتضي غياب الآخر، والمفقود لدى الشّاعر غالبا هو الخاصّ المراد، في حين يظهر العامّ غير المراد:

ليالـيَّ بعدَ الظاعنين شُكـول طِوالٌ وليلُ العاشقينَ طويلُ

يبِنَّ لي البدرَ الذي لا أريـدُه ويخفينَ بدرًا ما إليه سبيـلُ [٢]

لكنّ ابن الروميّ أمام هذين القمرين يسقط مشاعر الذلّ والهوان على بدر السماء عندما يرى بدره الخاصّ، بل إنّ بدر الأخير يفضح بدر السّماء لما به من زيادة في التجلّي، والتحلّي بالسّمات النفسيّة الّتي يراها الشّاعر:

لو بَدَتْ غُرَّتُها مِنْ خِـدْرِها قلـتَ بَرْقٌ في ذُرا المُـزن لمـحْ

أو رآها البدرُ في مَطْلَعِـهِ لاكْتَسَى ذُلّاً وهَوْناً وافْتَضَـحْ[٣]

---

(١) ابن حجر، أوس، ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، د ط ، ١٩٦٠م، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ص١٠

(٢) المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوان أبي الطيب بشرح العكبري، تحقيق كمال طالب، ط١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص١٠١

(٣) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق عبدالأمير علي مهنا، ج٢ ، ص٨٦

وهلال رمضان يقتضي حالة نفسيّة خاصّة، عند البعض، فكثيرًا ما كان يشعرهم بـــالمرارة عند ظهوره معلنًا بدء الصّوم، وكثيرًا ما كان يشعرهم بالسّعادة عند ظهوره معلنًا بدء الفطر:

أقولُ وقدْ لاحَ الهلالُ مُغَرِّبـــــــا   ويا ليتَهُ في الأُفْقِ غيرُ مُغَرِّب

ثقيلٌ هلال الصومِ أنت على امرئٍ   وليس عجيبا هكذا كلُّ مُغربي(١)

وتبقى خلجات الشّعراء تنبض بما تجود به نفسيّاتهم، تعكس الرابط النفسيّ الــذي يــربطهم بالطبيعة ، فأبو تمّام يخاطب قمر السّماء ويحاوره مبديًا أسباب ضجر ذلك القمر، فقد آثر الهبوط إلى الأرض لعدم رغبته بالبقاء في السّماء، وفي ذلك سبب إضافيّ وهو بعده عمّن يحبّ وقربــه ممّن لا يحبّ:

أيـــا قمرَ السماءِ سفُلْتَ حتى   كأنّكَ قَدْ ضَجِرْتَ منَ العُلُــوِّ

رأيتــُكَ منْ مُحِبِّــكَ ذا بِعادٍ   وممـــّن لا يحبّـُكَ ذا دُنُـــوِّ(٢)

وبالرجوع إلى شاعر عرف بنظرته الداخليّة إلى السماء ومصابيحها ، وأسقط عليها ممّـــا يراه في بصيرته من حال للبشريّة ، نجد أنّ النظرة إلى القمر في شعره مخــضوبة بإســقاطات داخليّة عميقة، تنبع من نظرته الخاصَّة إلى الكون والحياة، إنَّه أبو العـــلاء المعـــرِّي ، ونظـــرة المعرّي النفسيَّة للقمر في أطواره المختلفة، كثيرًا ما عكست حالة تشاؤميَّة، فالبدر البدين ينعـــى الأبدان، وفي بدانته ما يبوح بالتضخُّم المُشْقِي، والهلال يتَّصف بالهزال، وفي هزاله مـــا يبـــوح بالمرض والسّقم، والبدانة والهزال ينعكسان على البشريّة جمعاء، في حالة استحـــضار ضـــدِّيَّة، تتناثر من مكوِّن واحد أصلا، يقول:

---

(١) ابن دانيال (ت٧١٠هـ) المختار من شعر ابن دانيال لصلاح الدين الصفدي، تحقيـــق محمـــد نـــايف الدليمي، دط، ١٩٧٩م، مكتبة البسام، الموصل، ص ١١٠

(٢) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، ج٤، ص٢٨٢

باتَ ينعي الأبدانَ بدرٌ بدينٌ   وهلالٌ في أفْقــهِ مَهـــــــزْولُ

كم أبادا من عالَمٍ وأعــادا   سابحاً وهْوَ في الثَّرى مَــأْزولُ[١]

وحالة الترقُّب الَّتي يراها البشر في القمر، إنَّما هي حالة من الوسواس الَّذي يتناهى إلى رسم الصورة القمريَّة في حالات الولادة والموت، والإبدار والمحاق، ويظهر ذلك من خـــلال رســم صورة لغلبة الشُّؤم والنحس على التفاؤل والسُّعود:

الناسُ بالأقدارِ نالوا كلَّ مـــــا   رُزِقوا ولم يُعْطَوا على الأقدارِ

والنحلُ يُجنى حين يرطبُ زهوُهُ   والبدرُ يُكسَفُ ليلةَ الإبـــــدارِ[٢]

كانت هذه صورًا لبعض الإسقاطات النفسيَّة الَّتي أسبغها الشُّعراء على القمر ، أو استوحوها منه، وهي ــ وإنْ تنافرت أحيانًاــ إلا أنَّها تبقى في إطار النفس البــشريَّة، الَّتــي تنظــر إلــى الموجودات من حولها بعدستها الخاصَّة.

---

(١) المعري، أبو العلاء، اللزوميات، ج٢، ص٢٠٠، والمأزول هو المحبوس

(٢) نفسه، ج١، ص٤٠ والأقدار الأولى جمع قدر وهو القضاء المكتوب والثانية جمع قَــدْر وهــو الــشأن والمنزلة

المبحث الرابع

النظرة الفكريَّة التأمُّليَّة

(النموذج الأعلى، وأنسنة القمر)

نظر العربيُّ إلى السَّماء نظرة تأمُّليَّة عميقة، فهي سقف الأرض المليء بكائنات عملاقة، ودرر منثورة، تنبعث من إشعاعاتها دعوات للتأمُّل والتفكُّر في هذا الفضاء السحيق البعيد، وكان القمر من أبرز المعالم السماويَّة الّتي تطلُّ على الأرض فتغمرها بالنور، وتسبغ عليها جماليَّات تمتدُّ ما بين الناظر والمنظور.

فكان العربيّ يرتاد الصحراء ليلا، ويتَّخذ من رمالها مهادًا، يستلقي عليه بجسده المنهك من وعثاء السّفر، ويطلق لعينيه العنان مبحرًا في هذا السّقف السّماويّ، يتأمَّل قمرها المسافر في جوفها، فتغشاه الطمأنينة والرهبة في آن، وتتعمَّق لديه الأحاسيس بعظمة هذا الكائن، وهي ليست بعيدة عن تلك الأحاسيس الّتي جعلت سيّدنا إبراهيم ــ عليه السلام ــ يتفكّر في هذه الكواكب السماويّة ويتأمّلها، ومن أهمِّها القمر، فهذا القمر عند العربيّ هو نموذج أعلى، قريب وبعيد في آن، قريب بنوره الممتدّ، وعطائه الفيَّاض، وكرمه بعموم الإنارة، وبعيد بمكانته ورفعته وعليائه، يمدُّ المتأمِّل بمشاعرَ غيرِ متجانسة، فيبحر باحثًا عن روابطَ بينها، فيصطدم بحضوره وغيابه، ونموّه وانكساره، وكسوفه وابتداره، فيبقى صاحب المكانة العليا، ويبقى الطموح الإنسانيّ مستمرًّا للارتقاء إلى تلك المكانة:

فَخَرْتَ بِسَعْدٍ كالذي حَنَّ والِهًا　　　إلى القَمرِ العالي إذا ما تَوَقَّدَا (١)

---

(١) التيمي، عمر بن لجأ(ت١٠٥هـ)، شعرعمر بن لجأ التيمي، يحيى الجبوري، د ط، ١٩٧٦م، منشورات جامعة بغداد، بغداد، ص٨٥، وسعد: هو سعد بن زيد مناة بن تميم.

فعلوّ القمر قيمة عليا، تجعله مثالا لكلِّ مشبَّه يراد له أن يكون قيمــة، وهــو مــا دعــا الشُّعراء إلى إسباغ سِمَتَيِّ العلوِّ والرفعة على ممدوحيهم من خلال تشبيههم بالقمر، فكلَّمــا ازداد المبصر علوًّا ازداد اتساع الرقعة البصريَّة والمساحة التي يجلوها النظر، فمكانة القمر العاليــة الرفيعة لا تحدُّ من انتشار نوره، بل كلَّما ازداد رفعة وعلوًّا ازداد نورًا:

كَالبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رأيتَهُ   يُهْدي إلى عينيكَ نورًا ثاقِبًا (١)

وفي الإطار نفسه فإنّ الممدوح قد يكون قريب العطاء على الرغم من أنَّه بعيد المحــلّ، وكذلك الهلال فنوره قريب عامٌّ على الرغم من بعد منزلته يقول البحتريّ:

كَالبدرِ أَفْرَطَ في العُلُوِّ وضوؤُهُ   للعصبةِ السارينَ جِدُّ قَريب(٢)

وأمّا ابن الروميّ فهو يوائم بين حسن البدر وجماله، وبعد مناله، ومقدرته الفيَّاضة فــي نزول المطر والخصب والنّماء، وهي إشارات بقي لها ظلالها في الوعي العربيِّ، إذ ربطوا بين نزول المطر واحتباسه، والأنواء ومنازل القمر:

يا شبيهَ البدرِ في الحُسْــ   ــنِ وفي بعدِ المَنال

جُدْ فقد تنفجِرُ الصخـــ   ــرةُ بالماءِ الزُّلال(٣)

والنموذج البدريّ هو النموذج الأعلى والأكمل، ولا سيما بتوسطه في كبد السماء مشرفًا على البشريّة، ومستشرفًا أمانيهم التي يرسمها الشعراء لممدوحيهم على صفحته، وهذا الــشبه الــذي يرسمه ابن الرومي، ما هو إلا حالة استحضار للنموذج، فهو حاضر في حسنه المثاليّ، وبعيــد في مكانته ومنزلته.

---

(١) المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوان أبي الطيب المتنبي، بــشرح العكبــري، ضــبطه وصــححه كمــال طالب،ج١، ص١٤٠

(٢) البحتري، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ج١، ص ٢٤٩

(٣) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق عبد الأمير مهنا، ج٥ ، ص ٩٧

والسريّ الرفّاء(٣٦٦هـ) يربط بين الشّرف الرفيع والمكانة العالية للهلال:

وأَحلَّهُ الشرفُ الرفيعُ هِلالَهُ، فغَدا وراحَ بِهِ هلالًا ماثِلا(١)

ولمَّا كان جبين الإنسان يتَّسم بالرفعة والوضوح، فكان النموذج الأعلى في ذلك هو القمر فأبو طالب(ت٣ق.هـ) يشبّه جبين الرسول – ﷺ– بالقمر المنير:

أيا ابنَ الأنْفِ أنفِ بني قُصَيٍّ كأنَّ جبينَكَ القمرُ المنيرُ (٢)

والأخلاق الحسان لها نور قمريٌّ يستمدُّ قيمته العليا من نموذجه الأصيل، فيصبغ أخلاق الحضور بالحسن، بعد أن كانت أخلاقًا سودًا تصبغها العتمة:

صبَغَتْ خَلائِقُكَ الحِسَانُ بِنُورِهَا الْـ ـقَمَرِيِّ سُودَ خلائِقِ الْجُلَّاسِ(٣)

والإسلام عند أبي تمام يتحوّل إلى بدر بعد أن كان محاقًا، فأكمل المعتصم نقصه، وأعاده إلى كامل نضجه:

أَمْسَى بِكَ الإسْلامُ بَدْرًا بَعْدَ مَا محقَتْ بَشاشَتُهُ محاقَ هِلالِ

أَكْمَلْتَ مِنْهُ بَعْدَ نَقْصٍ كُلَّ مَا نَقَصَتْهُ أَيْدي الكُفْرِ بَعْدَ كَمَالِ(٤)

وتأمُّل الهلال حقٌّ على كلِّ من يشاهده، وهو يتحوّل من طور إلى طور، هذا التحوُّل الّذي يتبدّى لعين الناظر شبيهًا بحركة نموٍّ كائن أرضيّ:

وَحَقٌّ مَا تَأَمَّلْنَا هِـــــلالا بِأَقْصَى الأُفْقِ إلا عنْ مُحَاقِ(٥)

---

(١) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح كرم البستاني،ط١، ١٩٩٦، دار صادر، بيروت،ص٤٧

(٢) أبو طالب، ديوان أبي طالب عم الرسول –ﷺ–، جمعه وشرحه د. محمد التونجي، ط١ ،١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٥٠

(٣) البحتري، ديوان البحتري، ج٢، ص١١٧٧

(٤) ابو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، ج٣، ص١٤٤

(٥) البحتري، يوان البحتري، ج٣، ص١٥٢٨

وقد قارب الشّعراء بين حالة النقص التي تعتري القمر، فيتحوّل من طور الاكتمال عندما يكون بدرًا ، إلى طور النقصان عندما يصبح هلالا، فمحاقًا، وصفات البشر في النقصان، وحالة التردّي الّتي تصيب الإنسان بعد انقضاء فترة الشباب، أو بعد تعرّض الإنسان للأمراض، فــأبو العلاء يرى في ذلك سقمًا، إلا أنَّ هذا السَّقم غير معيب، فهو تلك الحالة البشريَّة التــي تــصيب الكبار والصغار، وممدوح المعرِّي كبير في مقامه، قويّ في بنيته، إلا أنه يصاب بالسَّقم، ممــا دعاه إلى استحضار صورة الهلال:

فإنْ نالَ مِنْكَ السَّقْمُ حَظًّا فطالما رأيتُ هلالَ الأُفْقِ وهو سقيمُ[1]

ويصف في موقع آخر البدر بالخوف الشديد الذي يجعله يلاقي السَّرار في إسباغ صفة إنــسانيَّة عليه:

وباتَتْ تُراعي البدرَ وهْوَ كأنّه من الخَوْفِ لاقى بالكَمالِ سِرارا

تَأَخَّرَ عنْ جَيْشِ الصَّباحِ لِضعْفِهِ فَأَوْثَقَهُ جَيْشُ الظلامِ إِسَــارا[2]

والأمثلة على أنسنة القمر[3] كثيرة في الشّعر العربيّ عمومًا، ولاسيّما في وصف النساء، والربط بين سنّ الرابعة عشرة عندهن ، واكتمال البدر في الليلة الرابعة عشرة، وقــد ذكــرت بعض الأمثلة على ذلك في مواضع مختلفة، والجديد هنا هو تلك النظرة التأمُّليَّة التي تربط القمر الإنسان بالإنسان القمر، فالأوّل مشرق بإنسانيّته، والثاني مطلّ ومراقب ببصيرته:

ما أَبْصرتْ عينايَ قبلَ وُجُوهِها وفُرُوعِها نوراً يُقلُّ ظَلامــــا

مِنْ كُلِّ نَاعِمَةِ الشَّبابِ غريــرةٍ تَسبي العقولَ وتزدهي الأحلاما

---

(١) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، سقط الزند، ص ١١٦

(٢) نفسه ص١١١- ١١٢

(٣) أنسنة القمر: إضفاء البعد الإنساني عليه، والمقاربة بينه وبين الإنسان في استحضار ركني التشبيه.

في سُنَّةِ القمرِ التَّمامِ وسِنِّه   واحسبْ لياليَهُ لَها أَعْوَاما[(١)]

وإسباغ الصورة القمريّة على المحبوبة أو العكس، ما هي إلا محاولة لاستحــضار صــورة القمر الإنسان ، في إطاره الجماليّ، ومن هنا كانت المحاورة الاستبداليّة هي الطريــق الأقــرب لربط الصورة بالمثال:

نِعمَ الحُليُّ عليكَ الدَّلُّ والخَفَــرُ   والنيِّرانِ: ضِياءُ الشمسِ والقمرُ

يا ذا الذي تُخجلُ الأغصانَ قامَتُه   ومنْ لَهُ البَدْرُ وَجْهٌ والدجى شَعَرُ

ومن إذا قيلَ إنَّ البَدْرَ يُشْبِهُــهُ   حُسنًا أتى البدرُ مما قيلَ يعتذرُ[(٢)]

وتأمُّل القمر يمرُّ عبْر تحوّلاته المختلفة، فضلا عن مكانته السامية في كل تحــوّل منــذ الولادة إلى السّرار مرّة أخرى، وقد ظهر ذلك بجلاء في مقاربة الشّعراء لصور ممدوحيهم، فهم يرون فيهم النموذج الأعلى ، والشّرف الرفيع، فيشبّهونهم بالقمر في نموّه واكتماله:

شَرَفٌ تَزَيَّدَ "بالعراقِ" إلى الذي   عهدوهُ " بالبيضاءِ" أو " بِبَلَنْجَرا"

مثلَ الهِلالِ بَدا فَلَمْ يَبْرَحْ بِــهِ   صَوْغُ الليالي فيهِ حتى أقمرا[(٣)]

والخليفة المتوكّل كما يراه ابن الجهم يتناوب مع القمر في صفات إنسانيّة، يتساوى فيها القمر في دورته النمائيّة مع الإنسان في حياته الأرضيّة، ولكنّ هذه السمة تثبت لدى الممدوح، في حين لا تكون ثابتة في البدر:

---

(١) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، ج٥، ص ٣٠٣

(٢) زاهر، جمال ، شعر الوأواء الدمشقي ، دراسة فنية، ص٣٩-٤٠

(٣) البحتري، ديوان البحتري، ج٢، ص ٩٧٨-٩٧٩، والبيضاء وبلنجر: مدينتان في بلاد الخزر

يا بدرُ كيف صنعتَ بالبدرِ وفضَحتَهُ من حيث لا تدري

الدهرُ أنتَ بأسرِهِ قمـــــرٌ ولذاك ليلتُه من الشّــهرِ[(١)]

وهذا النموّ له دور في التأمّل لاستحضار صورة الممدوح، الّتي تزداد شرفًا وعزًّا ومنعة باكتمال دورة النموّ، وهذا الشّبه بين الإنسان والقمر يعود إلى بداية النشء والنماء إلى أن يبلغ حدَّ التمام، ثم تراجعه إلى أن يستسرّ.

وهلال رمضان الوليد مرآة للكثير من الأشعار التي ربطت بينه وبين الطفل, ولكنـــه طفـــل لحملٍ قصير, فهو حمل ليلتين لا تسعة أشهر, وهو طفل يرتدّ إلى طفولته بعد الكهولة, ولا يلبث أن يعود سيرته الأولى فيصبح كهلاً في سبع عشرة ليلة, وهي الصورة التي ينقلها لنا أبو هلال العسكريّ مضيفاً كثيراً من الصفات الإنسانيّة على هلال رمضان :

جَلَبَ المجاعةَ ضامِــرٌ بَخِــلٌ قَدْ خِلْتُ فيهِ لِضعفهِ سِــلاّ

طفلٌ ولكنْ أمـــرُهُ عَجَـــبُ قدْ عادَ بعدَ كهولةٍ طفـــلا

قَـــدْ كانَ حملَ الليلـــتينِ فلمْ تَرَ مُقْلَةٌ طِفلاً ولا حَمــْلا

ومن العجائبِ أن يعودَ فَتـــىً في سبعَ عشرةَ ليلةً كَهْلا[(٢)]

وقد شخَّصَ كثير من الشّعراء الهلال, وأسبغوا عليه صورة إنسان يمر بأطوار مختلفة مـــن الطفولة إلى الشباب فالكهولة, فضلاً عن التغيّرات الجسديّة التي تطرأ عليه في كلّ مرحلة, وما يتبع ذلك من حالات نفسيّة أيضاً :

يقولُ هلالُنا في كلِّ شــــــهرٍ مقالةَ ذي عناءٍ واكتــــــئابِ

---

(١) ابن الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم ص١٤٣

(٢) العسكري, أبو هلال, شعر أبي هلال العسكري, تحقيق محسن غيّاض, د.ط ١٩٧٥،,منشورات عويدات, بيروت, ص١٣٣

مضى زمني ولي وجهٌ مليحٌ   أفوقُ بِهِ على الخودِ الكِعابِ

وقدْ أصبَحتُ منحَــنِيًا كأنِّي   أُفَتِّشُ في الترابِ على شبابي[١]

وعلى امتداد الشّعر العربيّ لا تخلو النظرة إلى القمر من التأمل والتفكر[٢]، فكثيرًا مـــا كان يقف الشاعر عند تلك الحركة القمريّة الدائبة، موازنًا بينها وبين حركة الإنسان، وكثيرًا مـــا كان يربط بين مراقبته للسّماء عمومًا ومراقبة السّماء له، وهي مراقبة تحثُّ على التفكيـــر فـــي محاولة لاستجلاء العوالم الأخرى.

---

(١) الصفدي, صلاح الدين, رشف الزلال في وصف الهلال, تحقيق محمد عايش ص١٩٥

(٢) في الفصل الرابع دراسة لبعض المقطوعات الشعرية في تأمل القمر

المبحث الخامس

النظرة العَقَدِيَّة

أ) قبل الإسلام

تحدَّثت في المبحث الثالث من الفصل الأوّل في هذه الرسالة عن عبادة القمر وأسطرته، وذلك في المبحث الخاص بالقمر والمعتقد، وقد عرضت لذلك في الموروث الثقافيّ والفكريّ والعقديّ عند العرب قديمًا، ثم عرضت في الفصل نفسه إلى حضور القمر في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشّريفة بعد الإسلام، ولكنّ السؤال هنا : هل كان للقمر المعبود حضور في الشّعر الجاهليّ؟ وإنْ كان، فهل له امتدادٌ في الشّعر العربيّ بعد الإسلام؟

كما يَرِدُ تساؤل آخر: كيف كان الحضور العقديّ للقمر في الشّعر بعد الإسلام؟ وكيف تعامل الشعراء مع هلال رمضان ، وهلال العيد؟ وكيف كانت نظرة المتصوفة إلى القمر؟.

في الشّعر الجاهليّ لا نكاد نلمس حضورًا حقيقيًا للقمر المعبود، باستثناء بعض الأبيات المتناثرة هنا وهناك، والتي تحتاج بدورها إلى تأويل لإثبات عبادة القمر[١] ، ومن ذلك بيت للأعشى من قصيدة يمدح بها الأسود بن المنذر اللخمي، يصف فيها قومه بأنهم " يظلّون ركودًا أمام الملك العربيّ حتّى لكأنّهم يقومون رهبة للهلال: ونسأل نحن أنفسنا: لماذا يقوم الناس رهبة للهلال؟ "[٢] يقول الأعشى(ت٧هـ):

أَريحيٌّ صَلْتٌ يظلُّ له القـــو مُ رُكودا قيامَهم للهـــلالِ [٣]

---

(١) انظر عبدالرحمن، نصرت:الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ص٣٠

(٢) زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة،ط٢، ١٩٧٩م، دار العودة، بيروت، ص٨٢

(٣) الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد محمد حسين، د ط، ١٩٥٠م، المطبعة النموذجية، مصر ، ص ٢٦

فهذا القيام الهادئ بين يديّ الممدوح هو ذاته الذي يكون بين يديّ المعبود– القمر، وإن لم يقل ذلك صراحة، وإذا ما استحضرنا صورة القوم وهم ركود، أمام هذا القيام للهلال، نجد تلك الهالة من القداسة.

ونشتمُّ رائحة تَألِيهٍ للقمر في بيت آخر له أيضًا، يقول في مدح هوذة بن علي الحنفي:

فتىً لو يُنادي الشَّمْسَ ألقتْ قناعَها   أو القمرَ الساري لألقَى المقالدا[(١)]

فمقالد الحكم والملك لا تكون إلا لصاحب قداسة ومهابة يخضع له الناس.

والأعشى ذاته يسبغ على ممدوحه صفتين، ما أراهما إلا من صفات البدر ــ الإله، يقول:

مُتَحَلِّــبِ الكفَّيْــنِ مثـــــــــــ   ــــلِ البدرِ قوَّالٍ وفاعِلْ[(٢)]

وأمّا زهير ابن أبي سلمى(ت١٣ق.هــ) فيمدح هرم ابن سنان مدحًا يبوح برفعة المكانة، التي يشوبها شيء من القداسة، فلو لم يكن ممدوحه من البشر، لكان في مكانة أرقى، وهي مكانة عليا ترتقي إلى مصافّ سماويّة ، وهي صورة للبطل الحضاريّ الجماليّ الذي يحمل القيم الكبيرة، " فالبطل على المستوى الشخصي، صافي الخليقة، جلد، شجاع، طيّب الخبر، وهو على المستوى الاجتماعيّ ــ مأوى القوم في الأزمات، سريع النجدة، قاتل للذعر الجماعيّ، يوحّد وينير الدرب كالبدر "[(٣)] :

دَع ذا وَعَدِّ القَولَ في هَـــــرَمٍ   خَيرِ الكهولِ وَسَيِّدِ الحَضَرِ

لَو كُنتَ مِن شَيءٍ سِوى بَشَــرٍ   كُنتَ المُنَوِّرَ لَيلَةَ البَــدرِ [(٤)]

---

(١) الأعشى ، ديوان الأعشى الكبير، ص ٦٥

(٢) نفسه ص ٣٤٧

(٣) الرباعي، عبدالقادر، شاعر السمو زهير بن أبي سلمى الصورة الفنية في شعره، ط١، ٢٠٠٦، جــدارا للكتاب العالمي، عمان، ص ١٤٥

(٤) ابن أبي سلمى، زهير،شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، قــدم لـــه ووضـــع هوامشه وفهارسه د. حنا نصر حتي ، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م ص ٧٥

فلو كان الممدوح غير بشريّ ، لاقتضى أن يكون من جبِلّة أخرى، وهي هنا القمر– الإله.

ولزهير بيتان آخران ينمّان عن صورة القمر المعبود، فهو يحمل صفات علويّة كبيـــرة، فهو أغرّ أبيض فيّاض كثير العطاء:

أغرُّ أبيضُ فيَّاضٌ يُفككُ عن   أيدي العُنَاةِ، وعن أعناقِها الرِّبَقا

لو نالَ حيٌّ من الدنيا بمكرُمَةٍ   أفقَ السماءِ ، لنالت كفُّهُ الأُفُقَا[١]

وإذا عاد فضل طول العمر للشمس والقمر، فإن ذلك يوحي بقناعة البعض بعبادة كليهما، يقول دريد بن الصمة(ت ٨هـ):

عُمْرِي مَعَ الدَّهْرِ مَوْصولٌ بآخِرِهِ   وَإِنَّمَا فَضْلُهُ للشَمْسِ وَالْقَمَـــــرِ[٢]

وإذا كنّا لا نجد ما يثبت قطعًا عبادة القمر من خلال الشّعر الجاهلي، فإنّ ذلك لا ينفي عبادته كما سلف في الفصل الأوّل، وإنّما يمكن إرجاع السبب في عدم وضوح ذلك في الشّعر لأسباب منها:

ــ القداسة الكبيرة التي تجعلهم يتحاشون ذكره باسمه مباشرة.

ــ وجود صفات تغني عن الحضور الاسمي.

ــ أن عبادته – على الأرجح – أقدم من الشّعر الذي وصل إلينا في الجاهلية، وأن ما وصل إلينا من ذلك لا يعدو كونه ترسّبات متوارثة.

---

(١) ابن أبي سلمى، زهير، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى صنعة أبي العباس ثعلب، ص٦٦ ، والفياض: كثير العطاء، والعناة: من الوجوه العانية: الخاضعة، والربق هو الحبل

(٢) ابن الصمّة، دريد، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق محمد البقاعي ، دار قتيبـــة، د ط، ١٩٨١ ، دمـــشق ص١٢٥

ـــ أنّ الجاهليّين عبدوا أصناما تحمل تجسيمًا للقمر – الإله الأرضيّ– ومنها " وَد " الذي كان رمزًا للحبّ الإلهيّ، وكان العرب يطوفون به في يوم الدوار[(٢)].

ـــ أنّ اعتماد الشّعر الجاهليّ على الرواية، قد يكون أدّى إلى سلخ بعض الأبيات التي تشير صراحة إلى عبادة القمر بعد الإسلام، فربّما أغفل الرواة ذلك، وأنّ ما وصل إلينا من أبيات لا يعدو كونه نزرًا منسيًّا.

ـــ أنّ الشّعر الجاهليّ عمومًا يكاد يخلو من صور العبادات الأخرى، ممّا قد يوحي بإغفـال تدوين مثل هذا الشّعر في المراحل التالية.

ـــ من المفترض أنّ تعكس الأمثال الجاهليّة الواقع الدينيّ بصورة أشمل، ولكنّها لم تحمل لنا تصوّرًا عقديًا عن عبادات الجاهلية، باستثناء تلك الأمثال التي خضعت للتأويل[(٢)]، ولمّا كان المثل أقرب إلى التعاطي الشّعبيّ من الشّعر، فإن افتقاره للبعد العقديّ عمومًا، يجعلنا نُـسلِّم بما وصل إلينا من الشّعر.

---

(١) انظر ابراهيم عبدالرحمن: التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي ص ١٢٩ وانظر ذكر يوم الدوار في معلقـة امرئ القيس ص٢٢ من ديوانه .

(٢) انظر زكريا محمد، ذات النحيين(الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة) ص٥– ٩

ب) بعد الإسلام

وبعد مجيء الإسلام اندثرت كثير من العبادات، ولم يعد لها وجود ، ولا لِما يمثّلها من آلهة مصنوعة، ولكن ذلك لا يعني غياب بعض الملامح المؤطِّرة لها في الشّعر، إذ تتسرب دون قصد في ثنايا القصائد حاملة معها روح ثقافة وعقائد أنهاها الوعي الدينيّ، ولننظر إلى ما يقوله الفرزدق في مدح سعيد بن العاص:

تَرَى الشُّمَّ الجَحَاجِحَ من قريشٍ إذا مَا الأَمْرُ في الحَدَثَانِ عالا

قيامًا ينظرونَ إلى سَعيدٍ كأنَّهُمُ يَرونَ بِهِ هِلالا[1]

فإذا كان الشمُّ الجحاجح من قريش يقفون وهم ينظرون إلى سعيد ذي النجدة والشجاعة والسموّ، فهذا يعني أنه ذو مكانة عالية عندهم، وهذه المكانة مستمدّة من مكانة الهلال، تلك المكانة التي تستدعي الوقوف للنظر والتأمّل، وفي قوله (قيامًا) استشعار للوقوف بين يديّ الهلال، وما أراه إلا امتدادًا وظلا لما كان يسمّى عبادة القمر. وإن قال قائل : هذا تحميل للنصّ بما لا يحتمل. أقول: إنّ الثّقافة المتوارثة تتسرب في الموروث اللغويّ، لتخرج عند استحضار المواقف المتشابهة، حتّى ولو لم يقصد الشاعر ذلك.

أما أبو العلاء المعري فيبعث تهنئة إلى أمير بعقد قران:

ظَلَّ لِلناسِ يَوْمَ عَقْدِكَ هذا الـ أمرَ عيدٌ سمُّوهُ عيدَ السّرورِ

إنْ يَكُنْ عيدُهُمْ بغِيرِ هِلالٍ فالهِلالُ المنيرُ وجْهُ الأَميرِ

راقَهُمْ منْظَرًا وهابوهُ خَوْفًا فهْو ملءُ العيونِ ملءُ الصّدورِ[2]

---

(١) الفرزدق، ديوان الفرزدق، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، ص٤٧٥ والجحاجح: العظماء والأبطال، والحدثان: الليل والنهار، وعالا: ثقل

(٢) المعري، أبو العلاء ، سقط الزند، مصدر سابق ص ٧٢

فيوم عقد هذا القران هو يوم عيد للناس عمومًا، ولكن هذا العيد بتسمية أخرى، فهــو عيــد السّرور، ولمّا كان لا بدّ لعيد الفطر(السّرور) من رؤية الهلال، فقد كان البــديل لهــذا العيــد حاضرًا ، وهو وجه الأمير، ولا يكتفي الشّاعر بذلك، بل يضفي على هذا الهلال المنير(وجــه الأمير) هالة تتدعَّمُ فيها مقوِّمات القمر المعبود، ففي البيت الثالث نجد منظر الهلال الرائــق ــ بداية التأمُّل ــ استحضار الصورة ــ الهيبة ــ الخوف ــ شمول الحالة ــ ملء العيون ومــلء الصّدور، للدلالة على اكتمال استحضار القيمة. وإذا كان المعبود منزَّهًا عن النقص، بعيدًا عــن الدنس، فإنَّ جوهر البدر كذلك، والجوهر هو الأصل إذ إنَّ الشَّكل معرَّضٌ للتغيير:

وَصَاحَبُوها بِأَعْراضٍ جَواهِرُها كَجَوْهَرِ البدرِ لا يَدْنُو مِنَ الدنَسِ(١)

وكنت أيضا قد عرضت في الفصل الأول إلى بعض المعتقدات المستمدة من أسطرة القمــر، مثل ظاهرتي الكسوف والخسوف اللتين ارتبطتا بموت عزيز وقد وردت بعض الأمثلة عليها في مبحث المحور النفسي، وهي ظاهرة لم تتوقف حدودها عند الجاهليين، بل استمرت في الــشعر العربي بعد الإسلام. وقد ضربت بعض الأمثلة على ذلك في النظرة النفسية إلى القمر في هــذا الفصل.

وبعد الإسلام هناك شعراء تأثَّروا بالقرآن الكريم في تصوير القمر، ومن هؤلاء ابن الرومي الّذي يستمد صورة قمره من القرآن الكريم، فيوظِّف تلك الصّورة التي يعود بها القمر إلى شكل العرجون القديم:

تأتِي على القمرِ السَّاري حوادِثُهُ حتى يُرى ناحِلاً في شَخْصِ عُرجونِ(٢)

---

(١) المعري ، أبو العلاء المعري ، سقط الزند(مصدر سابق) ص١٢٣

(٢) ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي، ج٦، ص ٢١٥

وقد وقف بعض الشعراء موقف المؤيّد مما جاء في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة من أنّ القمر وغيره من الكواكب, ما هي إلا مخلوقات تسير بأمر الله سبحانه, ومن ذلك ما جاء على لسان المعرّي الذي أشار إلى أنّ " النجوم والكواكب آيات دالّة على قدرة الله وبديع صنعه, وأنّها كسائر مخلوقاته لا تملك لنفسها – فضلا عن غيرها – ضرًّا ولا نفعًا, وأنّها محكومة بسلطان الفناء المحتوم عند نهاية الحياة الدنيويّة استعداداً للنقلة للحياة الباقية الخالدة, فتراه يقرر كونها مخلوقة لله في قوله :

فالهلالُ المُنيفُ والبـَدْرُ والفَـرْ قَدُ والصُّبح والثَّرى والمـاءُ

والثُّريَّا والشمسُ والنـارُ والنُـ ثرةُ والأرضُ والضُحى والسّماءُ

هذه كلُّها لربِّكَ مـا عـا بَك في قولِ ذلكَ الحكمـاءُ"[(١)]

وبعد فرضِ الصيام في الإسلام يطلع علينا قمرٌ ذو حضور كبير في الشّعر، وهو القمر في طور الهلال، وذلك بعد أن أكَّد الحديث النبويّ الشريف ارتباط هذه الشعيرة بظهور الهلال، فكان ظهوره معلنًا بدء رمضان محطَّ عناية الشّعراء ما بين مقبل ومدبر ، وكذلك كان ظهوره معلنًا انقضاء رمضان، ومبشّرًا بعيد الفطر.

وقد رسم البعض صورًا فريدة لهلال رمضان، وصبّوا على ظهوره جام غضبهم، وانتظروا اكتماله، ومن ثمَّ عودته حالته الأولى إلى أن يظهر مرَّة أخرى، فيفرحون لعودتهم إلى ما كانوا عليه من قبل، يقول ابن الروميّ:

---

(١) الفهيد, جاسم سليمان حمد, التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء, ص١٦ وانظر الأبيات في اللزوميّات, ص٤٥ , والنثرة اسم كوكب .

شهرُ الصِّيامِ مُباركٌ لكنَّــما   جُعِلَتْ لنا بركاتُــهُ في طولِــــهِ

إنِّي لَيُعْجِبُني تمامُ هلالِــهِ   وأُسَرُّ بعدَ كمالِــهِ بنحولِــــهِ[1]

وقد ينعكس اكتمال الهلال ونحوله على الصائمين أنفسهم، كقول أحدهم:

قُلْ لِشَهْرِ الصِّيامِ أَنْحَلْتَ جِسْمي   سَتَرى ما يكونُ في شَوَّالِ

كيْفَ ما شِئْتَ كُــنْ ومَا شِئْــتَ   إنَّ ميعادَنا طلوعُ الهلالِ[2]

ولابن المعتزّ الكثير من الشّعر في سياقات هلال رمضان، بل إنّه ابتدع كثيرًا من الصّور في ذلك، فقد شبّه الصّيام بالدولة المتجبّرة القاسية ، وشبّه ملكها وحارسها وهو الهلال بالسّقيم الهزيل بعد انقضائها، وقد كان في استجلائه للصور مبدعًا ومنفردًا في كثير منها، ولا سيّما عند حديثه عن هلال رمضان:

قَدِ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَــامِ   وبَشَّرَ سُقْمُ الهلالِ بالعيــدِ

يَتْلو الثُّرَيَّا كفاغِرٍ شَــرِهٍ   يَفْتَحُ فاهُ لأَكْلِ عُنْقُــودِ[3]

وهذه الأمثلة وغيرها لا تعبّر عن رفض هؤلاء الشعراء لشعيرة الصيام كما يبدو من الأبيات، ولو كان ذلك لما عناهم ترقّب الهلال، وانتظار انقضاء الشّهر، لمعاودة ممارسة حياتهم المعتادة، ولكنّ شعرهم كان حالة تعبّر عمّا في النفس من رغبات دفينة في معاقرة الخمرة، أو العودة إلى الحريّة بعد الامتناع عن الملذّات والأطايب.

على أن هذه الصور وإن كثرت ما هي إلا استثناء، إذ كان انتظار هلال رمضان وهلال

---

(١) ابن الرومي، علي بن العباس، ديوان ابن الرومي، ج٥ ، ص ٢٢٢

(٢) انظر البيتين في، الصفدي، صلاح الدين خليل، رشف الزلال في وصف الهلال، ص١٦٤

(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ج٢ ، ص٥٦٦

الفطر من الأحداث التي تحفل بكلّ مظاهر البهجة والسعادة في العالم الإسلاميّ، حيث تكلــل الفرحة الناس جميعًا صغارًا وكبارًا. وتنبري تقاليد احتفاليّة بظهور الهلال بــاختلاف الأزمنــة والأمكنة التي تختلف معها العادات والتقاليد، وعلى الرغم من أنّها جميعًا تنهل من منبع واحــد، وتهدف إلى غاية واحدة، إلا أنّها تختلف فيما بينها في وسائل التعبير عن السرور بإقبال شــهر رمضان أو عيد الفطر، وهذا كلّه مرهون بظهور الهلال.

وقد حرص الشعراء على تصوير كل ذلك، فوجدنا لدى بعضهم ترحيبًا بظهور هــلال الشّهر، بل إنّ بعضهم كان يتابع أطوار القمر في شهر شعبان انتظارًا لأفول ذلك الشّهر ومجيء رمضان، يقول البحتريّ:

قُمْ نُبادِرْ بِها الصيامَ فَقَدْ أقــ ـــمرَ ذاكَ الهلالُ منْ شَعْبــانِ(1)

كما انتظر بعضهم هلال شوال مرحبا به وبقدوم العيد وانقضاء فريضة الصيام :

جاءَكَ شَهْرُ السُّرورِ يَخْتــالُ وغــالَ شَهْرَ الصيامِ مُغْتــالُ

كأَنَّــهُ قيــدُ فِضَّــةٍ حَــرِجٌ فُضَّ عَنِ الصائمينَ فاختالوا(2)

وفي معرض الحديث عن سعادة الناس بمواقف معينة، يكثر الشّعراء من تشبيههم لتلك المواقف بهلال العيد، ومن ذلك سعادة الناس بما فعله ممدوح أبي تمّام:

رَمَقــوا أَعالي جِذْعِــهِ فَكَأَنَّما وَجَدوا الهِلال عَشِيَّةَ الإِفْطــــارِ(3)

والنظرة إلى القمر تغيرت بعد ظهور المتصوفة، فلم نعد نرى تلك النظــرة الخاصّــة بهــلال رمضان أو هلال العيد فحسب، بل سنجدها تتحول إلى رمز لديهم ، كما سيأتي.

---

(١) البحتري ، ديوان البحتري، ج٣، ص٢٢٧٠

(٢) انظر البيتين في، الصفدي، صلاح الدين خليل، رشف الزلال في وصف الهــلال، ص١٦٤ وينــسبان للسري الرفاء ولم أعثر عليهما في ديوانه

(٣) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام ، ج٢، ص٢٠٤

ج) قمر المتصوّفة: ابن الفارض(ت٦٣٢هــ) أنموذجًا

في سياقات أخرى في الشّعر بعد الإسلام نجد للقمر عند المتصوّفة حضورًا من نوع آخــر، فقد كانت لهم نظرتهم الخاصّة للقمر بدرًا وهلالا، وانبثقت تلك النظرة من نظــرتهم الخاصّــة للذات والكون، فكان القمر عندهم صورة لسموّ الحبيب ورفعته وتجلّيه، يقول ابن الفارض:

هيَ البَدْرُ أوصافاً، وذاتي سَماؤُها سَمَتْ بي إليها هِمَّتي حينَ هَمّــــَتِ

منازلُها منِّي الذراعُ تَوَسُّــــــــدًا وقلبي وطَرفي أوطنَتْ أوْ تَجَلّــــتِ[1]

وفي موقع آخر يقول:

بَرَحَ الخَفاء بحُبّ مَنْ لَوْ في الدّجى سَفَرَ اللّثامَ لقُلْتُ يا بدرُ اختَــــفِ

إلى أن يقول:

كُــلُّ البــُدُورِ إذا تَجَلــّى مُقْبِلاً تصبُــو إليــه وكُــلُّ قَــدٍ أهيــَفِ

إن قلتُ: عندي فيكَ كلّ صبابـــةٍ قال:الملاحةُ لي، وكُلُّ الحسْنِ في

كمُلتْ محاسِنُه، فلو أهدى السنا للبدرِ عندَ تمامِهِ لم يُخْسَـــــــفِ[2]

فهذا الحبيب لو كشف اللثام لفاق البدر جمالا، والبدور جميعها تصبو إليه، وتستمدّ حسنها وبهجتها وجمالها منه، لأنّ محاسنه مكتملة ولا يناله الخسوف.

وفي صورة جماليّة للعشق الإلهي، يرسم ابن الفارض أيضًا صورة المدامة التـــي هـــي المعرفة والشوق المطلق للذات الإلهيّة ، مستعيرًا أدواتها من أفلاك السماء:

---

(١) عبد الخالق، محمود، ديوان ابن الفارض تحقيق ودراسة نقدية،د ط، د ت، عــين للدراســات والبحــوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ص٢١١والبدر وصف للحبيبة، والذات هي السماء التي رفعت الشاعر إلـــى المراتب العليا في سلم الترقي للوصول للبدر، فكانت هي البدر وذاته هي السماء ، ولمّا كان لا بدّ للقمر من منازل فكان من المنازل القلب للمركز، والطرف للتجلي.

(٢) نفسه ص٣٣٨- ٣٣٩

شَرِبْنـــــا على ذِكرِ الحبيبِ مدامَةً سَكِرْنا بِها، مِنْ قبلِ أنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُدِيرُهَا هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجـــــمُ[1]

ووجه البدر كثيرًا ما جاء به المتصوّفة للدلالة على نور وجه النبيّ الكريم، وابن الفارض يرقب البدر ، ويتأمّل السّماء، فيناجي بدر التّمام، الذي يتجلّى في صورة استحضار الحبيب، الّذي يحلّ بدوره في سواه، لتقرّ به العيون، وما هذا السوى إلا البدر الذي تَقَرّ العيون بتأمّله، ويجلو الدياجي، وإن غاب خارجًا انكفأ إلى ذات الشّاعر الباطنة ليراه فيها:

بات بدرُ التّمامِ طَيـــــفَ مُحَيــــّا كَ لطَـــــرْفي بيَقْظَتي إذ حكـــاكا

فتراءَيــتَ فـــــي ســواكَ لعيـــنٍ بكَ قَرَّتْ، ومـــا رأيتُ سواكـــــا

وكـــذاكَ الخليــلُ قَلَّـــبَ قَبْلـــي طَرْفَهُ حينَ راقبَ الأفلاكـــــــا

فالدياجـــي لنـــا بـــكَ الآنَ غـــرٌّ حيثُ أَهْدَيْتَ لي هدى من سناكا

ومتى غِبْتَ ظاهرًا عن عِيانـــــي أُلْقِهِ نحو باطنـــي ألقاكــــــــا[3]

وابن الفارض أيضًا يتأمّل قصّة انشقاق القمرالتي جاءت على عهد النبي – ﷺ– فيـــرى فيهـــا مواطن للتأمّل، هذا التأمّل الذي يجرح وجنة المرئيّ لتتولّد القصة جرّاء ذلك:

عَيْني جَرَحَتْ وَجْنَتَهُ بالنّظَـــــر من رِقَّتِهَا فانْظُرْ لحُسْنِ الأثـــــر

لم أجْنِ وقد جَنيتُ وَرْدَ الخَفَـــر إلاّ لأرى كيفَ انشقاقُ القَمَـــرْ[4]

---

(١) السابق، ص٣٢٧ والحبيب يعني به الذات الإلهية، والمدامة : المعرفة الإلهية والشوق لله، والكرم: الوجود

(٢) نفسه، ص ٢٩٨ والبدر: النبي عليه السلام، وعموم الأنبياء، والعارفون من الأمة، والهلال هو المبلغ عـــن العارفين كالأصحاب والتلاميذ

(٣) نفسه، ص٣٤٢

(٤) نفسه ص٣٥٢

وأمّا بدر التمام عنده فهو رمز لديمومة الوصال:

تَثَنَّتْ فخِلْنَا كُلَّ عِطْفٍ تهُزُّه   قَضِيبَ نقاً يَعْلُوهُ بدرُ تَمَـــــام[1]

على أنَّ مرحلة التأمّل عنده تبلغ ذروتها حين يتلاشى في الخفاء ولا يبقى منه إلا التأوُّه الّذي يشير إلى وجوده:

كَأَنّي هِلالُ الشَّكِّ لوْلا تَأَوُّهي   خَفِيتُ فلم تُهْد العُيونُ لرُؤيَتي[2]

وبالنظر إلى قمر المتصوِّفة، نجد أنَّه يختلف عن القمر الطبيعيّ، فقد كانت لهم نظـــرتهم الخاصّة للأفلاك والكواكب، تلك النظرة الّتي استمدّوها من الفكـــر الـــصوفيّ لتتحـــوّل عنـــدهم الصورة إلى ظلّ، والظلّ لا يوجد في الواقع إلا إذا وجد صاحبه، فكان الحضور القمريّ عندهم رمزًا للمحبوب، واستحضارًا لحالة الوصال.

---

(٥) السابق ص٣٤٤ والعطف ما لان من الجسد

(٦) نفسه، ص٢١٢ وهلال الشك الذي لم تثبت رؤيته، فقد شبه نفسه به في الخفاء لدرجة أن العيون ما كانت لتدركه لولا صوت آهاته.

الفصل الثاني

التداوليّة الجماليّة لصورة القمر في

الشّعر العربيّ

المبحث الأوّل:

نظرة عامّة على حضور القمر في الشّعر

يرى كثيرون أن الشّعر العربيّ القديم لم يحتف بالقمر، على غير ما هو متوقّع، إذ يــرون أنّه لم تفرد له قصائد كاملة، ولم يوصف لذاته، وإنما كان مجيئه عرضًا في ثنايــا قــصائدهم، فيرى أحمد زياد محبّك في محاضرة له قدمها في اتحاد الكتاب العرب فرع حلب ــ أنه " قــد يتوهّم المرء للوهلة الأولى أن الشعر العربي القديم قد احتفى بالقمر أشدّ الاحتفاء، وأنّ الشّعراء قد تغنّوا به، ومنحوه قصائد كثيرة، ومحضوه الحبّ والغزل، ولكن مراجعة سريعة للشّعر القديم تكشف عما هو خلاف ذلك".[١]

ويرى محبّك أنّ الشّعر العربيّ لم يتجاوز تكرار التشبيه بالقمر في أغراض شعريّة محــدّدة هي الغزل والرثاء والمديح، ويؤكّد أنّه لم يحظ بصورة جديدة أو بقصيدة خالصة.[٢]

في حين يرى حسن فتح الباب في دراسة بعنوان " صورة الهلال في الشّعر" أنّ السبب فــي كثرة ترديد اسم القمر وصفاته في الإبداع الشعري عبر مختلف العصور، ولدى كــل الــشعوب وعلى اختلاف اللغات، هو ارتباط القمر في إشراقه بوجه المرأة الجميلة، وإن كان يشبه أحيانًــا الرجل في أشعار المديح.[٣]

ويرى يحيى عبد الأمير شامي في كتابه " النجوم في الشّعر العربيّ حتى أواخــر العــصر الأمويّ أنّ الشّعراء العرب قديمًا ذكروا القمر كثيرًا، وتحدَّثوا إليه في أســمارهم، " واســتعاروا لمن يحبّون ويهوون من جماله جمالا، وألقوا عليه من عواطفهم ظلالا، لكنّهم قلّما فعلوا ذلك

---

(١) ماضية، بيانكا، نقلا عن أحمد زياد محبك، الموقف من القمر.. في الشعر العربي المعاصــر، جريــدة الجماهير، عدد ٢٠٠٨/٢/١٨م

(٢) نفسه

(٣) انظر، فتح الباب ، حسن ، صورة الهلال في الشعر، المجلة العربية، العددين ٢٨٣ ،٢٨٤، ٢٠٠٠م

على سبيل التقصّي والتفصيل، فلم يفردوا له قصائد ومقطوعات مستقلّة، بل عرضوا له لمامًا، وقصّروا عن سبر غوره، والاسترسال وراء خلقه، وبديع تكوينه كثيرًا. لا لشيء إلا لأنّ خيالهم في الجاهلية وعصر بني أميّة عموما كان يضيق عن استيعاب الأشياء جملة واحدة ، واستنفاد أجزائها استنفادًا كاملا، وإدراكها بملكة التخصص، وشمول التفكير، وعمق التجريد."(١)

وأرى أنّ هذه الآراء جميعها، وغيرها من الآراء الّتي ترى قصور الشعر العربي القديم عن مواكبة القمر، تَغْبِنُ القمر مكانته في الشّعر، وتغبن الشّعراء اهتمامهم به، بل وتسلبهم حضورًا قمريًا حافلا في شعرهم، فمن جهة أرى أنه من الغبن تقسيم الشّعر العربيّ عمومًا إلى قديم وحديث، ومن ثمّ النظر إلى الشّعر القديم على أنّه ذو سمات واحدة، ووضعه في إطار واحد، ونحن نعلم التفاوت الكبير في النظرة إلى الطبيعة مثلا بين العصرين الجاهليّ والعباسيّ وغيرهما.

" وصور القمر إذ ترتفع وتهبط عبر القصائد والعصور لا تحمل تفاوت الإبداع ومتغيرات الزمن فحسب، وإنما أيضًا اختلافات الثقافة وغنى الرؤية الإنسانية في نهاية المطاف"(٢).

وليس أدلّ على ذلك من الخصب الكبير الذي أثرى الشّعر العربي في العصر العباسيّ ببيئاته المختلفة، وثقافاته المتنوعة.

كما أن الحكم بقصر النظر إلى القمر في الشّعر القديم، وقصور الشعراء عن استيعاب الأشياء جملة واحدة، وعدم قدرتهم على سبر أغوار القمر ومعالجتها معالجة شموليّة، هي نظرة

---

(١) شامي، يحيى عبدالأمير : النجوم في الشعر العربي القديم(حتى أواخر العصر الأموي) ، ص ١٩٢
(٢) البازعي، سعد، أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر، مجلة القافلة، العدد٥٢، ص٩٤

تفتقر إلى دراسة مستقصية بين مظاهر الكون التي عالجها الشّعر القــديم، فبدراســة إحــصائية بسيطة أستطيع القول: إن الحضور القمريّ في الشّعر القديم لا يقل أهميّة وعددًا عن حضور أي من موجودات البيئة السماويّة التي يشاهدها الشاعر بأمِّ عينه، بل إن استحضار تلك البيئة كــان شموليًّا على امتداد المساحة الشعرية بصورة توازي استحضار موجودات البيئة الأرضيَّة، فالقمر في الأندلس والمغرب هو ذاته الذي يطل على أهل المشرق، في حين تختلف البيئة الصحراويّة عن الشجريّة والمائيّة.

وأما عدم عثورنا على مقطوعات وقصائد كاملة عن القمر، فهذا قد يكون واقعيًّا في العــصر الجاهليّ، لا لعدم اهتمام الشاعر الجاهلي بالقمر؛ بل لأنَّ القصيدة الجاهليَّة ذاتها لــم تكــن ذات موضوع واحد – فهي كما نعرف – لا تعالج موضوعًا واحدًا، كما أنهــا لــم تحفــل بوحــدة موضوعيّة أو عضويّة، بل كان البيت هو الوحدة الصغرى التي تُكَوِّن القصيدة، ألا ترانا نستشهد بأبيات من قصيدة واحدة على مواضيع مختلفة؟

على أنّنا نجد عددًا من المقطّعات والقصائد قد احتفت بالقمر فيما بعد، وبعضها لشعراء كبار سأدرس غير واحد منهم في الفصل الأخير، كما نجد في الشّعر الجاهليّ عددًا كبيرًا من الأبيات المتناثرة في شتّى القصائد، تدور حول القمر، وإن لم يكن مقصودًا لذاته، فلا أتوقع من شاعر أن يكتب قصيدة في مكوّنات القمر وأجزائه ومادته ، كما لا أطلب من شاعر أن يصف لي فرسه أو ناقته على أنّها مكوّنة من لحم ودم وعظم ، فما لهذا وجد الشعر، وبالتالي فلا غرو إذا اســتعار الشّعراء القمر للتشبيه ولرسم صور ممدوحيهم ومحبوباتهم، على أنني أختلف مع من يــرى أن الشّعر اقتصر في الحديث عن القمر على ذلك، وفي المبحثين الثاني والثالث من هذا الفصل ، ما

يثبت ذلك، فقد تجاوز الشّعراء ذلك إلى مراتب بعضها أعمق تصويرًا، وأشدّ غورًا ممّــا هــو مألوف.

من هنا؛ فإنّني أرى أنّ القمر كان في مقدّمة مظاهر الكون التي تداولها الشّعر العربيّ على مرِّ العصور، فقد حظي بمكانة كبيرة منذ العصر الجاهليّ، إذ لم يغب عن القصائد المختلفة فــي شتّى الأغراض، ولكن حضوره ذاك لم يكن في الأغلب محوريًّا بل جاء معــززًا لموقــف أو صورة أو حالة، وهو وإن لم تفرد له قصائد خاصّة، إلا أنّ حضوره كان شائعًا لدرجة يــستحق معها وقفة متأنيّة ودراسة مستوعبة.

المبحث الثاني:

القمر مشبّهًا

لم يكن القمر صورة جماليّة مجرّدة يستعيرها الشّعراء لوصف محبوباتهم، أو علوّ ممدوحيهم ورفعتهم، بل نجد كثيرًا من التشبيهات المقلوبة، التي كان فيها القمر بمسمّياته المختلفة مشبّهًا وليس مشبّهًا به، وهو إن دلَّ على شيء، فإنّما يدلّ على الحضور الحقيقيّ والفعليّ للقمر في الشعر العربيّ القديم، إذ إن المشبّه يعدُّ محور الحديث وصاحبه، فهو العمدة المقصود لذاته، وقد استعار له الشّعراء صورًا كثيرة تدلّ في معظمها على الرفعة والمكانة والقوَّة.

ولعلّ هذا التفرّد المهيب للقمر بين بقية النجوم والكواكب في وسط السّماء، هو الذي جعل كثيرًا من الشّعراء، يسمّونه بالملك، فهذا أحد الشّعراء يشبّه البدر بالملك المهيب الذي يجلس في روضة من الرياض، في حين أنَّ الثريَّا بزيِّها الجميل، وثوبها المزركش، تشبه أزهار النرجس التي يقدِّمها الزوَّار هديَّة لهذا الملك:

شَبَّهْتُ بدرَ سمائِها لمَّا دَنَتْ — منهُ الثُّرَيَّا في قميصٍ سُنْدُسِ

مَلِكًا مَهيبًا قاعدًا في رَوْضَةٍ — حَيَّاهُ بعضُ الزائرينَ بِنَرْجِسِ(١)

وليس البدر وحده من يشبه الملك، فأبو الفرج الوأواء، يشبِّه الهلال بالملك، والثريَّا بالإكليل، يوضع فوق رأس الملك، وهي صورة جماليّة من جهة، وذات دلالة معنويّة من جهة أخرى، إذ تدلّ على مكانة القمر – الملك بين الثريّا – الإكليل، يقول:

وكأنَّ الهلالَ تحتَ الثريّا — مَلِكٌ فوقَ رأسِهِ إكْليلُ(٢)

---

(١) البيتان في ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٦٣ وهما معزوان لسهل بن المرزبان

(٢) زاهر ، جمال ، شعر الوأواء الدمشقي، ص ٨١

ولمّا كان القمر هو الاسم الجامع لمختلف التسميات، فقد أسبغ عليه الأعشى صــفة الملــك القديم الهرم، الذي يلقي مقالد الحكم إذا ما دعاه الممدوح:

فَتًى لوْ يُلاقِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَها أَوْ القَمَرَ السَّاري لأَلْقَى المَقَالِدا[١]

وتبدو مكانة القمر عند الأعشى تفوق مكانة الشمس، وهو أمر لافت عند الــشعراء عمومــا، والجاهليّين خصوصًا، فالقمر ذكر والشمس أنثى، والقمر له حضور القوّة والرفعة والمنعة، فــي حين تحتجب الشّمس وراء قناعها، وإلقاء مقالد الحكم من قبل القمر يبوح بشيء من القداسة التي تؤطّر النظرة إلى الملك الحاكم بمسار النظرة إلى القمر المعبود ، التي لا بدّ أن نجد ظلالها في بواطن الشّعر، كما يبدو من بيت الأعشى.

ويرسم ابن المعتزّ صورة لهذا الملك، ومواكبه تسير من حوله، وهي صورة تتكرّر عند هذا الشاعر الذي تسحره مصابيح السماء بجماليّاتها المختلفة، فيكثر من التأمّل فيها، وفــي ســيّدها القمر :

قَمَرٌ بَدَا لَكَ مُشْرِقًا فِي لَيْلِـــــهِ حَسَرَ الدُّجى أَذْيَالَهُ عنْ ذَيْلِـــهِ

خَلَعَتْ عَلى الآفاقِ مِنْ أَنْــوارِهِ خِلَعَ البَياضِ فَأَوْمَضَتْ فِي لَيْلِــهِ

وَإِذَا تَقَدَّمَ فِي النُّجومِ حَسِبْتَــــهُ مَلِكًا تَسيرُ مَواكِبٌ مِنْ حَوْلِـــهِ[٢]

فالقمر في هذه الأبيات ملك يعمُّ بنوره الأرض، فيمحو الدجى، ويخلع العطايا المتمثّلة بالبياض على الآفاق، ومن ثمّ يتبدّى ملكًا لتلك المجموعات النجميّة التي تسير من حوله في كبد السّماء.

---

(١) سبق الحديث عن البيت في المبحث الخامس من الفصل الأول

(٢) الأبيات في ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٦٢ وهي لابن المعتز

وفي مقطوعة أخرى يسبغ ابن المعتزّ على البدر صفة الملك، فالبدر هو الملك المقبل يعلـوه التاج، والكلّ من حوله يحيّيه ويفدّيه، يقول:

قَـدْ تَوَلَّـى الليْـلُ عَنَّـا وَطَواهُ القُـرْبُ طَيَّـا

وكَـأَنَّ البَـدْرَ لَمَّـا لاحَ مِنْ تَحْتِ الثُّرَيّـا

مَلِـكٌ أقْبَـلَ بِالتـا جِ يُفَـدَّى وَيُحَـيَّـا[١]

وهذا أيضًا أبو الحسن الكرجي يرسم للهلال صورته الملكيّة، وقد تكلل التاج المرصَّع، مزدهيًا، مترفعًا على غيره:

كَأَنَّ الهلالَ المُستَنيرَ وَقَدْ بَدا ونَجْمُ الثُّرَيَّا واقِفٌ فَوْقَ هَالَتِـهْ

مليكٌ على أَعْلاهُ تاجٌ مُرَصَّعٌ ويَزْهى على مَنْ دونه بِجلالَتِهْ[٢]

وأمّا ابن وكيع فهو لا يرى في الهلال ملكًا ، بل يراه صولجانًا من الفضّة في يد الملك:

وَجَدَّ في أَثَرِ الجوْزاءِ يَطْلُبُها في الجَوِّ رَكْضَ هِلالٍ دائِمِ الطَلَبِ

كَصَوْلَجَانِ لُجَيْنٍ في يَدَيْ مَلِكٍ أَدْنَاهُ مِنْ كُرَةٍ صِيغَتْ مِنَ الذَهَبِ[٣]

ولكنّ شاعرًا آخر لا يراه صولجانًا من فضّة بل من الذهب:

أَمَا تَرَى الزّهْـرَةَ والـ ـهلالَ جَاءَا بالعَجَـبْ

كأُكْـرَةٍ منْ فضـةٍ و صولجـانٍ منْ ذَهَـبْ[٤]

ولكمال زينته، وجمال طلعته، شبَّهه الشّعراء بالعروس، فعبدالله المصلّي الكاتب، يرى في بدر التمام عروسًا، فهو سافر في غاية زينته وجماله، بينما تبدو النجوم من خلفه وهنّ منتقبات

---

(١) ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز، شرح يوسف فرحات، ص٧٤٦

(٢) انظر البيتين في، الصفدي، صلاح الدين خليل، رشف الزلال في وصف الهلال ، ص ١٧٤ وينسبان لأبي الحسن محمد بن عيسى الكرجي

(٣) البيتان في ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٥٣

(٤) الشريف العقيلي، ديوان الشريف العقيلي، ص٥٥

يخفين زينتهنّ:

كَشَــفَ البَدْرُ وجْهَــهُ لِتَمــامٍ فَوُجوهُ النُّجومِ مُسْتَتِــــراتِ

فَكَأَنَّ البَدْرَ التمامَ عَــــروسٌ وكَأَنَّ النُجومَ مُنْتَقِبَـــــاتِ[١]

والقمر بمسمّياته المختلفة، وإن كان يغلب عليه رسم التذكير في عيون الشّعراء، إلا أنّ تلك النظرة تبدّدت عند الكثيرين ولا سيّما المتأخّرين منهم، فشبّهوه بالمرأة الحسناء، على الرغم من مخاطبتهم له بلغة المذكّر، يقول الأكرم من بني هبيرة:

وكَأَنَّ هذا البَدْر حيْثُ تُظلِّـــــهُ سُحبٌ فَيَخْفَــى تارةً ويَــــؤُوبُ

حَسْنَاءُ تَبدو مِنْ خلالِ سُجُوفِها طَوْرًا وتَنْظُرُ نَحْوَها فتغيــــبُ[٢]

وهذا البدر بجماله المستدير، واكتماله الوضّاء، وإطلالته من بــين الــسّحب طــورًا ، واختفائه تحت سجفها طورًا آخر، جعل الشّعراء يبدعون صورًا شتّى في تشبيهه بالمرأة، ولكلّ نظرته الخاصّة في ذلك، يقول أحدهم:

كَأَنَّمَــــا البَدْر حينَ يَبدو لنـــــا ويَسْتَحْجِـــبُ السَّحابــــا

خَرِيدَةٌ مِنْ بَني هِــــلالٍ لاثَتْــهُ عنْ وجْهِهــا نِقَابــــــا[٣]

ويقول ابن عون الدين في الإطار ذاته:

إذا تَطَلَعَ هذا البَدْرُ منْ فُرَجِ الــ سَّحابِ وغارَتْ حَوْلَهُ الشُّهُبُ

تَخَالُهُ مِنْ رَقيقٍ مِنْ ملاءَتِـــــهِ خَرْقاءَ تُسْفِرُ أَحْيَانًا وتَنْتَقِبُ [٤]

---

(١) الأبيات في ابن منظور، نثار الأزهار في الليل والنهار، ص٦٢

(٢) نفسه، ص٦٤

(٣) نفسه ص٦٤

(٤) نفسه ص٦٤

فالأوّل يشبِّهه بخريدة هلاليّة تميط اللثام عن وجهها الجميل، والآخر يشبِّهه بــامرأة خرقــاء تسفر تارة وتنتقب أخرى، وهذا لا ينتقص من الجمال شيئًا فقد تكون الخرقاء خريدة أيضا.

على أن بعض الشّعراء يتّخذ من الهلال صورة حبيب مخاتل، فهذا هو الحــصكفي يــشبّه هلال الفطر الذي يَعِدُ بالظهور ولا يفي على الرغم من حرقة الانتظار لدى الصائمين، بصورة الحبيب الّذي يعد بالوصال ولكنّه لا يفي بذلك تاركًا محبّه في لوعة وحرقة:

تَبَاشَــرُوا بِهِلالِ الفِطْرِ حينَ بــَدَا ... ومَا أقَامَ سِوى أنْ لاحَ ثُمَّ غَدَا

كَالْحِبِّ واعَدَ وَصْلا وَهْوَ مُحْتَجِبٌ ... فحينَ بانَ تَقاضوهُ فَقَالَ : غَدَا[١]

ومن غريب التشبيهات ما جاء به أحد الشّعراء الذي يشبّه اسوداد الهلال وانجــلاءَه حتــى يصبح بدرًا منيرًا، بنقابٍ أسودَ لامرأة تركيَّة تكشف منه قليلا قليلا إلى أن يتبدّى جمال وجهها:

أَقُولُ لِذَا القَمَرِ الأَسْحَــمِ المُشِــفِّ ... مِنَ الشَّمْسِ يمتازُ نُــــــورا

سَوادُكَ من حَيْثُ تُمْسِي هِــــلالا ... إلى حَيْثُ تَكْمُلُ بَدْرًا مُنيــــرا

نِقـــــابٌ لِــتُرْكِيَّــــةٍ أَسْـــــوَدُ ... تنَزّلُ مِنْهُ يَسيرا يَسيــــــرا[٢]

وتشبيه البدر بالدرهم شائع عند الشّعراء، لا لاستدارته فحسب ، بل للمعانه أيضًا، وهنا يكون الجامع في الشّكل واللون، فالبدر مستدير ، وفضّي يميل إلى البياض لامع في الأغلب، وكــذلك الدرهم، وهنا لا تكتمل الصورة إلا من خلال الوسط الذي يكون فيه البدر وهو السّماء الزرقاء، لذا كان لا بدّ لاكتمال الصورة من إيجاد وسط مناسب للدرهم، وهو وســط أزرق بالــضرورة، يقول أحد الشّعراء:

---

(١) السابق ص٥٣

(٢) نفسه ص٦٢

وَالْبَدْرُ فِي كَبِدِ السَّماءِ كَـــــدُرَّةٍ مُلْقَــــى على دِيباجَةٍ زَرْقَاءَ[١]

ويقول أبو العلاء في وصف خيل ممدوحه:

ومُزيرِها الغورَ الذي لو سلَّمتْ ريحٌ على أَرْجائِهِ لمْ تسلَـــمِ

لا تستبينُ الشهْبُ فيهِ تنائيَـــا وَيَلُوحُ فيهِ البَدْرُ مِثْلَ الدرهمِ[٢]

وكان قد سبقه إلى ذلك ابن المعتزّ، والوأواء الدمشقي(ت ٣٨٥هـ) الذي يقول:

منْ قَمَرٍ صَارَ في تَنَصُّفِـــــهِ كأنَّهُ نِصفُ دِرْهمٍ قُطِعَـــا[٣]

وإذا كان اللون الفضّي هو الغالب على صناعة الدرهم، وإن وجدت دراهــم ذهبيّــة، إلا أنّ اللون الأبيض هو الأكثر شيوعًا في نعوت الشّعراء للبدر، وقد جمعوا بين ألــوان ثلاثــة فــي أوصافهم تلك، فمرة نجد الأبيض، وأخرى نجد الفضّي، وثالثة نجد الزهريّ المشوب بــالحمرة أحيانًا، وكلّها ألوان يجسِّمها الشّعراء بالفضّة والذهب والأزهار والورد الأبيض، وكلّ ذلك لا بدّ له من وسطه الذي يليق به، فهذا الشّريف العقيلي يقارب بين صورة البدر المتلألئ فــي وســط السّماء الزرقاء الّتي تزيّنها المجموعات النجميّة، وصورة الوردة البيضاء التي تحيط بها رياض البنفسج، ولا ينسى الشّاعر هنا أن يضفي بعدًا جماليًا آخر على الصورة، وهو استعارة روافــد إنسانيّة تدلّ على المكانة والسعادة في آن، يقول:

والبدرُ في كَبدِ السّماءِ كَوَرْدَةٍ بيضاءَ تضحكُ في رياضِ بَنَفْسَجِ[٤]

---

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، ج٢، ص١٨
(٢) المعري، أبو العلاء ، سقط الزند، ص ٨٥
(٣) الدمشقي ، الوأواء، ديوانه تحقيق سامي الدهان، ص ١٣٩
(٤) الشريف العقيلي ديوان الشريف العقيلي، تحقيق زكي المحاسني ، ص٩٠

فالمكان هو كبد السماء، ودأبت العرب على التعامل مع الكبد مادّة وقيمة، فكان له الحضور الشعريّ على مرِّ العصور، وهو هنا وإن قصد وسط السّماء، إلا أنّ استعماله لكلمة الكبد يدلّ على قيمة خاصة تعدل عند العربيّ في الحبّ والإيثار قيمة القلب، والسعادة في استعارته الضحك للوردة ممّا يضفي مادة وقيمة أيضًا، فالمادّة في اللون الأبيض الناجم عن الضحك ببدُوِّ الأسنان، والقيمة بالبهجة والسّعادة التي يعبّر عنها، وأمّا رياض البنفسج فهي السماء الزرقاء بنجومها المتلألئة.

وفي إطار اللون أيضًا تكون الفضّة الذائبة بلونها اللامع الفضّي المائل إلى البياض أقرب الألوان إلى القمر بعد الأبيض، فإذا شبَّه الشّعراء البدر بالدرهم والوردة، فقد شبّهوا الهلال النحيل بشعيرة الخنجر، يقول كشاجم الرملي(ت٣٦٠هـ):

أَهْـلا وسَهْـلا بالهِـلا ... لِ بـدا لِعَيْـنِ المُبْصِـرِ

كَشُعَيْـرةٍ مِـنْ فِضَّـةٍ ... قَـدْ رُكِّبَـتْ في خِنْجَرِ(١)

وإذا كانت شعيرة الفضة قد رُكِّبت في الخنجر عند الرمليّ ، فلربَّما أخذ ذلك عن ابن المعتز الذي يشبِّهه بشعيرة السكين:

قُمْ يا غُلامُ فهاتِها في كَأْسِها ... كَالْجُلَّنَارَةِ في جَنَى نِسْرِينِ

أَوَ مَا رَأَيْتَ هِلالَ شَهْرِكَ قَدْ بَدَا ... في الأُفْقِ مِثل شُعَيْرَةِ السِّكِين(٢)

وعلى الرّغم من أن مسمّيات القمر متعدّدة بتعدّد منازله وحالاته، إلا أنّ تلك التسميات تنوب عن بعضها كثيرًا عند الشّعراء، فقد يذكر الشّاعر القمر ويقصد البدر أوالهلال، وقد يذكر الهلال ويقصد به القمر البدر، ولا غرابة إذًا؛ إذا شبّه الهلال بالسّوار أو دملوج الفضّة ،

---

(١) ابن منظور، نثار الأزهار ص٥٢

(٢) نفسه ص٥٢

كما يصفه الخالدي:

وَهِلال يَلوحُ فِي سَاعِدِ الغَرْ ب كَدُمْلُوجِ فِضَّةٍ أوْ سِوَارِ[١]

والهلال خَلخال في ساق خريدة كما يصوّره لنا كشاجم الرمليّ(ت٣٦٠هـ) :

وَالأُفْقُ أَبْيَضُ وَالهِلالُ كَأَنَّهُ خِلْخَالُ سَاقِ خَرِيدَةٍ مَفْصُومُ[٢]

وهذه الاستدارة هي الّتي حدت بأحد الشعراء إلى تشبيهه بالقيد، ولكنْ أيّ قيد ؟ إنّه قيد من الفضّة، يكبّل الصائمين، فعندما ينفضُّ عنهم يفرحون بمغادرتهم شهر الصيام:

قَدْ جَاءَ شَهْرُ السُّرورِ شَوَّالُ وَغَالَ شَهْرَ الصِّيامِ مُغْتَالُ

أَمَا رَأَيْتَ الهِلالَ يَرْمُقُهُ قَومٌ لَهُمْ إِنْ رَأَوْهُ إهْلالُ

كأَنَّهُ قَيْدُ فِضَّةٍ حَرِجٌ فُضَّ عَنِ الصَّائِمينَ فاختَالوا[٣]

ولعلّ مفهوم الحصاد الذي يؤطِّر نهاية الموسم، هو ما دفع بعض الشّعراء إلى تشبيه الهلال بالمنجل، فهو إضافة إلى توافق الصورة، يقوم بحصاد شهر الصيام، والحصاد هنا ليس ماديًّا، كما أنّه ليس للملكيّة، أو الادّخار كما هو الحال في مواسم الحصاد المعروفة، بل هو هنا بهدف الخلاص ممّا هو قائم، فهذا الشّهر الذي نمت أيّامه، حتّى اكتمل ، فاستوى مؤذنًا بانتهائه، لا بدّ له من منجل لإتمام عملية الحصاد، يقول الطغرائيّ (ت٥١٥هـ):

قُوموا إلى لذّاتِكمْ يا نِيامْ وَنَبِّهوا العودَ وصفُّوا المُدامْ

هذا هلالُ الفِطرِ قدْ جاءَنا بِمِنْجَلٍ يَحْصُدُ شهرَ الصِّيامْ[٤]

---

(١) ابن منظور، نثار الأزهار ص٥٣

(٢) كشاجم الرملي، محمود بن الحسين، ديوان كشاجم،تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، ١٩٩٧م، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ص٣٥١

(٣) الأبيات في ابن منظور، نثار الأزهار ص٥٣

(٤) الطغرائي ، أبو إسماعيل الحسين بن علي، ديوان الطغرائي، تحقيق على جواد الطاهر ويحيى الجبوري، د ط ، ١٩٧٦م ، وزارة الإعلام، العراق، ص٣٦٤

ولكن ذلك المنجل عند ابن النبيه لا يحصد شهر الصيام، بل يزيل الظلام، ويقوم بلونـــه المائل إلى الصفرة بحصد النرجس الأبيض:

أُنْظُــرْ إلى حُسْنِ هِلالٍ بَدَا   يذهبُ مِن أَنْوارِهِ الحِنْدِسَــــــا

كَمِنْجَلٍ قَدْ صيغَ مِنْ عَسْجَدٍ   يَحْصُدُ مِنْ شُهْبِ الدجى نَرْجِسَا[١]

فهو يقدّم للهلال صورة جماليّة، إذ يزيل الظلام بنوره، ويشبه المنجل المـــصنوع مـــن الذهب، ويحصد من الشّهب نرجسًا، وقد سبقه إلى هذا ابن المعتزّ كما سيأتي في الفصل الأخير من هذه الرسالة.

وإذا كان المنجل صورة للهلال، وهو أداة للحصاد وجني المحاصيل، فإن الفخّ يصلح أن يكون صورة له أيضا، فمن جهة الشّكل كلاهما مقوَّس، ومن جهة العمل كلّ ينقضّ على فريسته، يقول ابن المعتزّ واصفا هلال ابن ليلتين:

كَأَنَّــهُ ابْــنُ لَيْلَتَيْــهِ   مِنْ سُهْدِهِ الدائمِ القَديمْ

كَأَنَّهُ في السَّماءِ فَخٌّ   يَنْتَظِرُ الصَّيْدَ للنجومْ[٢]

وتشبيه الهلال بالقوس، شائع لدى الشعراء ، وقد أبدع بعضهم في تصويره بقوس يتأهّب لإطلاق سهامه باتجاه طرائده، يقول أبو عاصم البصري في الهلال السائر إثر نجـــوم الثريّـــا، مشبِّها له بالقوس بيد رامٍ يرسله إثر طائر:

رَأَيْتُ الهلالَ وقدْ خُلِقَتْ   نُجُومُ الثُّريَّا لِكي تَلْحَقَهْ

فَشَبَّهْتُهُ وهْوَ في إثْرِها   وبيْنَهُما الزهرةُ المُشْرِقَةْ

---

(١) البيتان في نثار الأزهار لابن منظور ص٥٣ وهما لابن النبيه، ومأخوذان من ابن المعتز انظر ابن المعتز في الفصل الرابع

(٢) نفسه ص ٥٢ وهما لابن المعتز

بِقَوْسٍ لِرامٍ رَأى طائِـــــرًا   فأرسلَ في إِثْرِهِ بُنْدُقَـــــهْ[١]

وتشبيه الهلال بمعدّات الصيد والحرب كثير عند الشّعراء، وربّمــا كــان لاستحــضار صورة قرني الثور الوحشيّ امتداد لذلك ، فالهلال محارب في الليل، وهو السنان المجرّب ،يقول المعرّي عند حديثه عن خيل الممدوح:

كأنَّ الليْلَ حارَبَها ففيـــــهِ   هلالٌ مِثْل ما انْعَطَفَ السِّنــانُ[٢]

ومثل هذا التشبيه يتكرر عند المعرّي، ففي قصيدة أخرى يقول:

كأنَّ هلالا لاحَ للطعنِ فيهــمُ   حناه الرّدى فهو السّنان المُجرَّبُ[٣]

فالهلال هنا سنان مجرّب في ساحات القتال، وقد انثنى وبانت حناياه من شدة الطعن في ميدان الموت.

ومن السّنان إلى التّرس، وإذا كان قد شُبِّه بأدوات الطعن، فقد شبَّهه آخرون بالترس الذي يقي من الضربات، فالشريف العقيليّ يشبهه بمقبض الترس المصنوع من الذهب:

وَذِي دَلالٍ زارَنِــــــــي   مِنْ غيرِ وعْــدٍ يُرْتَقَـــبْ

في ليلةٍ خَلَسْتُهــــــا   منْ بينِ أَنيابِ النُّـــوَبْ

كأَنَّــمــا هلالــهــــا   مِقْبَضُ تُرْسٍ منْ ذَهَـــبْ[٤]

وهلال الفطر عند أبي الفرج الوأواء يشبه غرار السّيف الذي يبدو من أسفل الغمــد، ولا أرى شبهًا ظاهريًّا بينهما، إلا إذا كان في اللون أو اللمعان، مع أنّ ما يبوح به الشبه هنا هو الدقّة:

ولاحَ هِلالُ الفِطْرِ نضْوًا كَأَنَّهُ   بُدُوُّ غرارِ السَّيفِ منْ أسْفَلِ الغِمْدِ[٥]

---

(١) الأبيات في نثار الأزهار لابن منظور ص٥٢

(٢) المعري ، سقط الزند ص ٦٩

(٣) المعري، اللزوميات ، ج١ ، ص٦٦

(٤) الأبيات في نثار الأزهار لابن منظور ص٥٤

(٥) نفسه ص٥٤، معزو لأبي الفرج الوأواء

وأما القاضي أبو عبدالله محمد بن النعمان فهو يشبّهه بزناد من ذهب:

أُنْظُرْ إِلَى حُسْنِ ذَا الهِلالِ وَقَدْ مَضَى لِسَبْعٍ مَضَيْنَ مِنْ عُمُـرِهْ

مثل زِنادٍ قَدْ صِيغَ مِنْ ذَهَـبٍ يَقْدَحُ بِالرائعاتِ مِنْ شَـرَرِهْ(١)

ويأتي عبد المحسن الصوري لا ليشبّهه بالزناد بل بفتر الزند:

فاسْقنِيها مَلأَى فقَدْ فَضَحَ اللـ ـيلَ هِلالٌ كَأَنَّهُ فَتْرُ زَنْدِ

وَالثُّرَيَّا خَفَاقَةٌ بِجَنَاحِ الغَـ ـرْبِ تَهوي كَأَنَّها رأسُ فَهْدِ(٢)

وتتنوَّع الصور التي يرسمها الشّعراء للقمر، في مقاربات تعكس نظـراتهم الخاصّـة، وحالاتهم العاطفيّة والنفسيّة، فهذا السري الرفّاء(ت٣٦٦هـ) يشبّه الهلال بشطر الطوق:

وقَدْ سلَّتْ جيوشُ الفِطرِ فيهِ على شهرِ الصيامِ سيوفَ باسِ

ولاحَ لنا الهلالُ كشطْرِ طَوْقٍ على لَبَّاتِ زَرْقاءِ اللِّبـاسِ(٣)

ولما كان تقويس الهلال مع وجود نكاتٍ سوداءَ في تجويفه يشبه كتابة حرف النون، فقد وجدنا عددًا من الشّعراء يشبِّهونه بذلك الحرف، يقول المعرّي:

ولاحَ هلالٌ مثلَ نونٍ أجادَها بُجاريّ النُّضارِ الكاتبُ بنُ هلالِ(٤)

وتلك النون عند السّري الرفّاء لم تكتب بخطّ قلم ، وإنّما هي نون من الفـضّة الذائبـة، والّتي تبدو أكثر جمالا لوجودها في صحيفة زرقاء، وهو هنا يُحمِّل كلا من الهـلال والـسماء الدلالات اللونية:

كَـأَنَّ الهِلالَ نُونُ لُجَيْـنٍ غَرِقَـتْ فِي صَحيفَةٍ زَرْقاءَ(٥)

---

(١) انظر الأبيات في نثار الأزهار لابن منظور ص٥٩

(٢) نفسه ص ٥٤

(٣) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، ط١،١٩٩٦م، دار صادر، بيروت، ص ٢٥٧

(٤) المعري ، سقط الزند، ص ٢٤٧

(٥) السري الرفاء، ديوانه ، ص ١٣

وفي صورة جماليّة ينسجها ابن المعتزّ من مجموعة من المعطيات الأرضيّة والسماويّة معًـــا، نجد الهلال وقد أصبح نصف سوار ، والثريّا تطلب هذا السوار:

وكأنَّ المجـــــرَّ جدولُ مـــــاءٍ   نوّرَ الأقحوانُ في جانبيهِ

وكأنَّ الهـــــلالَ نصفُ سوارٍ   والثريا كفٌّ تشيرُ إليهِ(١)

وفي صورة للبدر في حال كسوفه، يرسم أبو سعيد بن نصير جامَ لجينٍ أبيضَ نظيفًـــا، وقـــد وُضع في جوفه طاقة من البنفسج المقطوف حديثًا:

كَأَنَّمَا البَدْرُ بِهِ الْخُسُوفُ   جَامُ لُجَيْنٍ أَبْيَضٌ نَظِيفُ

فِي نِصْفِهِ بَنَفْسَجٌ قَطِيفُ(٢)

ويشبّهه كذلك الشريف العقيلي بجام اللجين:

وَقَدْ بَرَزَ الْبَدْرُ المُنِيرُ وَوَجْهُهُ   كَجَامِ لُجَيْنٍ فِيهِ آثَارُ عَنْبَرِ(٣)

ومن الذين شبَّهوه بالجام أيضًا ظافر الحداد ، ولكنه هذه المرّة جام من البلّور، كما شبّهه بالدرهم فوق الدينار:

أَمَا رَأَيْتَ هِلالَ العِيدِ حِينَ بَدَا   للعَيْنِ مِنْهُ بَقَايَا جُـــرْمِ دَائِـــــرِهِ

كَحَرْفِ جَامٍ مِنَ الْبَلُّورِ قَابَلَـــهُ   ضوْءٌ وَأَخْفَى الدجَى إِشْرَاقَ سَائِرِهِ

أَوْ دِرْهَمٍ فَوْقَ دينارٍ تَجَلَّـــــهُ   عُلوًا فَضَاقَ عَنِ اسْتِيعابِ آخِرِهِ(٤)

وبعضهم يشبّهه بالمرآة، ولكنها هنا ليست من اللجين، وإنما من التّبر، يقول العسكريّ:

وكـــأنَّ الهِلالَ مِرآةُ تِبْـــــرٍ   تَنْجَلـــي كلَّ ليلةٍ إصْبَعَيْــــــنِ(٥)

---

(١) ابن المعتز، ديوان ابن المعتز ، ص٤٧١

(٢) ابن منظور، نثار الأزهار، ص٦٥

(٣) نفسه ص٦٣

(٤) نفسه ص ٥٤

(٥) العسكري، شعر أبي هلال العسكري، ص١٦٤

ومن أغرب الصّور الّتي رسمها الشّعراء للهلال هي تشبيهه بقلامة الظُّفر:

كَأَنَّ ابنَ مُزْنَتِـــها جَانِــــحًا فَسيطٌ لدى الأُفْقِ مِنْ خِنْصَرِ(١)

وجاء بعده ابن المعتز فقال:

ولاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كادَ يَفْضَحُنا مِثْل القُلامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ(٢)

ثم جاء المعري فقال:

سَبَّــحَ اللهَ طَالِعٌ مُستَنيــــرٌ وهلالٌ مِثل القُلامَةِ نَاحِــــلُ(٣)

وإذا كان بعضهم شبهه بقلامة الظفر، فإن آخرين شبهوه بالمخلب،يقول المعري:

وإنّ زمانًا فجرُه مثلُ سيفِهِ هلالُ دجاهُ من مخالبِهِ الحُجْنِ(٤)

" فالفجر كالسّيف، وأمّا الهلال المعقوف المعوجّ فليس إلا مخلبًا من مخالب الزمان التي ينشبها في أبدان فرائسه التي حان أجل حتفها. وفي اختيار الفجر الذي يرمز إلى النهار، والهلال الذي يرمز إلى الليل إشارة موحية بديمومة الموت التي لا يخلو منها زمان ليلا كان أم نهارًا."(٥)

وقد سبق إلى هذا المعنى ابن وكيع التنيسي(ت٣٩٣هـ) بقوله:

وقدْ بَدا ضَوْءُ هِلالٍ أَحْدَبِ يلوحُ في الجَوِّ كَقرْنَيْ عَقْرَبِ

كَمِنْسَرٍ مِنْ طائِرِ أوْ مِخْلَبِ(٦)

---

(١) ابن قميئة، عمرو (ت٨٥ق.هـ) ، ديوانه، تحقيق حسن الصيرفي، القاهرة، ط معهد المخطوطات، ١٩٦٥، ص ١٩٣ ، وابن مزنتها: الهلال، والفسيط قلامة الظفر

(٢) ابن ظافر، علي بن ظافر المصري، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق زغلول سلام ومصطفى الجويني، ١٩٨٣، دار المعارف ، القاهرة، ص ١٦

(٣) المعري، أبو العلاء، اللزوميات ج ٢، ص٢٦٣

(٤) نفسه ج ٢، ص٣٧٥ والحجن العوج

(٥) الفهيد، جاسم سليمان حمد ،التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء، ص٢٧

(٦) ابن ظافر،علي بن ظافر المصري، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، ص ١٧ والمنسر منقار الطائر.

كما أسبغوا عليه صورا إنسانيّة، فها أحد الشّعراء يشبّه الهلال بأذن امرأة عُلِّق فيها قرط من النجم، ولا عجب إذا كان الهلال أذنًا، في أن يكون النجم قرطًا:

كَأَنَّمَا النَّجْمُ قُرْطٌ صِيغَ منْ ورَقٍ   مُعَلَّقٌ من هلالِ الأُفْقِ في أُذُنِ(١)

وهذا شاعر يشبّهه تارة بالإنسان، وتارة أخرى بطوق من ذهب في جيد إنسان يلبس حلَّة زرقاء:

هذا هلالُ الأُفْقِ يُشْرِقُ ضاحِكًا   يَحْكيكَ في نورٍ وَحُسْنِ بَهاءِ

فكأنَّهُ طوقٌ منَ الذهَبِ ارْتدى   في جيدِ لابِسِ حُلَّةٍ زَرْقاءِ(٢)

وأما الشريف الموسوي فيرسم للبدر مجموعة من الصور المتداخلة، بأبعاد جماليّة متنوّعة:

خُذْ صِفَاتِ البَدْرِ المنيرِ إذا ما   قارَنَ الشَّمْسَ في احْتِراقٍ وَشَيْنِ

صارَ تحتَ الشُّعاعِ سِرًّا ففيه   النورُ منها في عَرْضِ أُنْمُلَتينِ

مثل ياقوتَةٍ بِكَفِّ فتاةٍ   تحتَها نصف حلْقَةٍ من لُجَيْنِ(٣)

وهذا شاعر آخر يشبّهه بغدير ماء وسط حديقة غنّاء:

والبَدرُ في المرآةِ كالألاءِ   حليتُها كواكبُ الجوزاءِ

كأنَّهُ في كَبِدِ السَّماءِ   حديقَةٌ فيها غديرُ ماءِ(٤)

وفي الإطار ذاته ، يقول السلاميّ:

نبَّهْتُ نُدْمَاني وقَدْ   عَبَرَتْ بنَا الشّعرى العَبُورْ

والبدرُ في أُفُقِ السَّمَاءِ   كَرَوْضَةٍ فيها غَديرْ(٥)

---

(١) ابن منظور ، نثار الأزهار في الليل والنهار ص٥٩

(٢) نفسه ص٦٤

(٣) نفسه ص٦٣

(٤) نفسه ص٦٢

(٥) نفسه ص٦٢

وتشبيه القمر بالزورق مشهورٌ عند ابن المعتزّ كما سيأتي في الفصل الأخير من الرسالة، وهو تشبيه أكثر منه الشّعراء، وإن لم يفق أحد منهم ابن المعتز في ذلك، يقول المرزبانيّ:

والبدرُ في كَبِدِ السَّماءِ قَدْ انْطَوَتْ   طَرَفاهُ حتَّى عادَ مثل الزورَقِ

وتراهُ مِنْ تحتِ المحاقِ كأنَّما   غرقَ الجميعُ وبعضُهُ لمْ يَغْرَقِ(١)

ويبدو أنّ المرزبانيّ لم يقصد المحاق هنا ، وإنما قصد الكسوف، فالمحاق لا يكون في حالة كون القمر بدرًا، لأنّ البدر يعني كمال الاستدارة، والمحاق كمال الغياب أو شبهه، وهذا شائع في الشّعر، فنحن لا ننتظر من الشّعراء موافاتنا بحقائق التكوين القمريّ ومنازله وتحوّلاته الحقيقيّة، فهذا شأن المنجّمين وعلماء الفلك، لذا لا غرو إنْ وجدنا الشاعر يستخدم مسمّيات القمر حسب رؤيته الخاصّة.

ومن الصور الغريبة التي أسبغها الشّعراء على القمر هي تشبيهه بوجه معشوق أدلّ على عَشّاقه ، فابتلاه الله بأن كسا وجهه شَعرًا، وهي صورة تنطق بالابتلاء باستلاب الجمال:

انظرْ إلى البَدرِ في الكُسوفِ بَدا   مُسْتَسلما لقضاءِ اللهِ والقَدَرِ

كأنَّهُ وَجْهُ معشوقٍ أَدَلَّ على   عشاقِهِ فابتلاهُ اللهُ بالشَّعَرِ(٢)

وهذا شاعر آخر يشبه البدر بالمرآة التي اعتلتها أنفاس العذارى، فشكلت عليها طبقة من البخار تحجب انعكاس الصورة:

البدرُ كَالمرآةِ غيَّرَ صَقْلَها   عَبَثُ العَذارَى فيهِ بالأَنْفاسِ

الليلُ مُلْتَبسٌ بِضَوْءِ صباحِهِ   مثلِ التباسِ النقشِ بالقِرْطاسِ(٣)

---

(١) السابق ص٦٤

(٢) نفسه، ص ٦٦

(٣) نفسه ، ص ٦٦

ويأتي شاعر آخر ليشبّه الهلال بحاجب العين:

قـمْ هاتِها ورديّـةً ذهبيّـةً تبدو فتحسبها عقيقا ذابـا

أوَ ما ترى حسْنَ الهلالِ كأنَّهُ لمَّا تبَدَّى ، حاجبٌ قد شابا(١)

وهو أيضًا يشبه الخوذة المصنوعة من الفضة :

والبدرُ أولُ ما بدا مُتَلَثِّمًـا يُبـدي الضياءَ لنا بِخَدٍّ مُسْفِرِ

فكَأَنَّما هُوَ خوذةٌ منْ فضَّـةٍ قَدْ رُكِّبَتْ في هامَةٍ منْ عنْبَرِ(٢)

هذه بعض الصّور التي رسمها الشّعراء قديما للقمر، إذ كان مقصودًا لذاته ولم يأت عرضًا، بل توالى وصف جماله الطبيعيّ بربطه بصورٍ ونظائرَ أخرى، وتلك الصور قد لا تشبهه على وجه الحقيقة ، ولكنّ جماله الأخَّاذ أحيانًا ، وتحولاته، ومنزلته بين النجوم ، فضلا عن نظرة الشّاعر الخاصّة هي الّتي جعلت علاقة المشابهة قائمة على نحو ما.

ومن اللافت أيضًا، أنّ العربيّ كان على اتصال مباشر بمصابيح السّماء جميعها، وهو ما دعا الشّعراء غالبًا إلى مقارنة القمر بالنجوم والكواكب الأخرى، ولكنّها كانت رافدًا لجماله، وعرشًا لملكه، فكان دائمًا في صورة الملك، وتلك النجوم والكواكب لا تعدو كونها جنودًا له، أو جواري تقوم على خدمته.

وأمّا عندما وصفه بموادّ أرضيّة فقد كان الغدير المليء بماء سلسلٍ عذب صافٍ في حدائق غنّاء مليئة بالأزهار الملوّنة، ووصف بالفضّة الذائبة، والذهب الخالص، والخدّ الجميل ، والمرأة الحسناء.

---

(١) الشريف العقيلي، ديوان الشريف العقيلي، تحقيق زكي المحاسني، ص٥٥

(٢) زاهر، جمال، شعر الوأواء الدمشقي، دراسة فنية ص٤٠

وعند النظر إلى تحولاته المختلفة، شبّهوه بالسّوار والخاتم والمنجل وحزّة البطيخ وقلامة الظفر وحاجب العين والشَّعرة والمرآة، فضلا عن عدد الحرب فقد شبهوه بمقبض الترس، وفتر الزند، ونصل السيف وغيرها.

وأما عند النظر إلى دلالته اللونيّة، فقد رأينا كيف أنّ البياض والوضوح هي سمة لونيّة ثابتة للقمر في استدارته، أو تحولاته المختلفة، وهذا البياض يكون أظهر في الوسطين الأسود والأزرق، وحتّى عند تخيّر اللون الفضّي ، وهو لون الفضّة الذائبة، وهو يميل إلى الوضوح واللمعان، وكذا عند تخيّر اللون الزهريّ ، إذ كثيرًا ما يوصف باللون الزاهر ، وهي ألوان تضفي مزيدًا من الجمال في الوجود الكلي لحضور القمر في الشّعر العربي.

وهذه الصور التي رسمها الشعراء للقمر تبين أن القمر كان محورًا مهمًّا لدى الشاعر العربيّ في مسيرة الشّعر الطويلة، وهي وإن جاءت معظمها في العصور المتتابعة إلا أنّ ذلك لا ينفي الحضور الفعليّ للصورة القمريّة في الشّعر القديم عمومًا.

المبحث الثالث

القمر مشبها به

إنّ التناغم الّذي رأيناه في المبحث السابق بين الشّاعر والقمر، وتلك العلاقة الدافئـــة حينًـــا والباردة حينًا، جعلا من هذا الكائن السّماويّ صورة يسقطها الشّعراء على الموجودات من حولهم في محاولة لاستجلاء صورته، وذلك بتقريب تلك الصّورة إلى عالمهم القريب، فكان حـضوره قائمًا بذاته، ومقصودًا لغايته، فاحتلّ في قطبي التشبيه مكانة المشبّه.

ولكنّه لم يقتصر على هذا الدور، ففي " عصور الشعر العربيّ المختلفة تكرّر القمـــر فـــي صور شتّى يمكن أن تكون شأن الشّمس أو البحر أو غيرهما من عناصـــر الطبيعـــة والكـــون المحيط، بل وصور أشياء لا تحصى غير هذه مِسبارا لتطوّر الرؤية الشعريّة من ناحية ولقوتها وضعفها من ناحية أخرى "[(١)] فكان القمر حاضرًا بصفاته المتعارف عليهـــا ثقافيًـــا واجتماعيًـــا وبيئيًا.

فمن ناحية يحظى القمر بالرفعة والمكانة العالية، ويجود على النـــاس بنـــوره ، فيجلـــو الظلام ، ويتفرّد بين الكائنات السماويّة كما هو حال الممدوح عند الشعراء، ومن ناحية أخـــرى يطلّ على الناس بوجهه الجميل، واستدارته الوضاءة ، ونوره المتلألئ ، ولونه الأبيض، وأُنسه الخلاب، وهو في ذلك صورة جميلة تعكس صورة المحبوبة لدى الـــشّعراء، وصـــورة المـــرأة المتغزل بها عمومًا، وهو أيضًا يمرّ بأطوار مختلفة، فيبدأ صغيرًا، ثم ينمو ليصل إلى مرحلـــة الشباب، فالكهولة ، فالموت، مما جعل منه مقاربًا لحالات حياة الناس، ومما جعل مـــن غيابـــه تحديدًا صورة لذلك المرثيّ، الّذي واراه الثرى، بعد أن كان ذا مكانة في الحياة.

---

(١) البازعي، سعد، أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر، مجلة القافلة، ص ٩٤

ومن هنا كان المدح والغزل والرثاء أبرز الأغراض الشعريّة التي كان فيها القمر محــورًا للمشبّه به، على أنّ هذا لا يعني غيابه في الأغراض الأخرى، فهو يحظى بحضور كبيــر فــي مختلف الأغراض، ولكن الشّعر العربيّ ذاته مرَّ بمراحل من عدم الاختصاص جعلت من كثيــر من قصائده حدائق متنوعة الأشجار، فالقصيدة الواحدة، تمرّ بعدّة أغراض شعرية، لتصل إلــى الغرض الرئيسي المقصود.

وسأقف في هذا المبحث على أبرز الأغراض والمضامين الشعريّة ، الّتي جعلــت مــن القمر مشبّهًا به، لا من حيث محور القصيدة أو غرضها ككلّ، ولكن من حيث البيت أو الأبيات الّتي جاء التشبيه بالقمر بأسمائه المختلفة في سياقاتها.

أ) المـــــــدح

حظي القمر بمكانة رفيعة لدى العربيّ، فهو من جهة عالي المكانة ، يتسامى في مقامـــه الشاهق، متفردًا بين النجوم والكواكب، لا يؤثِّر في مكانته قدح، ولا يرقى إلـــى هامتـــه نجـــم، ينتظره الناس في الحِلّ والسّفر، ممّا جعله صورة للمدوح الذي تشدّ الرحال إليه، ومن ثمّ المقـــام عنده لما يتمتّع به من شهرة ورفعة ومكانة وعطاء.

ومن جهة أخرى يعمّ الناس بالنور، وينعم عليهم بالطمأنينة فيصيبهم الخير، فيكون مثالا لكرم الممدوح وعطائه، فضلا عن الوسامة الّتي تتجلّى في استدارته، وإنارته، مما يجعل منـــه سمة جماليّة للممدوح أيضًا، يرسمها الشّاعر ، ويلوّنها بأشعّة القمر، بالكيفية الّتي يريد.

وربّما كان للمعتقدات الدينية والأسطوريّة للقمر دور غير مباشر في التقريب بين صورة الممدوح وصورة القمر، إذ "إن بنية القمر هي نفسها بنية البطل الحضاري والإنسان الجماليّ من حيث هو وجود للقيمة. وكل ما حدث هنا هو ذلك التحوّل في عناصر البنية من نسقها الدينيّ إلى نسق جماليّ شعريّ".(١)

وهناك ما يدلل على ذلك، فصورة الصنم الذي يرمز للقمر كان على هيئة محارب يتقلّد أسلحته جميعها ، في إشارة إلى الفرس العربي، والفروسيّة سمة من سمات الممدوح.

هذا فضلا عن ارتباط القمر عند العرب بالمطر والفصول، ودراســـة الأنـــواء تظهـــر احتفاليات كثيرة للعربي بمواسم معينة كان رسولها إلى الصحراء القمر، مثلمـــا كـــان الخيـــر والعطاء أيضًا من سمات الممدوح.

---

(١) الجهاد، هلال ،جماليات الشعر العربي ص ٣٩٦

وأمّا السّمات الخارجيّة المتعلقة بالمظهر واللون، والداخليّة بالهدوء وسلامة السريرة، فهي أيضًا من صفات الممدوح، ممّا يستدعي حضور صورة القمر الذكوريّ أكثر من الحضور الأنثوي ولاسيما في الشعر الجاهلي(١).

وها هو أبو تمّام يشبّه مناسب ممدوحه بمنازل القمر ، وتلك المنازل هي المواقع النجميّة، التي ينزل القمر بها كلّ ليلة، يقول:

مَناسِبٌ تُحسَبُ مِن ضَوئِها مَنازِلَ لِلقَمَرِ الطالِعِ

كَالدَلوِ وَالحوتِ وَأَشراطِهِ وَالبَطنِ وَالنَجمِ إِلى البالِعِ (٢)

فتلك المناسب كلّها ، ذات رفعة ومكانة وشهرة عالية بين الناس، وإذا كانت أنساب الممدوح تشبه منازل القمر، فإن سنّته في عمل الخير، وفي المكرمات عند الأخطل تشبه القمر:

وَجَّهْتُ عَنْسي إلى حُلْوٍ شمائلُهُ كَأَنَّ سُنَّتَهُ في المَسْجِدِ القَمَرُ(٣)

والمدح عند العربيّ صورة لمجموعة من القيم، وهي قيم يفترض أن يكون وجودها في المشبّه به أقوى وأظهر منه في المشبّه، ومن هنا فإنّ الممدوح الأساس في المعادلة هو القمر ذاته، وإن كانت صورته قد تأطّرت في خدمة الممدوح، ومن هنا فإن عليًّا بن الجهم يصف الخليفة المعتصم بصفات يرى أنها تفوق صفات البدر:

ومعتصميُّ الخَلْقِ للسيفِ والقنا عليهِ بهاءٌ حينَ يبدو ويقبلُ

إذا نحنُ شبهناكَ بالبدرِ طالعًا بَخَسْناكَ حظًّا أنتَ أبهى وأجملُ(٤)

---

(١)انظر السابق٣٩٦-٣٩٧

(٢) أبوتمام، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، ج٢، ص٣٥٣

(٣) الأخطل، ديوان الأخطل، تحقيق فخرالدين قباوة ،ص٣٤٢ والعنس : ناقته، وسنته: وجهه

(٤) ابن الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم، ص١٧٤

ولكنَّ ممدوح الفرزدق قمر مكتمل، فهو البدر الّذي يهتدي بنوره الناس، فيسلكون السّبل الصحيحة، في حين يسلك ذوو الأحقاد السّبل الخطأ:

هوَ القمرُ البدرُ الذي يُهْتَدَى بهِ   إذا مَا ذَوُو الأَضْغَانِ جاروا عَنِ السُّبُلِ[(١)]

ويأتي ابن الروميّ ليمدح الخليفة المعتضد، فيستعير له ولولاة عهده مجموعة من الكواكب، ليدلّل بعدها على ما وصلوا إليه من الكمال:

شَمْسُ دَجنٍ، ومُشْتَرٍ غَيْر مَنْحُـو   سٍ، وبـــدرٌ متممٌ وهــــلالُ

مَلِكٌ وَابْنُهُ، ومِدْرَهُ مُلْــــكٍ   وابنُهُ، هكذا يكونُ الكمـــالُ[(٢)]

وأَمَّا قوم الممدوح عند زهير ، فإنَّ عزَّهم ومجدهم الأصيلين النابتين من بيت مكـارمهم، قـد أصبحا ملتصقين بالقمر في المكانة والرّفعة والعلوّ:

قومٌ ترى عزَّهم والفخرَ إن فَخروا   في بيتِ مكرمةٍ قد لُزَّ بالقمـــرِ[(٣)]

وهذا هو المتنبّي يمدح سيف الدّولة، فيرى فيه بدرًا لا مثيل له، بل إنَّه يفوق البدر الحقيقيَّ:

فأبصَرْتُ بدرًا لا يُرى البَدْرُ مثلَهُ   وخاطبتُ بحرًا لا يرى العبرَ عائِمُـــه[(٤)]

وليس البدر وحده هو الّذي يختاره المتنبّي لسيف الدولة، فيراه في موقع آخر مثل القمر بعيد المنال، فالّذين يبعثون إليه الجيوش طمعًا في الظفر به كمن يروم صيد الهلال بسهامه التي يرمي بها من الأرض، يقول:

أعاذَكَ اللهُ من سهامهـــم   ومخطـئٌ من رمِيُّـهُ القمـــرُ[(٥)]

---

(١) الفرزدق، شعر الفرزدق ، تحقيق عمر فاروق الطباع،ص٥٣٩

(٢) ابن الرومي، علي بن العباس، ديوان ابن الرومي، ج٣ ص٤٦، والدجن: المطير، والمدره: السيد الشجاع

(٣) ابن أبي سلمى، زهير، ديوان زهير، ص ٢٣٠

(٤) المتنبي، ديوان المتنبي صنعة العكبري،ج٣، ص٣٥٩

(٥) نفسه ج٢ ص ١٩٤ ، والرمِيّ، المرمي، ويقصد أن من يحاول رمي القمر لن يستطيع.

وأمّا ممدوح الأعشى فهو هلال لعلوّ منزلته بين الناس، فيحتشدون من حولـــه، لـــيعمّهم بالنّور والخير الوفير فهو الأزكى في كلّ قيمة، إذ يتمتع بالوفاء والمجد والخير، وكلّها صـــفات للقائد الكبير الذي يسبغ أياديه البيض على شعبه:

إلى مَلكٍ كهـــلالِ السَّمـــا ءِ أَزْكى وفاءً ومجدًا وخيـــرًا(١)

وهذه المنزلة المهمّة للبدر بين النجوم والكواكب ، هي الّتي جعلــت المعــرّي يرصــد صورة ممدوحه جامعًا بين صورتَيّ البدر والهلال:

فلا زلتَ بدرًا كامِلا في ضيائِهِ على أنَّهُ عندَ التّمامِ هـــــلالُ؟(٢)

فهو بدر في الكمال وهلال في النّماء ، ممّا ينفي تصوّر النقصان، ففي بقائه عند التمام هلالا دلالة على استمرارية النموّ، وإشارة إلى أنه يتماهى مع حال البدر في اكتمـــال العطـــاء، مـــع محافظته على مرحلة الزيادة والنموّ.

وللهلال مكانة عُليا في شعر المدح، لا بوصفه مرحلة نمائيّة أولى، بل لأنّ إطلالته تبعث على الفرح والسّرور، فهو المولود القادم من رحم الظلام، حاملا صفحة مـــيلاد مـــشرق، مستبـــشرًا بدورة حياتيّة أطول من دورة حياة الإنسان، فهي دورة تتجدد في كل شهر، فما أن يغيب حتـــى يعود للبعث من جديد، وهو إضافة إلى ذلك ميقات، في ظهوره تبدأ المواسم، وهذا ما يـــراه ذو الرُّمة في ممدوحه بلال ابن أبي بردة، فالناس ينظرون إليه وهم وقوف بين يديه، إظهارًا لمقامه الرفيع، تمامًا كما لو كانوا رفاقًا في تأدية مناسك الحجّ، وقد أبصروا الهلال، الـــذي يعـــدّ مـــن المواقيت الزمانية:

---

(١) الأعشى، ديوان الأعشى الكبير ، ص٩٥

(٢) المعري، سقط الزند، ص ١٤٩

كَأَنَّ الناسَ حينَ تَمُرُّ حَتّــى عَواتِقَ لَم تَكُن تَدَعُ الحِجــالا

قِياماً يَنظُرونَ إِلى بِــــلالٍ رِفاقُ الحَجِّ أَبصَرت الهِلالا (١)

وقد دأب الشّعراء على تشبيه الممدوح بالبدر وابنه بالهلال أو العكس، ومن ذلك تشبيه الفرزدق الخليفة بالبدر، وولي عهده بالهلال:

جعلتَ لهمْ وراءَكَ فاطْمَأَنُوا مكانَ البدرِ إذ هَلَكُوا هِــلالا

وليّ العهدِ من أبويكَ فيهِ خلائقُ قدْ كَمُلْنَ لَهُ كَمــالا(٢)

وفي موقع آخر يشير الفرزدق في مدحه عبدالله بن عمر بن عثمان، إلى مكانة أبويــه، ونسبه الكريم، الذي ينتهي به إلى جده عمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – من جهة أمّه، وإلى جده عثمان بن عفان – رضي الله عنه – من جهة أبيه، وهو إذ يرمق منزلتهما العالية لا يجــد أكثر من صورة القمرين في العلوّ والرفعة والإشراق، وإذا كانا في علوّ الشمس والقمر فالممدوح هو البدر الذي يهتدي بنوره المسافرين ليلا:

كِلا أَبَوَيْــكَ عبدَاللهِ عــالٍ رفيعٌ في المنازِلِ بالخِيــــارِ

هما قَمَرَا السَّماءِ وأنتَ بدْرٌ بِهِ بالليلِ يُدْلجُ كلُّ ســــــارِ(٣)

وقد يكون الملك جامعا للشبه، كما هو الحال في العطاء، ومن هنا شبه الكثيرون ممــدوحيهم بالقمرعطاء وخيرًا يعمّ البشر، فممدوح ابن زيدون(ت٤٦٣هــ) طلعته كطلعة البدر تزيل الغــمّ والعتمة، وبطلوعه تَقَرّ العيون التي أتعبها البكاء، وتَقرّ القلوب التي كان يزلزلها الذعر، فالذعر والخوف وليدا الظلام ، حتى إذا ما طلع البدر انجلى الليل وارتدّت إلى النفوس الطمأنينة:

---

(١) ذو الرمة، غيلان بن عقبة،(ت١١٧هــ) ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي،ص٥٢١

(٢) الفرزدق ، ديوان الفرزدق ، ص٥٠٣

(٣) نفسه ص٢٩٧–٢٩٨

لكَ الخيرُ إن الرزءَ كان غَيابةً   طلعتَ لنا فيها كما طلع البـــــدرُ

فقرَّت عيونٌ كان أسخنَها البُكا   وقرَّتْ قلوبٌ كان زلزَلَها الذعْرُ(١)

وفي تلك الإنارة ما يجعل الممدوح شبيها بالقمر، إذ لكلّ إشعاعه النوريّ الخاص الذي يسبغه على الناس، لكن هذا الشبه يبقى قاصرًا أمام تعاظم القيمة الّتي يسبغها القمر على الناس، فــإن غاب تفاقم الخطب، وادلهمّت الدّيار، ولكنْ إن غابت قرينته الشّمس، وغطاها الثّرى، وأصبحت في اللحد لا تلوي على شيء، فإن البدر بكماله يخلف القمر، ويغني عن مهلك الشمس، وهذا ما دفع ابن زيدون إلى الرثاء والمدح في آن، فقد قال راثيًا المعتضد ومادحًا خليفته المعتمــد فـــي إحدى قصائده:

ألم ترَ أنَّ الشَّمسَ قدْ ضمَّها القبْرُ   وأنْ قدْ كَفانا فقْدَنا القمرَ البــــدرُ

وأنَّ الحَيا إن كان أقلعَ صوبُـــــه   فقدْ فاضَ للآمالِ في إثْرِهِ البحرُ(٢)

ولما كان البدر غاية الكمال، وذروة سنام الصفات التي يسبغها المادح على ممدوحيه، فإن المتنبّي يخاطب ممدوحه بدر بن عمار على أنه بدر السماء، ولكنه في طور الاكتمال، فلا تجري عليه سنّة البدر في التغير:

إلى البدرِ بنِ عمَّارِ الذي لمْ   يكنْ في غُرَّةِ الشَّهرِ الهـــــلالا(٣)

ومثل هذه الصورة للممدوح نجدها كثيرًا في شعر المدح، فقد عاين الشعراء ممدوحيهم في طور الاكتمال، وغلبّوهم على القمر لأن من أطواره النقص هلالا ومحاقًا وسرارًا.

---

(١) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب عبدالله سندة، ط١، ٢٠٠٥م، دار المعرفة، بيروت ص١٩٣

(٢) نفسه ص ١٩٧

(٣) المتنبي، ديوان المتنبي بشرح العكبري، كمال طالب، ج٣ ، ص٢٣٨

وتصوير الآباء بالبدر والأبناء بالهلال، أو العكس _ كما أسلفت _ كثير في الشّعر القديم، وفي أمثال العرب أن " العصا من العصيّة " لذا كثيرًا ما يقترن ذكر البدر مع ذكر الهلال في البيت الواحد ، و صريع الغواني(ت ٢٠٨) يشبّه ممدوحه بالهلال والخليفة بالبدر:

إن الخليفةَ بدرُ آلِ محمّــــــــــدٍ ولوائلٍ أصبحتَ أنتَ هِلالا(١)

وتشبيه الملوك والخلفاء والقادة بالبدر، يكثر في أساليب المدح، التي اتَّبعها الشعراء العرب، على مرِّ العصور، والجامع في كل ذلك الشهرة والقوَّة والمنعة والرفعة والتفرُّد، فهذا أيضًا السريّ الرفّاء يشبّه الملك بالبدر:

مَلِكٌ مَا انْتَضَى المُهَنّــدَ إلا خِيلَ بَدْرًا يسطو بِحَدِّ شِهابِ(٢)

وتتجلّى هذه الصورة كثيرًا أيضًا، فالملك هو البدر، والسيف هو الشّهاب، والسّمة لكلّ منهما الظهور والوضوح والقوّة والمنعة والرفعة والسموّ.

وقد تغنّى الشعراء بممدوحيهم، من خلال المقارنة بين حالة الثبات والاكتمال الإنسانية، وحالة التغيّر والاضمحلال القمرية، فابن الجهم يوازن بين الخليفة المتوكل والبدر السماويّ، ليرجّح كفّة البدر الأرضيّ، نظرًا لاقتصار كمال الآخر على أيّام محددة من الشهر:

يا بدرُ كيفَ صنَعْتَ بالبـــــدرِ وفضَحْتَهُ من حيثُ لا يدري

الدهرَ أنت بأســـرِهِ قمــــــرٌ ولذاكَ ليلتُهُ من الشهرِ(٣)

---

(١) صريع الغواني، مسلم بن الوليد، شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان، دط، دت، دار المعارف ، مصر ص٢٠٧

(٢) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، ص٤٧

(٣) ابن الجهم، علي ، ديوان علي بن الجهم، ص١٤٣

وفي ظلّ المقارنة القائمة بين كلّ من القمر الممدوح والقمر المشبّه به، نجد بعض الشّعراء يرسم صورًا جماليّة لكليهما مرجحين كفّة الممدوح، فعليّ بن الجهم يرى المتوكّل والهلال منير على وجهه، ويحتار في مصدر النور، وأيّ منهما الأكثر نورًا، ليصل بعد مفاضلة مُعَلّلة إلى ترجيح كفّة الخليفة:

رأيتُ الهلالَ على وجهِه فلم أدرِ أيّهما أَنْوَرُ

سوى أن ذاكَ بعيد المحلِّ وهذا قريبٌ لِمنْ يَنْظُرُ

وذاك يغيبُ وذا حاضِرٌ وما من يغيبُ كمن يحضُر

ونفعُ الهلالِ كثيرٌ لنا ونفعُ الحبيبِ لنا أكثرُ[1]

والجمع بين القمرين والنيّرين كثير في غرض المدح، لإسقاط كلّ مقوّمات الجمال والخير النهاريّة والليليّة على الممدوح، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها أن أبا العَمَيْثَل مدح الفضل والحسن ابني سهيل، فقال:

كأنَّ أشكالَ وجهِ الحزمِ بينهما ظلٌّ تلاقى عليه الشمسُ والقمرُ[2]

والأمثلة في الشعر العربي القديم على صورة الممدوح، التي تتسامق لتتماهى مع صورة القمر كثيرة، وهي في مجملها تزاوج بين السّمات الجماليّة والكماليّة للممدوحين بطبيعتها الأرضيّة، بالذات القمريّة السماويّة وسماتها المثاليّة.

---

(١) ابن الجهم، علي ، ديوان علي بن الجهم، ص١٣٣

(٢) انظر ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار فراج، دط ، دت ، دار المعارف، مصر ص٢٨٨

ب) الغزل

يتفاوت توظيف القمر بمسمّياته وأحواله المختلفة في شعر الغزل على مــرّ العــصور، " واللافت أنّ الشّاعر الجاهليّ كان شديد الشّغف بذكر محاسن المرأة إلا أنّه نادرًا مــا يــشبّهها بالقمر أو البدر فهذان كانا لوصف الرجل في الشّهرة والسّناء، أمّــا المــرأة فالــشّمس أحلــى الأوصاف لوجهها. أما في العصر العبّاسيّ، فلم يغب القمر عن قــصائد الــشّعراء تــشبيهًا أو استعارة أو إفراطًا في العاطفة أو اعتبار الحبيب قمرًا"[١].

ومع ذلك فنحن نجد من يشبّه المرأة بضوء البدر في العصر الجاهليّ:

أفي ليلى يعاتبُني أَبوهــــا وإخوتُها وهمْ لي ظالمونــــا

إلى أن يصف جمالها، فيرى نحرها يضيء كالبدر على من يجلسون في الظلمة، فيقول:

ونحرًا مثلَ ضوءِ البدرِ وافَى بإتمامٍ أُناسًا مُدْجنينــــــا[٢]

وقد ورد تشبيه المرأة بالقمر تارة وبالشّمس أخرى في قصيدة لابن قيس الرقيّات، يقول فيها:

لقدْ فَتَنَتْ رَيًّا وَسَلامَةُ القَسَّــا فلمْ تترُكَا لِلْقَسِّ عَقْلا ولا نَفْســا

فتاتانِ أمَّا منْهُما فشبيهَةُ الــ ــهلالِ وأُخرى منهما تُشْبِهُ الشَّمْسَا

فتاتانِ في سَعْدِ السُّعودِ وُلِدْتُما ولمْ تلقيا يومًا هوانًا ولا نَحْســا[٣]

وقال في موقع آخر:

تِربانِ إحْدَاهُما كَالشَّمْسِ إذْ بَزَغَتْ في يَومِ دَجْنٍ وأُخْرى تُشْبِهُ القَمَرا[٤]

---

(١) البازعي، سعد، أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر، مجلة القافلة ص٩٧

(٢) ابن كلثوم ، عمرو، ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط٢، دار الكتاب العربي، بيــروت، ١٩٩٦م، ص٦٧-٦٩

(٣) ابن قيس الرقيات، عبيدالله، ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ص٣٣-٣٤

(٤) نفسه ص١٣٨

والملاحظ أنْ لا تفاوتَ في القيمة الجماليّة لكلّ من الشّمس والقمر هنا، فالفتاتان جميلتـــان، ولكن الحكم على الأجمل يكون حسب ما يشكله القمر أو الشّمس لأي منا من قيمة جماليّة، لكـــن أبا تّمام يرى غير ذلك، فالشّمس تطغى على البدر، الذي لا يستطيع الطلوع إلا إذا غربت:

وَقَالَتْ أَتَنْسَى البَدْرَ قلتُ تَجَلُّدًا إذا الشَّمْسُ لمْ تَغْرُبْ فَلا طَلَعَ البَدْرُ(١)

ولكنّ هناك من يرى القمر أجمل الكواكب، فيشبّه المحبوبة بالبدر في الحسن الذي لا يعدلـــه حسن الكواكب مجتمعة:

هـــيَ البدرُ حُسْنًا والنساءُ كَواكبُ وشَتَّـــــانَ ما بينَ الكواكِبِ والبَدْرِ

لقدْ فَضُلَتْ حسْنًا على الناسِ مِثْلَما على أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ ليلةُ القدرِ(٢)

وجمال البدر لا يكون في استدارته فقط، ولو كان ذلك لما استطعنا المقاربة بينه وبين غصن البان، ولكن هناك جوانب كثيرة لهذا الجمال، أهمها الجمال ذاته، وهذا الجمال الذي يتلبّسه البدر الأرضيّ، يجعل بدر السّماء خجولا أمام جماله الآسر، فكلّ حسن يقـــصر أمـــام هـــذا القمـــر الأرضيّ، الذي ينماز بأنّه يبتسم، فيتبدّى نور أبيض هو ذروة في الجمال، الذي لا يقوى القمـــر على أن يأتي بمثله:

قمَرٌ تَبَسَّمَ عنْ جُمَانٍ نَابِــــتٍ فَظَلِلْتُ أَرْمُقُــهُ بِعينِ الباهِــتِ

ما زال يَقْصُرُ كلُّ حُسْنٍ دونَهُ حتَّى تفاوَتَ عنْ صِفَاتِ الناعِتِ

سَجَدَ الجَمَالُ لوجْهِهِ لمَّا رَأَى دَهَشَ العُقولِ لِحُسْنِهِ المُتَفَاوِتِ(٣)

---

(١) أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، ج٤، ص٥٦٨

(٢) جميل بثينة، جميل بن معمر، ديوان جميل بثينة، دار صادر، بيروت، ص٥٨

(٣) أبو تمام ،حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام، ج٤، ص١٧٧-١٧٨

وتشبيه المرأة بالغزال كثير أيضًا، فالغزال قيمة جماليّة تعارف عليها الناس، وأبدع في استعارة أوصافها الشّعراء، ولما كان الجميل يزداد جمالا بحسن موضعه، كان تشبيه المرأة بالغزال، والغزال بالقمر، وكلّ ينعكس على ديمومة جمال المرأة، إذ قد ينقضي جمال الغزال، وقد يمحق القمر:

يا مَنْ بَدَا ورَنَا فَلاحَ الـــ ـــبَدْرُ لي ورنَا الغَزال

مَنْ ذا يقيسُكَ بِالهِـــــلالِ وتَقْصُهُ ولَكَ الكَمَال(١)

وإذا كان وجه المرأة ووجه البدر يتودّدان النّاظرين دون كلام ، فإنّ بهجة الوجه لها تلك الجاذبيّة أيضًا، فهذ هو العرجي(ت١٢٠هـ) يتغزل فيستعير جماليّات عديدة لجمال المرأة، فوجنتها وردة بيضاء، وهو وصف حسّيٌّ لغضارة وجهها وبياضه، ثم هي منقطعة عن الرجال ، وهو وصف معنوي يتضمن العفّة وعدم سهولة النوال، وبالتالي فهي تشبه البدر جمالا ورفعة:

مِنْ كُلِّ خَرْعَبَةٍ مُبَتَّلَةٍ صفرِ الوشاحِ، كأنها بدرُ(٢)

وهذ عبيدالله بن قيس الرقيّات(ت٨٥هـ) يصف ابتسامة امرأة بفلقة القمر، وفيه استحضار لصورة القمر في بريقه ولمعانه، الذي يشبه الابتسامة دون أن يتكلّم:

وَمَا كَلَّمَتْنَا ولَكِنَّهَا جَلَتْ فِلْقَةِ القَمَرِالأَبْلَجِ(٣)

ومن الملاحظ أن التودّد والبهجة والابتسامة كلها صفات إنسانيّة، تدلّ على الأُنس والجاذبيّة والفرح والتحبّب، وهذه الصفات إذ تسقط على القمر، فهي لأنّ الشّعراء يرون فيه موطنًا لتلك الصفات.

---

(١) ابن الساعاتي، ديوان ابن الساعاتي ، أنيس المقدسي، الطبعة الأميركانية دط، ١٩٣٨ ج١،ص٢٣١

(٢) العرجي، عبدالله بن عمر، ديوان العرجي، تحقيق سجيع جميل الجبيلي،ط١، ١٩٩٨، دار صادر بيروت، ص٢٤٠

(٣) عبيدالله بن الرقيات، ديوانه، ص٦١

ونظرًا للتناغم الكبير بين صورة المرأة الجماليّة وصورة القمر، فقد ساوى الشّعراء بينهما، ولا سيّما في هالة الوجه والخدّين :

لأَسيلَةِ الخَدَّينِ واضِحَـــــةٍ   يَعْشَى بِسُنَّةِ وَجْهِها البَــدْرُ[1]

وفي محاولة استجلاء صورة القمر الأرضيّ ، وإسقاط الصفات الإنسانيّة عليه، يكون هلال ابن المعتز مطلوبًا لزيارة عاشقه، فيشبه المحبوبة بالهلال الدائر في الفلك، ويطلب منه أن يتوقّف في الطريق لِلُقياه إذا لم يكن قادمًا للزيارة:

يـــا هِلالا يَدورُ في فَلَــكِ المـــا   وَرْدِ وقْفًا لِلأَعْيُنِ النَّظـــــــــارَةِ

قفْ لَنا في الطَّريقِ إنْ لمْ تَزُرْنَا   وقْفَةٌ في الطَّريقِ نصْفُ الزِّيَارَةِ[2]

ولمّا كان القمر لا يدرك إلا بالبصر، والنظرة العجلى، إذ إنّ النظرة الطويلة المتأمّلة قد تعشو العيون، فإن الشّعراء رأوا أيضًا في المرأة قمرًا وفي القمر امرأة، فهما متساويان في الجمال، لدرجة أن الخُبزأرُزّي لا يفرّق بينهما، لولا بعض الخصال البشريّة في المحبوبة:

رَأَيْتُ الهلالَ وَوَجْهَ الحَبيــــبِ   فَكَانــــا هِلالَيْنِ عِنْدَ النَّظَرْ

فلمْ أدْرِ مِنْ حيرَتي فيهمـــــا   هِلال الدجى منْ هلالِ البَشَر

ولوْلا التَّوَرُّدُ في الوَجْنَتَيْــــنِ   وما راقَني مِنْ سَوَادِ الشَّعر

لكنتُ أَظُنُّ الهلالَ الحبيــــبَ   وكنْتُ أَظُنُّ الحبيبَ القَمَـــر[3]

---

(١) ابن أبي ربيعة، عمر، ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١٤١ وفي قوله يعشى البصر، تأكيد لما سبق في الفصل الأول من معاني القمر، فهو يسبغ هالة على البصر لايقوى معها البصر على متابعة النظر

(٢) ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، ص٢١٠

(٣) انظر الأبيات في: الصفدي، رشف الزلال في وصف الهلال، ص١٣٩، وهي للشاعر أبي القاسم نصر بن أحمد البصري، وقد لقب بالخبزأرزي لأنه كان يعمل خبّازًا للأرز في البصرة.

وتشبيه وجه المرأة بالبدر كثير، وربّما كان ذلك لاستملاح الاستدارة، وجمال الإنـــارة، ووجه المرأة الّتي يتغزّل بها المتنبّي بدر يتمتع بميزة إضافية وهو الضحك :

فلَمْ أَرَ بدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِها   ولمْ تَرَ قَبْلي مَيِّتًا يَتَكَلَّـــــمُ[(١)]

ويكثر تشبيه المرأة بالقمر عمومًا لدى الشّعراء، والأغلب أن يقصد به حالة البدر، ولا سيّما عند شعراء الغزل الصريح الذين كانوا يميلون إلى الوصف الحسي، يقول عمر بن أبي ربيعة:

بانُوا بِهِرْكَوْلَةٍ فَعْمٍ مُؤَزَّرُها   كأنَّها تحتَ سِجْفِ القُبَّةِ القَمَرُ[(٢)]

وقال:

رَخْصَـــةٍ حَوْراءَ ناعمـــــةٍ   طَفْلَـــةٍ كأنَّهـــا قمَـــرُ [(٣)]

وكثيرا ما شبه الشعراء محبوباتهم بسنا القمر أو هالته ، يقول السيد الحميـــريّ مــشبّهًا محيًّا عبدة بسنا دارة القمر:

قَطُوفُ الخُطا خمصانَةٌ بَخْتَرِيَّةٌ   كأنَّ مُحَيَّاها سنا دارةِ القَمَـــــر

رمتني بِبُعْدٍ بَعْدَ قُرْبٍ بها النوى   فبانَتْ ولَمَّا أقضِ من عبدَةَ الوَطَر[(٤)]

ولأبي الطيّب المتنبّي مقاربة جميلة بين قمريّ الأرض والسماء، استقى منها الشّعراء بعده الكثير من الصور:

وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بِوَجْهِها   فَأَرَتْني القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعًا[(٥)]

---

(١) المتنبي، ديوان أبي الطيب شرح العكبري، كمال طالب، ج٤، ص٨٣

(٢) ابن أبي ربيعة، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص١١٨
وبانوا: بعدوا، والهركولة: عريضة المنكبين، وفعم: ضخم،وسجف القبة: سترها

(٣) نفسه ص١٥٩، والرخصة: الناعمة، والطفلة: المنعمة

(٤) السيد الحميري، ديوان السيد الحميري، تقديم نــواف الجــراح، ط١،١٩٩٩م ، دار صــادر ، بيــروت، ص ٧٥، والقطوف: بطيئة السير، والخمصانة : ناحلة البطن، والبخترية : حسنة المشية، والسنا: الضوء

(٥) المتنبي، ديوان المتنبي، ج٢، ص٢٦٥

وهذا مهيار الديلميّ يصف مراحل نموّ حبّه بمراحل ولادة القمر وغيابه، فيحكم على الحبّ الوليد بموت صاحبه، وفي هذا إشارة إلى بقاء حبّه حتى بعد موته، لأن المتيَّم هو الحبّ نفسه، مما يدفعه لاستجلاء صورة ولادة القمر هلالا، واختفائه بعد الاكتمال:

بَرَزَتْ هِلالا واخْتَفَتْ قَمَرًا   رَبَّيْتُ فيها الحُبَّ لِلْيُتْمِ[(١)]

وقال وقد شبه محبوبته بالهلال حصرًا ولم يرد بذلك البدر، وهي صورة تختلف عمّا ألفناه عند كثير من الشّعراء، إذ كثيرا ما تغنّى أولئك بامتلاء قامات محبوباتهم، وضخامة أجسادهنّ، لذا قَلَّ تشبيههنّ بالهلال ، وكثر بالبدر، ومهيار هنا يؤكّد الصفة التي يريد، فمحبوبته هلال نحيف حصرًا:

تَعَلَّقَ قَوْمٌ بدورَ التَّمامِ   وعُلِّقْتُ منها هلالا نحيفا[(٢)]

وفي موقع آخر تكون المحبوبة هلالا يخفيه الخدر، فيرجو الديلمي أن تظهر الرواحل ما بداخل الخدور عند السّفر:

عسى الأضعانُ تطلعُ إنْ أَثاروا   هلالا كانَ تَكْفُرُهُ الخُدُورُ[(٣)]

وهذا الخبز أرزي يصف محبوبته بالبدر، ثم يبيّن ما يطرأ عليه من تحوّلات:

حبيبي ذاكَ البدرُ إذْ وافَقَ النَّضَا   فألبَسْتُهُ ثوبًا مِنَ الذلِّ فَاسْتَخْفَى

وظَنُّوا بِهِ خَسْفًا وكَانَ احْوِرارُهُ   تَخَلِّيهِ عنْ تنويرِ وجْهِكَ لا كَسْفا

وَظَنَّكَ بَدْرًا قدْ أتَيْتَ بِعَزْلِهِ   فذلَّ لكي يَدعو لَهُ الناسُ أَنْ يُكْفى

فيا قمرًا أزرى على قَمَرِ الدجى   بَرَعْتَ بِحُسْنٍ ما تطيقُ لَهُ وَصْفا[(٤)]

---

(١) مهيار الديلمي، ديوان مهيار الديلمي، ص ٣٧٤

(٢) نفسه ٢٩١

(٣) نفسه ١٨٨

(٤) انظر الأبيات في: الصفدي، رشف الزلال في وصف الهلال، ص١٣٩

ومن جهة أخرى فقد ورد تشبيه الرجل بالبدر وذلك في غزل النساء بالرجال، فقد رأين فيــه صورة لمعشوقيهن، فقد: " مر أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، في خلافته بطريق من طــرق المدينة، فإذا جارية تطحن وتنشد:

وَعشقْتُهُ منْ قبلِ قَطْعِ تَمائمي　　　متمايِسًا مثلَ القضيبِ الناعمِ

وكأنَّ نورَ البدرِ سُنَّة وَجْهِــهِ　　　يَنْمَى ويَصْعَدُ في ذُؤَابَةِ هاشمِ

فدقّ عليها الباب فخرجت إليه فقال: ويلك أحرة أم مملوكة؟ قالت: مملوكة يا خليفة رسول الله"(١)

ولما أصر عليها معرفة المقصود، قالت:

وأنا التي لَعِبَ الغرامُ بقلبِها　　　فَبَكَتْ بِحُبِّ مُحَمَّدِ بنِ القاسِمِ

وتقصد محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب(٢).

وهذه خولة بنت ثابت، تقول:

كيفَ تَلْحــوني علــى رَجُــلٍ　　　آنَسُ تَلْتَـــذُّهُ كَبِــــدِي

مثل ضَــوْءِ البدرِ صُورتُــــهُ　　　ليـــسَ بِالزُّميلَـــةِ النكدِ(٣)

وعلى الرغم من أن الكثيرين يرون أن شعر الحبّ والغزل بأبعاده الرومانسيّة هو الذي يؤطّر علاقة المرأة بالقمر من منظور الشّعراء، إلا أنّه يرد في تشبيهات أخرى قد تتقارب أو تتنافر مع ذلك، وخاصة عندما تتساوى المعشوقة بالأرض ، وتتساوى الأرض بالمعشوقة يقول ابن زريق:

أَسْتَوْدِعُ اللهَ في بَغْدادَ لي قَمَرًا　　　بِالكَرْخِ منْ فَلَكِ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ(٤)

---

(١) ابن الجوزية ، شمس الدين أبو عبدالله محمد،،أخبار النساء، تحقيق محمد نزار رضا ،د ط، ١٩٧٨م، دار مكتبة الحياة ، بيروت ص ٢٦٧

(٢) نفسه ص ٢٣٦

(٣) القالي، أبوعلي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، د. ط، د.ت، دار الكتب العلمية بيروت، ج٢ ص٤٧

(٤) شوشة، فاروق، أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي، ط١، ١٩٩١م، دار الشروق، ص١٦٣

وقد ظهر في العصر العبّاسيّ نوع من الغزل لم يعتده العرب، ويمكن الاصطلاح على تسميته بغزل الغلمان، إذ كثيرًا ما نجد الشعراء يعدلون عن الغزل بالمرأة إلى الغزل بالغلمان، ولعل من أبرز هؤلاء أبا نؤاس وديك الجنّ الحمصي وغيرهما..

وفي هذا السياق يقول ديك الجن الحمصي في غلام اسمه بكر:

دَع البدرَ فليغرُبْ فأنتَ لنا بـــــدرُ إذا ما تجلَّى من محاسنـك الفجـرُ

ولو قيل لي قمْ، فادعُ أحسنَ مَنْ تَرَى لصِحْتُ بأَعْلى الصَّوْتِ يا بكرُ يا بكرُ[١]

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الظاهرة ، وإن طفت على السّطح عند بعض الشعراء، ليست مقصودة بذاتها، إذ كانت في الأغلب مصاحبة للخمريّات، مما يشير إلى أنّها لم تكن مقصودة كدعوة إلى المثليّة الجنسيّة، وإنما كانت في سياق وصف الساقي لإضفاء كماليّات التقدمة وحسن الضيافة، وربّما كان في بعض السياقات ظلال ثقافية لصورة الغلمان المخلّدين الذين يطوفون على المؤمنين في الجنة يسقونهم من السلسبيل ، قال تعالى:(**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا**)[٢].

والأمثلة على هذا اللون من الشعر كثيرة، إلا أننا يجب أن لا نخلط بين من يصف غلامًا، ومن يصف امرأة بلفظ المذكر، إذ تشيع ألفاظ التذكير في مخاطبة المرأة والتغزّل بها عمومًا، لا لشيء، وإنّما كان ذلك وليد ثقافة عامة تُغَلِّب المذكّر على المؤنّث في السياقات اللغويّة.

هذا غيض من فيض، وتشبيه المرأة بالقمر بمسميّاته، كثير جدا في الشّعر العربي القديم ، ولا سيّما المتأخر منه، والجامع في ذلك هو الرفعة والجمال، وبعد النوال، والحضور والغياب، وربّما كان لحالة الأنس والطمأنينة الّتي يبعثها القمر في النفوس دور في تشبيه المرأة به على مرّ العصور.

---

(١) نور الدين، حسن جعفر، ديك الجن الحمصي– عصره وحياته وشعره ، ص١٣٧

(٢) سورة الإنسان الآية ١٩

ج) الرثاء

لمّا كان الرثاء ذكر محاسن المتوفّى، فهو من جانب قريب من المدح، ومن جانب آخر أظهر لعاطفة الفاقد، وأهميّة المفقود، ومن هنا كان تشبيه المرثي بالقمر كثيرًا، فمن جهة كان إظهارًا للمكانة والرفعة والشّهرة والتفرّد في سماء مليئة بالنّجوم والكواكب، ومن جهة كان مشابهةَ القمر بمنازله المختلفة وحالاته بحياة الإنسان، يبدأ وليدًا ثمّ ينمو ليصل بعدها إلى مرحلة اكتمال النموّ، ليبدأ رحلة التراجع فيخفيه الموت- السَّرار.

وفي هذا الإطار قالت الخنساء في الرّثاء:

كنَّا كَأَنْجُمِ ليلٍ وَسْطَها قَمَـــرٌ   يَجْلو الدجى فَهَوى مِنْ بيْنِنا القَمَرُ

يا صخرُ ما كُنْتَ في قومٍ أُسِرَّ بِهِم   إلا وإنَّكَ بيْنَ القوْمِ مُشْتَهِـــرُ(١)

وقال أبو تمّام في رثاء محمد بن حُميد الطائيّ في المعنى نفسه:

تَرَدَّى ثِيابَ الموتِ حمرًا فما أتى   لها الليل إلا وهْيَ منْ سُندسٍ خُضْرُ

كأَنَّ بني نبهـانَ يَومَ وفاتـــه   نجومُ سماءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِها البـدْرُ(٢)

وفي موقع آخر قال جرير يرثي الوليد بن عبدالملك:

إنَّ الخليفَةَ قَدْ وارَتْ شمائِلُـهُ   غَبْـراءُ مَلْحُودَةٌ في جَوْلِها زَوَرُ

أمسى بَنُوهُ وقدْ جَلَّتْ مُصيبَتُهُمْ   مثْلَ النجومِ هوى منْ بيْنِها القَمَرُ(٣)

---

(١) الخنساء، تماضر بنت عمرو، ديوان الخنساء ، ص٦٣

(٢) أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، ج٤، ص٨١

(٣) الخطفي، جرير، ديوان جرير، شرح يوسف عيد ص٣٦١-٣٦٢، والجول: الناحية والجهة، والزور: الاعوجاج

وقال راثيًا أيضًا:

وأظلمَتْ البِلادُ عَلَيْهِ حُزْنًــا وَقُلْتُ أَفارقَ القمرُ المنيــــــرُ[١]

والفرزدق يتعجّب كيف يدفن القمر إذ تتساوى صورة المرثيّ مع صورته:

للهِ أرضٌ أَجَنّتْهُ ضَرَيحَتُها وكيفَ يُدْفَنُ في الملحودةِ القَمَرُ[٢]

وهذا كشاجم يشبّه المرثيّ بالهلال الذي يغدو عليه المحاق أيضًا:

يا هلالا غَدَا مَحَقَتْ نُورُهُ أَيْدِي الْبِلَى ما أَوْحَشَ المجدَ لَكْ[٣]

وبإعادة النظر ، وتفحّص الأبيات السابقة، لا نجد ما هو غير مألوف في إسقاط الصفات القمريّة على المرثيّ، فالمرثيّ شخص ذو مكانة بين قومه، معروف لدى الناس، عزيز على أهل بيته محبوب لهم، شجاع لا يهاب المنايا، يعيش بين الرماح، ويدفن في لحد ضيّق، فتخبو جذوة نوره الذي كان ينتشر في الفضاءات البعيدة.

ومن جهة أخرى، يكون انطفاء القمر كارثة على الناس، ودفنه في غبار الليل المظلم موحشًا للأرض، تبكيه النجوم الّتي لا قيمة لها بغيره، إلى أن يكون السؤال المرير: كيف يدفن في الملحودة القمر؟

ثم لا يلبث أن يطلّ علينا سؤال آخر يستحضر حالة الهلاك التي يأتي بها المحاق، فيكون الموت للإنسان معادلا ، للموت للقمر.

وفي إطار رثاء الأبناء يكثر تشبيه الشعراء للمرثي بالهلال الوليد الذي لم يلبث أن انطفأ نوره.

---

(١) السابق ص ٢٧٣

(٢) الفرزدق، ديوان الفرزدق، تحقيق عمر فاروق الطباع ، ص٢٠٦ والملحودة: القبر

(٣) كشاجم، محمود بن الحسين، ديوان كشاجم، تحقيق النبــوي شــعلان، ط١، ١٩٩٧م، مكتبــة الخــانجي، القاهرة،ص٣٠٥

ويعدّ ابن نباتة المصريّ من أوائل الشعراء الذين وصفوا الطفل الوليد بالهلال، وذلك في رثائه ابنًا له توفي وهو حديث الولادة، فكانت المقاربة بينه وبين الهلال، فالأوّل قُدّر له الانطفاء قبل شبابه، والآخر قُدِّر له أن يخبو قبل ابتداره:

وَمَا قَلْبي إذًا حَجَرٌ فَيَسْلو   هِلالا قَبْلَ مَا اكْتَمَلَ الطُّلوعا "[١]

وهذا أبو الحسنِ التُّهامِي يرثي ولدًا صغيرًا له تُوفي ، فيشبّهه بالهلال الذي لم يكتمل بدرًا بل وافاه السّرار:

يا كَوْكَبًا ما كانَ أَقْصَرَعُمْـرُهُ   وكذاكَ عُمْرُ كَواكِبِ الأَسْحارِ

وهلالُ أَيَّامٍ مَضَى لمْ يَسْتَـدِرْ   بَدْرًا ولَمْ يُمهلْ لِوَقْتِ سَـرارِ

عَمِلَ الخُسوفُ عَلَيْهِ قبْلَ أَوانِهِ   فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظَنَّةِ الإبْـدارِ[٢]

وفي الإطار نفسه يرثي ديك الجنّ الحمصيّ ولدًا له:

قَمَرٌ حيـنَ رَامَ أنْ يَتَجَلَّـى   سَـارَ فيهِ المحاقُ قبلَ الطلوعِ

فلْذَةٌ منْ صميـمِ قَلبي وَجُزْءٌ   منْ فُؤَادي وقِطْعَةٌ منْ ضُلوعي

إنْ تَكُنْ في التُّرَاثِ خَيْرَ ضَجيعٍ   كُنْتَ لِي فِي المَعَادِ خيْرَ شَفيعِ[٣]

وكلّ هذه النماذج تحمل صفات الهلال الوليد الذي لم يلبث أن انطفأ قبل اكتماله، والمقاربة بين ركني الانطفاء وركني الإطفاء، فالموت هو المحاق، والطفل هو الهلال، وكلاهما يجد المصير المحتوم غير المتوقع قبل مرحلة اكتماله.

---

(١) انظر القصيدة في ديوان ابن نباتة المصري، ص ٣١٤

(٢) أبو الحسن التهامي، ديوان التهامي، تحقيق علي نجيب عطوي،د ط، ١٩٨٦، دار مكتبة الهلال، بيـروت، لبنان ص٢١٧

(٣) ديك الجن الحمصي ، ديوان ديك الجن الحمصي، ص٢٨٧

د) الفخر

كان الوعي بقيمة الذات كبيرًا لدى العربيّ عموما، ولدى الفرسان خصوصًا، وكثيرًا ما كان الشاعر الفارس يرى نفسه في منزلة القمر، ذلك أن البطل القمري يتمتع بصفة " تتمثل في ذاتيته الأصيلة التي تستند إلى وعي عميق بالمسؤولية تجاه وجوده للقيمة وتجاه الآخر. فأصالته الذاتية تتحول عنده إلى انفتاح كلّي على الآخر، وذلك تأويل عطائه المطلق الذي لا يقف عند حدّ سواء في الحبّ أو القتال أو في توفير مقوّمات الوجود النادرة ومنحها"[(١)].

فهذا أبو فراس الحمدانيّ يستعير مكانة القمر في وصف الرجل وشهرته وسناه، فيفخر بنفسه بعد أن وقع في الأسر مستحضرًا كامل رجولته وفروسيته في قصيدته " أراك عصي الدمع" ليبلغ الفخر ذروته بقوله:

سَيَذْكُرُني قَوْمِي إِذا جَدَّ جدُّهُمْ   وفي الليْلَةِ الظلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ[(٢)]

وهذا هو الأعشى يشبّه نفسه بالقمر، ويفخر لحكمه بين بني الأحوص وبني عامر:

حَكَّمْتُموهُ فَقَضَى بَيْنَكم   أبلجُ مثل القَمَرِ الزَّاهِرِ

لا يقْبَلُ الرّشْوَةَ في حُكْمِهِ   وَلا يُبالي غبْنَ الخاسِرِ[(٣)]

وهذا هو ابن زيدون يطلّ علينا من سجنه، وقد شبّه نفسه بالشّمس والقمر عند الكسوف، مستحضرا مكانته السابقة، ومقامه الحالي،يقول:

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عاصِفَةٌ   أَمِ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ[(٤)]

---

(١) الجهاد، هلال ، جماليات الشعر العربي، ص٣٩٦

(٢) أبو فراس الحمداني، ديوان أبي فراس، ص ٧٦

(٣) الأعشى، ديوان الأعشى الكبير، ص١٤١

(٤) ابن زيدون ، ديوان ابن زيدون، ص ١٣٤

وهذا عمر بن لجأ التيمي يفخر بنفسه ويهجو جريرًا بعد أن أوقفهما عمر بـــن عبـــدالعزيز بسوق المدينة وقرنهما معا لتهاجيهما، وكان عمر شابًا وجرير شيخًا ضعيفًا ، يقول عمر مشبِّهًا نفسه بالقمر:

رَأَوا قَمَرًا بِساحَتِهِمْ مُنيرًا وَكَيْفَ يُقارِنُ القَمَرَ الحِمارا(١)

وقال عمر بن أبي ربيعة يفخر بنفسه، إذ يشبهها بالقمر في الرفعة والمكانة والشهرة والوسامة، وذلك على لسان نسوة أُولعن به:

بَيْنَما يَذْكُرْنَني أبْصَرْنَنـــــــي دونَ قَيْدِ المِيلِ يعدو بي الأَغَر

قُلْنَ: تعرفْنَ الفتى؟ قلنَ: نعمْ قدْ عَرَفْنَاهُ، وهلْ يَخْفَى القَمَر(٢)

وبالنظر إلى صورة القمر الفخريّة، نلحظ أنّ الوضوح والظهور والمرتبـــة الرفيعـــة والمكانـــة العالية، كلّها صفات القمر الذي تحَمّل صفات الشعراء في عباءته.

---

(١) انظر، أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغاني،١٩٦٣، دار إحياء التراث العربي، ج٨ص١٨٩

(٢) ابن أبي ربيعة، عمر، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ص١٥١

هـ) الهجاء

تحدّثت سابقًا عن أنسنة القمر، وبينت كيف أن الشعراء أسقطوا على هذا الكائن السماويّ صفات إنسانيّة، ووظفوه في سائر أغراضهم ومضامينهم الشعريّة، وهو وإن كان صورة لممدوحيهم في غرض المدح، وصورة لمعشوقاتهم في غرض الغزل، وصورة لكبريائهم وسموّ مكانتهم في الفخر، إلا أنه سيكون ذاته في الهجاء أكثر من أن يكون صورة لإنسان مهجوّ.

لذا فإن المهجوّ هنا هو القمر ذاته، وعلى الرغم من طرافة الفكرة، إلا أن الانعكاسات النفسيّة للموجودات على الشّعراء تلبس لبوس رؤيتهم الخاصّة، وقد تكون تلك الرؤية ثابتة أحيانًا ولكنّها في الأغلب متغيرة، فقد يذمّ الشّاعر القمر، ثم يعود فيمدحه من خلال إسقاط صفات محمودة على الممدوح .

ولم يكن ذلك حكرًا على الشّعراء، فقد كانت العرب " تقول في ذم الهلال إذا رأته: لا مرحبا بحجين محل الدين ومقرب الحين. قالوا: وفي القمر عيوب عدة: لونه لون الأبرص ووجهه وجه المجذوم يحل الدين ويعجل كراء المسكن، وينهك الأبدان ويُخْلِق الكتان وينم على العاشق ويفضح السارق"(١).

فهذا ابن المعتز يتخيّر صفات معيبة للانقضاض على المهجوّ، فيراه سارقًا، ومثكّلا، ومنغصًّا، ولا يكتفي بذلك ، بل به ينقص ضياء الشّمس، وهو المصاب بالبهاق ، وجلده أبرص، وهو توصيف للنكات السوداء على صفحته، يقول:

---

(١) ابن منظور، نثار الأزهار ص٦٦ وحجين يقصد به الهلال، والحَين : الموت، والبرص والجذام أمراض جلدية، والكراء : أجرة السكن، وينمّ : يكشف

يا سارقَ الأنوارِ من شمسِ الضُّحى　　يا مُثكِلي طيبَ الكَرَى ومُنَغِّصي

أما ضياءُ الشمسِ فيــكَ فناقـــصٌ　　وأرى حرارةَ نارِها لم تَنْقُصِ

لم يظفرِ التشبيهُ منــكَ بطائــــلٍ　　مُتَسَلِّخٌ بَهَقًا كلونِ الأبرصِ(١)

وأما علي بن سعيد فيرى في وجه البدر كدوحًا تستحق الوصم:

يذلُّ وجْهــي إلــى لَئِيـــمْ　　أَمَــرّ مِــنْ وقْفَــةِ الْــــوَدَاعْ

والبدرُ فــي وجْهِــهِ كُــدُوحْ　　حينَ احْتَذَى الشَّمْسَ في الشُّعاعْ(٢)

ولابن الروميّ مقطوعة اتّخذت من ذمّ القمر محورًا لها *:

رُبَّ عِرْضٍ مُنَزَّهٍ عــن قبيــحٍ　　دنّستهُ مُعَرِّضاتُ الهجــاءِ١

لو أراد الأديبُ أن يهجُــوَ البد　　رَ رماهُ بالخُطَّةِ الشَّنعــاءِ٢

قال يا بدرُ أنت تغــدرُ بالســا　　ري وتُزري بزَوْرة الحسناءِ٣

كَلَفٌ في شُحوب وجهك يَحْكي　　نُكَتــاً فوق وَجْنَةٍ بَرْصــاءِ٤

يَعتريكَ المَحَاقُ ثم يخلِّيــــ　　ــكَ شبيهَ القُلامة الحَجْناءِ٥

ويَليكَ النُّقصانُ في آخرِ الشهــ　　ــرِ فيمحوكَ من أديمِ السماءِ

فإذا البدرُ نيلَ بالهجوِ هل يأ　　مَنُ ذو الفضلِ ألسُنَ الشعراءِ؟

لا لأجلِ المديحِ بلْ خيفة الهجــ　　ــوِ أخَذْنا جوائــزَ الخُلفــاءِ

---

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجزء الثاني، ص٥٤٩

(٢) ابن منظور، نثار الأزهار ، ص٦٦

* ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق عبدالأمير علي مهنا ج١ ، ص١٢١

١ منزه: مبرأ

٢ الحطة : النقيصة – الشنعاء: القبيحة

٣- تزري : تعيب

٤- الكلف تغير اللون، النكت النقط السود، البرص البياض

وفي التذكرة الحمدونية، قال أعرابي:

لقد سَرَّني أنَّ الهلالَ غديَّةً ... مضى وهوَ محقورُ الخَيالِ دَقيقُ

طواهُ مرورُ الشَّهْرِ حتَّى كَأَنَّهُ ... عنانٌ لواهُ باليـــــدينِ رقيقُ[١]

وبالنظر في الأبيات السابقة، نجد أنّ الهجاء بما هو مضادّ للمدح، ينفي عن صاحبه كل الصفات الّتي يتحلّى بها الممدوح، فيتحوّل الكلام من مدح إلى قدح، ويكون المهجوّ مجرّدًا من كلّ القيم التي تتجلّى في الممدوح، وهذا التجرّد ليس بالـضرورة أن يكـون حقيقيًّا، كما أنّ التحلّي ليس بالضرورة أن يكون واقعيًّا، بل هما منسجمان مـع نظـرة الشاعر، تلك النظرة التي تحكمها قوانين شعريّة ..

والجديد هنا، أنّ القمر لم يوظّف مشبّهًا به كما سـلف فـي الأغـراض الأخـرى، فالمهجوّ غالبًا ليس نقيض الممدوح الذي يشبه القمر، بل هو القمر نفـسه، ممّـا يلفـت الانتباه إلى قضيّة ربّما تكون غائبة في الدراسات الشعريّة، وهي هجاء الطبيعة بمعالمها الصامتة والناطقة، الأرضيّة والسماويّة، وأرى أن هذا الموضوع يستحق الدرس، ولنـا في شاعرين كبيرين هما ابن الرومي والمعري نماذج لذلك.

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، ١٩٩٦، دار صادر، بيروت ، ص١٢٤

و) العتاب

لا يخلو شعر العتاب من المجاملات الّتي تتضمّن بواعث الشكوى، وتتأطّر غالبًا بإطار المدح، لذا فإنّ الحضور القمريّ في هذا الغرض لا يعدو كونه امتدادًا لأغراض أخرى، ولكن بعضه يتّخذ من العتاب ذاته صورة قمريّة غاية في الجمال، كما هو الحال بين ذي الوزارتين أبي عامر وابن زيدون، فقد بعث الأول قصيدة للثاني يعاتبه فيها على الهجر والانقطاع على الرغم من قرب المسافة، وعدم المشقّة في الحضور، مستعيرًا لهذه الحال صورة القمر ببدره وسراره، ليكون البدرُ هو الهجر، بينما يكون الحضور للسرار:

تَبَاعَدْنَا عَلى قُربِ الجِوَار　　　كَأَنَّا صَدَّنا شَحْطُ المزارِ

تَطَلَّعَ لي هلالُ الهجرِ بدرًا　　　وصارَ هلالُ وصْلِكَ في سرارِ

وشاعَ شنيعُ وصْلِكَ لي وَهَجْرِي　　　فَهَلا كانَ ذلكَ في اسْتِتَارِ(١)

فيردّ عليه ابن زيدون في قصيدة جاء فيها:

هوايَ وإنْ تناءَتْ عنكَ داري　　　كمِثْلِ هَوايَ في حَالِ الجِوارِ

مقيمٌ لا تغيِّره عَوادٍ　　　تباعد بينَ أحيانِ المزارِ

رأيْتُكَ قُلْتَ: إنَّ الوَصْلَ بَدْرٌ　　　متى خَلَتِ البدورُ مِنَ السَّرارِ؟(٢)

في هذين النموذجين مثال على ما يستحقّ أن يسمّى عتاب القمر، إذ إنّ المعاتب هو القمر ذاته متجليا في صفات المتعاتبين، فالأوّل يعاتب في غياب البدر ، وقد صوّر هجره بالهلال، بينما هلال الوصل في سراره، ليردّ ابن زيدون ردًّا لطيفًا مستمدًّا من طمأنينة القمر ذاته، فيرى أنّ الوصل بدر حقًّا، ولكنَّ من سنة البدور السّرار، وهذا لا يعيبها ولا يقدح في صدق مواعدها.

---

(١) ابن زيدون، ديوان ابن زيدون ص ٢٧٦

(٢) نفسه ص ٢٧٧

ز) مشبهات أخرى

لم يقتصر التشبيه بالقمر على الأغراض الشعريّة المعروفة، بل تجاوز ذلك إلى مضامين جديدة غاية في الندرة والغرابة، ولا سيّما في العصور المتأخّرة،" فمن الذي يعرف الشّعر العربي وينسى تشبيه ابن الرومي لرقاقة الخبز أو قطعة العجينة في يد الخبّاز، حين يشبهها بالقمر في تحدّ شامخ لتاريخ التسامي الرومانسيّ الأرستقراطيّ في تصوير رمز مثل القمر؟! "(١)

ومَن الّذي ينكر دور التفاوت الاجتماعيّ والثقافيّ والبيئيّ والنفسيّ في نظرة الشّعراء إلى الطبيعة ووصف موجوداتها، أوليس الشّعراء أنفسهم يدركون هذه الفوارق؟ ونحن بدورنا ألا نلمس تلك الفوارق في شعرهم؟ أما رأى ابن الروميّ أنّ ابن المعتزّ في أوصافه للقمر إنّما يصف ماعون بيته؟

ربّما كان في التشبيهات المختلفة التي رأيناها في تعاطي الشعراء مع القمر إجابات على هذه الأسئلة، وفي التشبيهات غير المألوفة أيضا ما يبيّن تفاوت هذه النظرة، ومن تلك التشبيهات الغريبة ما نلمسه لدى المعرّي في كثير من مواقفه القمريّة، فانظر إليه وقد شبه الهلال بالضلع:

وما الهلالُ بظُفْرِ الليثِ ترهبُهُ　　　لكنّه من بقايا آكلٍ ضِلَعُ(٢)

وهو هنا " يشبه الهلال بالضلع لاتفاقهما في الانحناء والاعوجاج، واختيار المشبّه به (الضلع) في هذا المقام مقصود لا لمجرد تحقيق الشبه الشكلي، ولكن لنزع الرهبة التي يحسّ بها الناظر عندما يتوهّم أنّ الهلال مخلب ليث ــ بل هو على النقيض من ذلك ــ ضعيف مستحقر إذا نظر إليه باعتباره بقايا ضلع التهمه الآكل الشره، ولم يدعه إلا عظمًا مهشّمًا."(٣)

---

(١) البازعي، سعد، أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر، مجلة القافلة، ص٩٤

(٢) الفهيد، جاسم حمد، التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء ص٢٨

(٣) نفسه ص٢٨

وأما السري الرفاء فيشبه الرمح بالهلال وذلك لانحنائه وتقوسه من كثرة الطعان:

وأزرقَ كالشِّهــابِ إذا حَنــاهُ دِراكُ الطعْنِ غادَرَهُ هِــلالا[١]

ويشبه أبو تمام الإسلام بالبدر الذي اكتمل بعد ما عبثت به أيدي الكفر وجعلته محاقا، وقد جاء ذلك في سياق مدحه للخليفة المعتصم:

أمسى بِكَ الإِسْلامُ بَدْرًا بَعْدَ ما مُحِقَتْ بَشَاشَتُهُ مَحَاقَ هِــلالِ

أَكْمَلْتَ مِنْهُ بَعْدَ نَقْــصٍ كُلَّمَــا نَقَصَتْهُ أَيْدِي الكُفْرِ بعْدَ كَمَالِ[٢]

وهذا عامر العدواني يشبه حواجبه بعد كبر سنه بالهلال:

أَظَلُّ أُراعِــي بِهِــنَّ النُّجومَ أَرَاها هِلالا عَلا فاستقامــــا[٣]

وابن الرومي يشبه الذكر بالسرار الذي يتحول إلى بدر كامل بعد أن قال فيه شعرا:

صادفْتُ ذِكْــرَكَ كالسَّــــرا رِ فَقُلْــتُ فيكَ فصارَ بَــدْرا[٤]

وقال في قصيدة أخرى في الإطار نفسه:

نَبَّهْتُ ذِكْرَكَ حتى عادَ خامِلُهُ بدرًا وكانَ سَرارًا دونَهُ سِتْرُ[٥]

وفي تحد صارخ للقيمة الجمالية للقمر ، نجد بعض الشعراء يشبه به الرغيف، ببعده المادي، في استدراته وتقويره، وبعده الاجتماعي الذي يتمثل في تحــول القيمــة عنــد الاحتياج إلى الطعام، وهذا أحد الشعراء يشبه الرغيف بالبدر، يقول:

---

(١) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، ص٣٥٥

(٢) أبو تمام ، ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام ، ج٣، ص ١٤٤

(٣) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، ص١٢٤

(٤) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، ج٣ ص١٨٨

(٥) نفسه ص٢٧٦

يا صاحبَ البيتِ الــذي قــدْ ماتَ ضَيْفاهُ جميعًا

مالي أَرى فَلَكَ الرَّغيــ ــفِ لديْكَ مُشْتَرِفًا رفيعًــا

كالبدرِ لا نرجو إلـــــى وقــتِ المساءِ لَهُ طُلوعًا

ويرى الجرجاني هنا أنه شبه الرغيف بالبدر لعلتين: إحداهما الاستدارة ، والثانية طلوعه مساء.[٢]

هذه بعض النماذج لتشبيهات غريبة كان القمر محورًا لها، وهي ليست غريبة بذاتها، وإنّمــا تنبع الغرابة في الاستخدام نفسه، ولو تتبّعنا الصّورة القمريّة في أمّهات الكتب لوجــدنا صــورًا إضافيّة أخرى قد تبدو أكثر غرائبية.

(١) انظر الأبيات في ، الجرجاني، عبدالقاهر، أسرار البلاغة، ص٣٨٤

الفصل الثالث

الشعراء الأكثر احتفاء بالقمر

في

الشعر العربيّ

المبحث الأوّل:

القمر في شعر ابن المعتزّ (ت٢٩٦هـ)

تعدّدت الأغراض الشعريّة التي كتب فيها ابن المعتزّ؛ منها: المدح والفخر والغزل والهجاء والرثاء والوصف، فكان شعره عمومًا مرآة لحياته، وحياة عصرٍ غلب عليه التجديد والتعقيد.

وكان الوصف من أهمّ الأغراض الشعريّة التي برع فيها، وهو وإن لم يكن غرضًا مستقلاً في كثير من الأحيان، إلاّ أنّه يُعدُّ ملمحًا بارزًا يَسِمُ شعر ابن المعتزّ بِمَيْسَم الإبداع، ولا سيّما في تصوير مظاهر الطبيعة السماويّة.

ولعلّ ابن المعتزّ الهارب من الواقع- على الرغم من منزلته الأرستقراطية- باحثًا عن جماليّات كونيّة بعيدة عن عبث البشريّة، يرى في الطبيعة السماويّة بدائل حَيّةً بصورها المشرقة أحيانًا والقاتمة أحيانًا أخرى، فيحاول بشعره سَبْرَ أغوارها، والتماهي مع كينوناتها، حتّى دخلت في معظم أغراضه الشعريّة، وتفنَّن بوصفها، فكانت صوره ثريّةً ومُركَّبةً ومتداخلةً.

وابن المعتز " يُحبُّ الطبيعة يفتتن بها، لكنّه حين يتعلَّق بها تستهويه الصورة قبل كل شيء، فيُعنَى برسم الشكل الخلاّب. وشعره آيات على إرهافِ حاسّةِ البصر، وحُسن استقباله للألوان والأشكال، ودقّة إخراجه للصور والأمثال. وهو في إخراجه للصور يحتال ويتألّق ويتأنّق، ويكتفي بالإشارة عن الإطناب ، ويستخدم براعات عجيبة."[١]

---

(١) نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، ط٢، د ت، دار المعارف، ص١٨٧

ولمّا كان الوصف هو أنسب الأغراض الشعريّة لمعالجة صورة القمر في الشّعر، من حيث هو استقصاء لمعاني الموصوف ومعالمه "كان أكثر وصف الشعراء إنّما يقع على الأشياء المُركَّبة من ضروب المعاني، وكان أحسنهم وصفًا مَن أتى في شعره أكثر المعاني التي الموصوف بها مُركَّب فيها، ثم بأظهرها فيه وأولاها به، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته"(١).

وعلى الرغم من أنَّ هذه النظرة للوصف تُواكب الشعر القديم عمومًا، إلاّ أنَّ العصر العباسيَّ أخذ ينحو منحىً آخر، ولا سيّما على ألسنة شعراء امتازوا بأحاسيسهم ومشاعرهم الخاصّة التي أسقطوها على موصوفاتهم، فظهرت عندنا صور جديدة سواء على المنظور الماديّ أو المنظور المعنويّ.

وعند ابن المعتزّ صور فريدة ومتنوّعة للقمر، فقد ورد في شعره ما يربو على إحدى وتسعين مرة، ممّا يسمح لنا بالقول: إنَّ الحضور القمري ظاهرة عامّة في شعره، ولم يكن ذلك الحضور لمجرد الاستخدام اللغويّ، بل كان في تشكيلات وصور بديعة يرسمها الشاعر للأشياء أو يرسم الأشياء لها.

وفي ما يأتي عدد من الأبيات والمقطوعات التي اعتنى فيها ابن المعتز بالقمر.

---

(١) ابن رشيق، أبو على الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج٢ ص٢٩٥

(أ)

أَهْلاً بِفطـــــرٍ قد أنارَ هلالُهُ فالآنَ فاغدُ على المُدامِ وَبَكِّرِ

وانظُرْ إليه كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ قد أَثْقَلَتْهُ حُمولةٌ من عَنْبَرِ[١]

هذه المقطوعة هي أحد النماذج التي استلهم فيها ابن المعتز صورة القمرعنـــدما يكـــون هلالاً، وتنبع أهميّتها من كونها جاءت خالصة لهذه الغاية، ولم تأتِ عرضًا في بطون القـــصائد والأغراض الشعريّة الأخرى.

وهي صورة تتّسم بالعمق والتمدُّد، وتحظى بعنايةٍ فائقةٍ، ونظرةٍ بعيدة المرمى، فالشاعر في البيت الأوّل يُرحّب بالفِطر الذي لا يتأكَّد إلا بظهور الهلال، وهذا الظهـــور، وإن لـــم يكـــن مكتملاً ، إلاّ أنّه يحمل دلالةً زمنيّةً تُنبئ بانقضاء شهرٍ من الصوم والامتناع عن الملذات، لِيُبشِّر بدلالةٍ زمنيَّةٍ أخرى هي الإفطار المرتبط بالغدوّ والتبكير، والاجتماع مع الأصـــحاب والأنـــس بهم.

أمّا البيت الثاني فقد كان مثقلا بالمُحسِّنات البديعيّة، ولا غرو في ذلك، إذ كان ابن المعتز مولعًا بالبديع، مبدعا فيه، ومؤسسًا لكثير من فنونه، وهو هنا يرسم صورة الهلالَ المُقوَّس مشبّهًا له بالزورق وهذا الزورق لونه أبيض، وهو في عرض البحر، ووسط ظلمة الليل المحيطة بـــه كأنّه يحمل عنبرًا، فالعنبر أسود اللون، ولكنّه يحمل حضورًا ينبع من انتشار رائحتـــه الـــشذيّة، ليبدو لنا الشاعر بانيًا لمجموعة من التشبيهات المركبة، فقد قدّم تشبيهًا للهـــلال وتـــشبيهًا ثانيًـــا للزورق، وتشبيهًا آخر للّيل.

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق د . يونس السامرائي ج٢ص٥٩١

والنّاظر في هذه المقطوعة يجد أنّها تحمل أبعادًا لونيّةً وماديّةً أعمق من مجرَّد التــشابه في الشكل، إذ إنَّ الهلال مُقوَّس والزورق كذلك، والهلال يلمع بنــوره الفــضّي وكــذلك لــون الزورق، فضلاً عن أنَّ الوسط الذي يسبح فيه كل منهما يتمتَّع باللون ذاته، ولكنَّ عُمق الصورة ينبع من البُعد الزمنيّ للظهور والغياب، فظهور الهلال سابحًا في كبد السماء يُبشِّر بانقضاء فترةٍ زمنيّةٍ ومجيء أخرى، ولكنَّ المسيرة مستمرّة، فهو سيختفي بمطلع النهار، وكذلك الزورق فهــو يظهر في عرض البحر سابحًا، ممّا يجعله يختفي عن الأعين عبر مسيرته الزمنيّة، وهي مسيرة ليست سريعة لأنَّ الحمولة ثقيلة، ولكن أية حمولة؟

*****

(ب)

انظرْ إلى حُسْنِ هِلالٍ بَــدا　　　يَهْتِكُ مِنْ أنوارِهِ الحِنْدِســـــا

كَمِنْجَلٍ قد صيغَ مِنْ فِضَّــةٍ　　　يَحْصُدُ من زَهْرِ الدُّجَى نَرجسا[١]

يرسم ابن المعتزّ في هذه اللوحة صورةً للهلال اللاّمع المُنير الذي يُبدِّد بــأنواره شــدَّة الظلام، ومِن حوله النجوم البيضاء اللاّمعة وهو يتبعها، ويُصوِّره بمنجلٍ مــن الفــضَّة يحــصد النرجس الأبيض.

وإذا ما وقفنا وقفةً مُتأنّيةً على هذين البيتين، نجد أنَّ الصورة لا تقــف عنــد الــدلالات الشكليّة واللونيّة حسب، لكن تتجاوزها إلى أبعاد أعمق. ففي استخدامه للفعل (انظر) دعـــــوةٌ

---

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجزء الثاني، ص٥٤٧.

للتأمُّل، عبر إرسال حركة العين لاستكشاف فضاءات الصورة، فيُعبِّر عن حُسن الهلال بالفعل الحركيِّ الرقيق (بدا)؛ ليُدلِّل على الظهور المتأنّي الهادي، ولكن ذلك البدو ينتج عنه فعلٌ حركيٌّ مُحمَّل بالعنف المستمر (يهتك)، وأداة الهتك هي الأنوار؛ لأنَّ المهتوك هو شدّة الظلام.

ثم ينتقل في البيت الثاني إلى رسم صورة ماديّة محسوسة يقارب بها الصورة الأولى غير المحسوسة، فالمنجل أداة الحصاد صيغ من الفضّة، والفعل (صيغ) يحمل دلالة فنيّة، لذا كانت مادته الفضّة، ولكنّ ما يقوم به هو فعل حادٌّ قاطع ، فهو يحصد أزهار النرجس.

والملاحظ أن ابن المعتز يستعير للمظهر الجمالي صيغة الماضي الدالة على اكتمال الإنجاز، بينما يستعمل مع المظهر الحركي صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وفي كلّ دعوة تأمُّليّة.

*****

(ج)

تَفْتَرُّ عَنْ وَجْنَةٍ حَمْراءَ مُوقَدَةٍ   تكادُ لَولا دموعُ العينِ تَحْتَرِقُ

كَأَنَّها حينَ تَبدو في مَحاسِنِها   بدرٌ تَمَزَّقَ في أَركانِهِ الغَسَقُ[١]

يرسم ابن المعتزّ في البيت الأوّل صورة لذات الوجنة الحمراء المتوقّدة، فيمزج بين اللون ومادّته، إذ كثيرًا ما يرتبط اللون الأحمر بالنّار وتوهّجها وألسنة لَهَبِها، ولمّا كان الماء أداة لإطفاء النّار، وإخباء حِدّة التوقّد، وتبريد شدّة الحَرّ والتوهُّج، فقد اتّخذ الشاعر من دموع العين مادّةً مناسبةً لإطفاء جذوة الاحتراق.

---

(١) انظر الحسين، أحمد جاسم، الشعرية : قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي ، ط١، ٢٠٠٠م، الأوائل للنشر والتوزيع، سورية، دمشق ، ص ٣٨

ونظرًا لعناية الشاعر بتفاصيل صُوره، وتركيزه على مختلف أبعاد الصورة، فقد وُفِّــق في اختيار العين لتتناسب مع الوجنة، فمن جهةٍ كلاهما مصدرٌ جماليٌّ للمرأة، ومن جهةٍ أخــرى تزداد الوجنةُ جمالاً باحمرارها وتوهُّجها، كما تزداد العين جلوًا وإشراقًا بعد أن تغتسل بالــدمع، ومن جهةٍ ثالثةٍ وقوع العين أعلى الوجنة ممّا يسمح لها بممارسة فعل الإطفاء بصورة طبيعيّة.

ولا يقف الشاعر عند هذا ، فيشبه ذات الوجنة الحمراء بالبدر الذي ينمزق حال ظهــوره الظلام، فظهورها في محاسنها يضفي جمالا على المحيط الذي توجد فيه، فالنور ينبعث من توقّد وجنتها، واكتمال زينتها، وكذا البدر فهو باعث للنور في محيطه وجاليا للظلام، فتتساوى المرأة والبدر في انبعاث الحركة التي تنمّ عن الحياة ،والظهور والوضوح التي ينجم عنهــا مجتمعــة تمزق الغسق، وكغيرها من الصور عند الشاعر، تتجلى ثنائية النور والظــلام، ومقــدرة الأول (البدر) على إذابة الثاني(الغسق)، بل إن الثاني يبدد نفسه بنفسه حينما يستشعر حضور الأوّل.

*****

(د)

غُصْنٌ يَهْتَزُّ في قَمَرٍ   راكضًا للوَشْيِ سَحَّابا[1]

تتكرَّر ثُنائيّة الغصن والقمر في غزليّات ابن المعتزّ، وهي ثُنائيّــة تكامليّــة تقتــضيها الصورة الجماليّة للمرأة وجهًا وقوامًا، فالغصن هو القوام الذي يتثنّى مياسًا راكضًا يجــرُّ ثوبًــا مُوشّىً، والقمر هو الوجه وهو منبع النّور والجمال عند اكتمال استدارته. والحركة هنا تفيــض

---

(١) ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، شرح يوسف شكري فرحات،ط١، ١٩٩٥،دار الجيل ، بيروت، ص٥٠

بها لغة الشاعر، فهو يحرص على أن يجعل الخبر جملة فعليّة أساسها الفعل المضارع الدالّ على الحركة (يهتزّ) والاستمراريّة التي لفتت الانتباه إلى سماته، إضافةً إلى تحويل وجهة الخطاب من الحديث عن الأسباب وحالته النفسيّة، إلى الحديث عن ذلك الغصن الراكض والمهتزّ والساحب للوشي. ولعلَّ لجوءه إلى الحذف، والتخفيف (سحابًا) والتقديم والتأخير(للوشي سحابًا / سحابًا للوشي) وبدء البيت بنكرة مفرد مذكر، ثم انتقاله إلى نكرتين مشتقتين (راكضًا / سحابًا) و(قمر) الاسم الجامد النكرة، و(الوشي) الاسم المعرفة المذكر، إضافة إلى جمل خبريّة واسميّة يحفز المقدرة الجماليّة للألفاظ، ومن ثم للتراكيب، وتنزاح إلى طريق غير مكرور.[١]

*****

(هـ)

وباتَ كما سَرَّ أعداءَهُ إذا رامَ قُوتاً من النومِ شَذّْ

تغرّزُهُ شَرَراتُ البَعوضِ في قمرٍ مثلِ ظَهْرِ الجُرَذْ[٢]

إنَّ احتفاء ابن المعتزّ بالقمر لم يكن على الصورة الإيجابيّة دائمًا، وهو ما يُعزِّز الرّد على

---

(١) انظر الحسين، أحمد جاسم، الشعرية : قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي ،ط١، ٢٠٠٠م، الأوائل للنشر والتوزيع، سورية ، دمشق، ص ٣٨

(٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجزء الثاني ، ص٥١٣

أولئك الذين ينظرون إلى صُوره القمريّة بأنّها صور أرستقراطيّة مُترَفة، فكثيرًا ما كُنّا نجد القمر عنده مرآةً لانعكاسات نفسه، بلحظات شعورها المختلفة، وهذا أيضًا لا يُمثّل قَدحًا في شــعره أو شخصيّته، فالشعر وليد انفعالات ومشاعر تطغى على الصور الماديّة ، وإن كانت تلبس لبوسها أحيانًا.

ومن هنا نجد هذين البيتين(١) يحملان صورةً جديدةً قد تبدو غريبة على شاعر أغدق من أوصاف الحُليّ والمجوهرات والأزهار وغيرها من مظاهر جماليّة على القمر، فنجــده فيهمــا بصورةٍ تثير فينا انفعالات ومشاعر سلبيّة خلفتها الصورة غير المرغوبة المقرونة به، فهو فــي تقوّسه كظهر الجرذ.

وإذا كان العدوّ يُسَرّ بانحدار قيمةِ عدوّه ومكانته، فإنَّ تطاير البعوض والتصاقه بظهر الجرذ، يحمل صورةً بائسةً مُحتقرَة لهذا الكائن الجماليّ، فينسلخ من جماله العلويّ، ليتّحد مــع مخلــوق أرضيّ ممتهن ومنفر.

---

(١) هناك صور أخرى كثيرة لدى ابن المعتز، تبدو فيها صورة القمر محقورة ومبتذلة انظر ص١٠ و ص٩٤-٩٥وص ١٥٨وص٥٣٤ وص ٥٤٩ من المصدر نفسه.

نظرة عامّة في قمر ابن المعتزّ

لم تكن مادّة القمر عند ابن المعتزّ ذات مستوى واحد، وإنّما جاءت ثريّةً متنوّعةً تتجاوب ومشاعره وأحاسيسه، وإن غلبت عليها المظاهر الحسيّة الماديّة التي ترجع " إلى كثرة مظـاهر الحضارة الحسيّة في عصره وبيئته، وإلى سكون قلبه إلى تَرَف الحياة وجمال الزخرف والحسي النفيس من مظاهر العيش، وإلى عاطفته الشعريّة التي كانت حريصة علـى أن تُمثِّـل جمـال الحضارة في صور من جمال الفن مصبوغة بصبغة حسيّة خالصة"(١).

والنماذج السابقة لا تعدو كونها غيضاً من فيض، من شعره القمريّ، الحافـل بـالألوان والماديّات، فقد "استعمل الأصباغ الحسيّة في وصفه وتصويره، وآثر منها الأصباغ التي تكثـر مشاهدته لها في قصور الخلفاء والأمراء من أسرته"(٢).

على أنَّ ذلك لا يعني وجود نمط واحد لوصفه للقمر، بل كان يراه مرآة لمشاعره التـي تعكس الشعور بثوب ماديّ، كما تعكس المادة بثوب شعوريّ، فانظر إليه يُشبّه القمر فـي حـال ظهور نصفه بمجرفة العطر، والمجرفة تستحضر في أذهاننا صورًا شتى للمـادة المجروفـة، والتي يستبعد أن يكون العطر أحدها، إلا إذا أدركنا أننا في قصر خليفة وابن خليفة، فعند ذلك قد نرى بركة من العطر إن كان سائلا، وكومة منه تجمعها الجواري بالمجـارف إن كـان علـى صورة حبيبات الرمل:

في قمرٍ مُسْتَرَقٍ نصفُهُ   كأنه مِجْرَفَةُ العطرِ(٣)

---

(١) خفاجي، محمد عبدالمنعم، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ط٢ ، ١٩٥٨، دار العهـد الجديـد للطباعة، ص ١٩٠.

(٢) نفسه ص ٣٠٣.

(٣) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجـزء الثـاني ، ص٥٢٦.

" وابن المعتزّ في تشبيهه مصوِّر بارع، ينقل لك بريشته على صفحات شعره البديع صورًا تُمثِّل ما يصوّره لك من أشياء، هو فنّي في تصويره، غنيّ بذهنه الخصب وخياله المصوّر الذي يقدر الأشياء ويقدر الصور بمقدارها، ثم يخرجها لك تشبيهات تمثل أصلها في كل خصائصه التي أرادها الشاعر، وصوره من أجلها، ممّا جعل تشبيهاته تمتاز بدقة التصوير، وهي ناحية تفوَّق فيها ابن المعتزّ، وبلغ فيها منتهى الإجادة، وتقدَّم بها كثيرًا من الشعراء الوصّافين: كان فطنًا دقيق الفطنة ملتفتًا إلى كل ما تتطلبه صوره الشعريّة من ألوان وأصباغ فهو يحكم ظلالها وأضواءها، ويلائم بين ألوانها وأشكالها، ويخرجها صورًا مكتملة الحياة في كل جزء من أجزائها"(١).

ونظراً لكون ابن المعتزّ يعشق القمر، ويهيم بالليل قمره ونجومه ومجالس شربه، فنجده يُحبّ احتساء شرابه ليلاً، ويكره الشراب في الصّباح، وربّما كان ذلك ما دعاه إلى تأليف أرجوزة في ذم الصبوح (الشُّرب في الصّباح)، ويقدّم الغبوق (الشُّرب ليلاً) ، فيستعذب قهوة المساء، فيرى الهلال وقد أسقط عليه نظرة خاصة، بصورة غريبة جديدة فيصوره بهام رجل أسود اللون وقد شابت لحيته:

وقَدْ بَدَتْ فوقَ الهلالِ كُرَتُه — كهامَةِ الأَسْوَدِ شابَتْ لِحْيَتُه

فَجَمَّشَ الدارَ ببعضِ نورِهِ — والليلُ قدْ رفَعَ منْ سُتورِه(٢)

---

(١) خفاجي، محمد عبدالمنعم، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، ص ٢٢٣.

(٢) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجزء الثاني، ص٤٨٩.

وقمر ابن المعتزّ ليس كقمر الآخرين، فقد شبّهه بالزورق المثقل بحمولة العنبر، وشبّهه بمنجل فضّي يحصد أزهار النرجس البيضاء، وشبّهه بترس اللجين وقلامــة الظفــر ومجرفــة العطر، وهامة الرجل الذي شابت لحيته، بل إنّه صوّره عند المحاق برجل تَبْيَضّ الشعرات فــي عوارضه:

يا صاحِ إنْ كُنْتَ لمْ تَعْلَمْ فقدْ طُفِئَتْ ... شرارَةُ الحُبِّ من قلبي وأحشائي

أما ترى البدرَ قدْ دامَ المحاقُ بِــهِ ... من بعدِ إشْراقٍ أنْوارٍ وأَضــــواءِ

وقدْ عَسَتْ شَعَراتٌ في عوارضِهِ ... تزري على عارضَيْهِ أَيَّ إزراءِ(١)

وعلى الرغم من تقديمه القمر على الشمس، وتقديمه الليل على النهار، إلا أنّه كثيرًا مــا افتتن بالشمس، لا بكونها قرصًا متفردًا، بل كونها حليفة القمر أحيانًا:

حتَّى رَأَيْتُ الشَّمْــسَ تتــ ... ــلو البدرَ في أُفقِ السَّماء

فكَأَنَّـــهُ وكَأَنَّــــــــها ... قدحانِ منْ خَمْرٍ ومَـــاء(٢)

وأُمًّا له أحيانًا أخرى:

وَقَهْوَةٍ صَفْراءَ مثل الورْسِ ... قدْ حُبِسَتْ في الدَّنِّ أَيَّ حَبْسِ

أُصْبِحُ أُسْقى كَأْسَها وأُمْسي ... في قمرٍ كَأَنَّهُ ابنُ شَمْسِ(٣)

ونظرة ابن المعتزّ للقمر، تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة ولا سيّما إذا اقترنــت بدراسة شاملة للنجوم والكواكب في شعره.

---

(١) الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق د. يونس السامرائي، الجــزء الثــاني، ص١٠ .

(٢) نفسه، ص٤٥٠.

(٣) نفسه ص ١٤٩.

قمر البحتريّ(ت ٢٨٤هـ)

اعتنى البحتريُّ بالقمر عنايةً فائقةً، فقد تكرَّر في شعره ما يربو على مئة وثمانين موقعًا، ولعلّ هذه العناية تنبع من أهمية هذا الكوكب في السماء الدنيا، ولا سيّما أنّه المصباح الذي ينير ليلهم، ويُبدِّد ظلامًا دامسًا يتّخذونه للأُنس والسهر والسفر.

والبحتريُّ هو أحد الرحّالة الذين كانوا يقصدون الممدوحين من أصحاب المراتب العُليا في شتّى الأماكن، وكثيرًا ما يُشبِّه ممدوحيه بالقمر، فقد شَبَّه المتوكل بالبدر عندما زار دمشق وأقام فيها شهرًا، مقاربًا صورته وطلعته بطلعة البدر:

هنيئًا لأَهْلِ الشَّامِ أنَّكَ سائرٌ ... إليهمْ مَسيرَ القَطْرِ يَتْبَعُهُ القَطْرُ

مضَى الشَّهرُ محمودًا ولوْ قالَ مُخْبِرًا ... لأثنى بِما أوليتَ أَيَّامَهُ الشَّهْرُ

تفيضُ كَما فاضَ الغَمامُ عَلَيْهم ... وتطلعُ فيهمْ مثلما يطلعُ البدرُ(١)

وهو يرى أنّه يظلم ممدوحه إذا شبّهه بالبدر أو الشمس، فهما يحتجبان، في حين أنَّ ممدوحه لا يغيب، كما أنَّ وجهه يفوق جمال البدر، لما في الأخير من نكات ولطخات تحدّ من صفائه:

ظَلَمْتُكَ إذْ شَبَّهْتُكَ البَدْرَ طالعًا ... وبالشَّمْسِ يَوْمَ الدَّجْنِ بيْنَ السَّحائِبِ

لأنَّ لِكُلٍّ منْهما وقتَ غَيْبَةٍ ... وأنَّكَ لا غُيِّبْتَ! لَسْتَ بِغائِبِ

وأَنَّ بوجهِ البدرِ محوًا ولَطْخَةً ... ووجْهُكَ ما فيهِ مُعابٌ لعائِبِ(٢)

---

(١) البحتري، ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ج٢، ص ٩٩٢

(٢) نفسه، ج١، ص٣٣٢

وبدر السماء عند البحتريّ يضلّ طريقه أمام ظهور البدور الأرضيّة:

ضلَّ بدرُ السَّماءِ أوْ كادَ لمَّا واجهتْهُ وجوهُ تلكَ البـــدورِ

اللواتي ينْظُرْنَ بالنَّظَرِ الفا ترِ من أَعيُنِ الظباءِ الحورِ[(١)]

ومن القصائد الرقيقة التي يكافئ بها القمرُ الممدوحَ لدى البحتريّ، قــصيدته فـــي وداع يوسف الثغريّ، الذي غاب مدّة شهر، مُستحضرًا فيها البحتريّ دورة القمـــر الـــشهريّة، تلــك القصيدة التي يمكن لنا أن نقرأها من منظور تأمليّ لصورة الحضور القمريّ ذاتـــه، وبالتـــالي انعكاس ذلك على صورة الممدوح، يقول فيها:

عَلَيكَ السَلامُ، أيّها القَمَرُ البَـــــدْرُ وَلا زَالَ مَعْمُوراً بِأيّامِــكَ العُمـــــْرُ

وَداعاً لشَهرٍ، إنّ مِنْ شاسعِ النّوَى على الكَبِدِ الحَرّى، إذا التهبتْ، شَهْرُ

هوَ اسمُ فِرَاقٍ طالَ أوْ قَصُرَ المَدى فللصّدْرِ مِنهُ ما يَحُزُّ لَهُ الصّــــــدْرُ

أنا الظّالِمُ المُختارُ فَقدَكَ عالِمــــاً بفَقْدِ اللُّهَى فيهِ، وَما ظَلَمَ الدّهــــرُ[(٢)]

يبدأ البحتري قصيدته هذه بالسلام على القمر في حال كونه مكتملاً، جاعلاً منه عمـــارًا لأيّام العمر، فبه تكتمل الأيّام، وبه تعمر الحياة، ولعلّ في تقديمه لشبه الجملـــة(عليـــك) دلالـــة خاصّة، فقد كان باستطاعته أن يطرح السلام بما هو عرف، فيقول: سلام عليك، دون أن يختلّ الوزن، ولكنّه آثر التقديم لإضفاء هالة من القداسة على المُسَلَّم عليه/ القمر – الممدوح.

---

(١) السابق، ج٢، ص٨٨٥

(٢) نفسه، ج٢ ، ص ٨٩٣

ثم لا يلبث أن يودّع شهرًا، كان به الفراق يفت بالكبد الحرّى، التي تنتظر انقضاء فتـــرة الشهر لرجوع القمر – الممدوح. ويبيِّن في البيت الثالث، أنَّ ذلك الشهر هو عنـــوان للفـــراق، سواء أطالت المدة أم قصرت، فإنَّ طولها وقصرها يتماشى مـــع الحالـــة النفـــسيّة للمنتظـــر – الشاعر.

ثم يرتد الشاعر إلى لوم نفسه لفقده الممدوح– القمر، فلا يُلقي اللوم على الدهر، بل يُلقيه على نفسه.

وقد وظَّف البحتريّ القمر في الغزل، فنجده يُشبّه المحبوبة بدارة القمر إلاّ أنّها تزداد جمالاً وبهاءً:

النفسُ منْ فقدِها حرَّى مُولَّهَة   لا في القبورِ ولا تحيا مع البشرِ

اللهُ أَصفى لها ودّي فَصَوَّرَها   حسناءَ تَقْصُرُ عنْها دارةُ القمرِ(١)

وطيف المحبوبة يتجاوز بجماله القمر الساري، بل إنّه يُشْكِل في طلعته على البحتريّ:

لأَشْكَلَ القمرُ الساري عليَّ فمـــــا   بيَّنْتُ طَلْعَتَهُ من طيفِكَ الساري

إذ ضارعَ البدر في حُسْنٍ وفي صِفَةٍ   وطالَعَ البدرَ في وقتٍ ومِقدارِ(٢)

فالبحتريُّ من الشعراء الذين أكثروا من وصف القمر، وأغدقوا عليـــه مـــن تـــشبيهاتهم واستعاراتهم، فاحتلّ المرتبة الأولى بين الكواكب والنجوم والأنواء(٣)، فتنوّعت صُوره، وتمدَّدت أحيانًا وتقلَّصت أخرى، حتى تراها في البيت والبيتين تتناثر في أرجاء الديوان.

---

(١) البحتري، ديوان البحتري، ج٢، ص ١٠٩٧

(٢) نفسه ، ج٢، ص ٨٥٨–٨٥٩

(٣) انظر ربابعة، حسن محمد علي، الصورة الفنية في شعر البحتري، د ط، ٢٠٠٠م، المركز القومي للنـــشر، إربد الأردن، ص٥٢٨.

قمر ابن الروميّ(ت٢٨٣هـ)

في مبحث سابق تحدَّثتُ عن قمر ابن المعتزّ، وقلتُ: إنّه غالبًا ما يستمدّ صورة قمره من البيئة الماديّة الأرستقراطية التي كان يعيش فيها، ولكنّ ابن الروميّ الذي نيل من شأن صـــوره وأهميّتها، مقارنة بصور ابن المعتز، يرى أنَّ الأخير يصف ماعون بيته.

فقد قيل له: لِمَ لا نجد عندك من التشبيهات الرائعة ما نجده عند ابن المعتزّ؟ فقال: حيث يقول ماذا؟ فأُجيب: حيث يقول مصوّرًا الهلال:

انظُرْ إليهِ كَزورَقٍ منْ فِضَّةٍ   قد أثْقَلَتْهُ حمولةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فقال ابن الروميّ مقالةً جَنَتْ لاحقاً على ابن المعتزّ- لأنّها نَمَّطَته في الإطـــار المـــشار إليه- : وا غوثاه، إنّه يصف ماعون بيته. أي أنّه أمير مُرَفَّه يرى الفضّة والعنبر فيُشبّه بهما. (١)

(أ)

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ به   يدحو الرقاقةَ وشكَ اللمح بالبصرِ

ما بينَ رؤيْتِها في كَفِّهِ كـــُرَةً   وبينَ رؤيتِها قوراءَ كالقمـــــــرِ

إلا بمقدارِ ما تنداحُ دائـــــِرةٌ   فى لجَّةِ الماءِ يُلقى فيه بالحَجَرِ(٢)

يصوِّر ابن الروميّ في هذه الأبيات سرعة عمل خبّاز ماهر، يُحوِّل الرقـــــــــاقة في

(١) انظر مقدمة: بابنجي، ليلى سالم،الوصف في شعر عبدالله بن المعتز، رسالة ماجستير، ١٩٨٩م، جامعـــة أم القرى، مكة المكرمة.

(٢) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق عبدالأمير مهنا،ج٣، ص١٩٧.

لحظة من كرة إلى دائرة قوراء، وفي ذلك يتحدّى ابن الروميّ تلك النظرة السائدة عند العربـــيّ لصورة القمر وقيمته الجماليّة، فيوظِّف تصويرًا فريدًا، إذ يُشبِّه رغيف الخبز بالقمر، وإن كانت الصورة قد تشترك في الاستدارة، إلاّ أنّها تحمل بُعدًا بلوريتاريّـــاً أمـــام صـــور ابـــن المعتـــزّ الأرستقراطية.

فالخبّاز هو العامل الماهر، الذي يشقى ويكتوي بِحَرّ التنّور لإخـــراج رغيـــف الخبـــز، والرّغيف هو طبق الفقراء وقوتهم، وأمام الجوع تتوقّف المادة الجماليّة عاجزةً عـــن اســـتلاب القلوب، لأنّ القيمة تصبح في الحفاظ على مادّة الحياة ذاتها.

والفاصل الزمنيّ بين الرّغيف والقمر ليس بعيدًا، وهنا يُمكن تصوّر حركة اتّساع المـــاء بصورة دائريّة عند رميه بالحجر، فهذا الحجر يحمل بُعدًا ماديًّا مُغايرًا لآنية ابن المعتز، وهـــو يتماهى مع أساس الحياة ببعده الجمالي لا ببعده الحياتي، فالماء وإن كان أساس الحياة، إلاّ أنّـــه يتساوى فيه الفقير والغنيّ، لكنّ المادّة التي ترسم زينته هي الحجر ذاته.

(ب)

قلتُ لمَّا بدا الهلالُ ضئيـــــلاً ... قدْ كَسَتْهُ سُرَى ثلاثينَ ضُمْـــرا

عَجَباً للهلالِ كيفَ اسْتَهَلَـــــوّ ... هُ هلالاً هَـــلاّ اسْتهلّوهُ بَـــــدْرا

كانَ لمَّا بدا وأنتَ أميـــــــــرٌ ... مستحقًّا أنْ يَبْهَرَ الشَّمْسَ فَخْرا

كيفَ لمْ يسبقِ المواقيتَ بدراً ... كيفَ لم يقْهَرِ المقاديرَ قهـــــرا

غيرَ أنَّ الأُمورَ تجري على ما ... قدَّر اللهُ وهو أحسنُ قَـــــدْرا[1]

(١) السابق ج٣، ص٣١

في هذه الأبيات وقفة تأمليّة سماويّة اقتضتها صورة أرضيّة، فالشاعر عندما ينظر للهلال الضّامر الهزيل يتعجَّب كيف لم يَبْدُ بدرًا؟ فعندما بدا كان جديرًا به أن يبدو مكتملاً- حاله في ذلك حال الممدوح- ليباهي الشمسَ ويبهرَها. بل إنَّ الشاعرَ يعجب لهذا الهلال كيف لم يسبق مواقيته؟ في إشارة إلى ضرورة تحدّي المقادير وقهرها، لولا أنّها تجري بأمر الله، ولا يستطيع شيء قهرها.

(ج)

عُقِدَ التاجُ منه فوقَ هــــلالٍ	**ليس مثلَ الهلالِ في النُّقصانِ**
بل هو البدرُ كلّلتْهُ سعـــودٌ	**طالعاتٌ في ليلةٍ إضحيـــانِ**
فاستوى فوقَ عَرْشِه بوقـارٍ	**وبحلمٍ من الحُلومِ الــرِّزانِ**
وأصاختْ لَهُ السماواتُ والأرْ	**ضُ ومن فيهما من السكانِ**
ثم قام المُمجَّدون مثــــولاً	**ضاربينَ الصدورَ بالأذقانِ**
ليسَ من كبرياءَ فيهِ ولكــنْ	**كلُّ وجهٍ لذلك الوجهِ عانِ(١)**

إذا كان الشاعر يطلب من الهلال تحدّي القدر في مقطوعته السابقة، فإنّه هنا يوغل أكثر عندما تتسرّب انبعاثات من بقايا أناس عبدوا القمر في العصور القديمة. فالبدر تُكلّله السعود في ليلة إضحيان، ليستوي على عرشه وقورًا رزينًا في صفات الملوك، أو أعلى مكانة، بل إنّه يتجاوز ذلك كله ليُنصبّه معبودًا تصيخ لأوامره السموات والأرض،، ومن ثم يقف بين يديه المُمجّدون مطأطئي الرؤوس.

---

(١) نفسه ، ج٦، ٢٣١

وكل ذلك لا يكون لتكبّر فيه، فليس من صفاته الكبر، على الرغم من ترفّعه، فكلّ الوجوه تعنو لوجهه، وذا البيت يجعل من القمر إلهاً يتربَّع على عرشه وتعنو له الجباه.

ومع أنَّ ابن الروميّ لا يرى ذلك حقيقة، فهو وإن غلا في مدحه في المقطوعة السابقة ، إلا أنّه عاد وأخبر أنَّ اكتمال البدر أو عدمه بقدر الله وأمره، ولكنّه في هذه الأبيات يغلو في ذكر ممدوحه، فينعكس ذلك الغلوّ على بثّ بقايا ورواسب من ثقافات مضت، تتسرب في الشعر دون قصد أو غاية في التأليه.

(د)

إني سألتُ ابنَ أبي طاهـــرٍ لِمْ تنْبَحُ البدرَ إذا مــا بَهَـــرْ

فقالَ لي أحسدُهُ حُسنَـــــــَهُ وأنَّهُ عالٍ يفــوقُ البشـــــرْ

قلتُ فإنَّ الشَّمسَ قد أُوتيتْ هذا وما تَنْبَــحُ غيرَ القمـــــرْ

فقالَ يُعْشِي بَصَري ضووُها وليسَ ضَوْءُ البدرِ يُعشي البصرْ[١]

على الرّغم من أنَّ هذه الأبيات في هجاء ابن أبي طاهر، إلاّ أنّها تحمل تصويرًا مثاليًّـا للقمر. ولمّا كان البدر يُسمّى باهرًا لأنّه يبهر النجوم والكواكب بنوره إذا ما اكتملت إنارته، فإنّهَ أمام هذا الاكتمال، وشدّة الإنارة تنبحه الكلاب.

وهنا يسأل الشاعرُ ابنَ أبي طاهر: لِمَ تَنْبَحُ البدر؟ فتكون الإجابة طريفة، إذ لم يمـتعض ولم يُنكر ذلك، بل يدّعي بكل هدوء، أنّه ينبحه حسدًا لسببين؛ الأوّل: لِحُسْنه، والآخـر: لِعُلـوّه وتفوّقه على البشر. وعندما أشار الشاعر إلى ما أوتيته الشمس من إضاءة وعلوّ وحُسن، ومـع ذلك لا ينبحها، أجاب: بتفوّق نور القمر، فهو لا يُعشي البصر، بينـــما يُعشي ضوءُ الشمس

(١) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق عبدالأمير مهنا،ج٣، ص٩٤.

البصر، وفي ذلك إشارة إلى المقدرة على تأمّل القمر، والتفكّر في جماليّات نوره، ممّا لا يتيسر للبشر مع الشّمس.

***

يبدو شعر ابن الروميّ في القمر متنوّعًا شاملاً، يرصده في كل تحوّلاته، ومنازله، يراقبه، ويُسقط عليه من مشاعره وأحاسيسه، وهو " يصدر في ما يقوله عن شعور مرهف إلاّ أنّ هذا الشعور لم يكن ينطلق عفويًّا، بل يستلمه العقل بالتحليل والتعليل والمقارنة والمناقشة حتى تختفي حدّة الشعور وراء برودة التفكير"[١].

(١) مقدمة المحقق، ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق عبدالأمير علي مهنا، ج١ ، ص١٥.

قمر المعرّيّ(ت٤٤٩هـ)

تكرّرت صورة القمر بأطواره المختلفة عند أبي العلاء المعرّيّ ما يربو على المئة مرّة، وعلى الرغم من أنّه كان ضريرًا، إلاّ أنّ الشكل واللون استحوذا على كثير من تجليّات القمر لديه، فضلاً عن تركيزه في كثير من الصور أيضًا على المرتبة والحركة.

ففي مجال المدح شبَّه ممدوحه كثير التّرحال بحثًا عن المجد والرفعة بالقمر الدائب الحركة بين النجوم قائلاً:

أراكَ في الأرضِ سيارًا إلى شرفٍ كما شبيهُكَ في الآفاقِ سيَّارُ

كأنّكَ البدرُ والدنيا منازِلُهُ فما تَليقُكَ إلا ليلةً دارُ[١]

فهذه الحركة من منزل إلى آخر في الأرض، هي ذاتها حركة القمر من منزلة إلى أخرى كل ليلة في السماء.

وفي مجال التأمّل، يرى البدر أسيرًا للظلام، وذلك عندما يطول به الليل، فيراه ثقيلاً، ويراه يكبل البدر، وهي صورة فريدة ، يقول:

وباتتْ تُراعي البدرَ وهو كأنَهُ من الخوفِ لاقى بالكمالِ سِرارا

تأخَّرَ عن جيشِ الصباحِ لضُعفِهِ فأوثَقَهُ جيشُ الظلامِ إسارا[٢]

وهو هنا يبني فكرته على " التضاد بين الليل والنهار حيث يذهب أحدهما عند إقبال الآخر، ولذلك جعلهما بمنزلة جيشين التقيا فهزم جيشُ الليل جيشَ النهار وأخذ البدر أسيرًا وأوثقه."[٣]

---

(١) المعري، سقط الزند، ص ١٨٨ وتليقك تمسكك

(٢) نفسه ص ١١١-١١٢

(٣) الفهيد ، جاسم حمد، التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء ص٣٢

وفي السياق ذاته يقول في قصيدة أخرى:

كأَنَّ الزِّبرقانَ بها أسيرٌ تُجُنِّبَ لا يُفَكُّ ولا يُفادى[(١)]

فالزبرقان وهو اسم من أسماء القمر – كما مرّ معنا في الفصل الأول– أسير لا سبيل إلى فكّ قيوده، كما لا يُقبَل له فداء.

وهو يُشبّه طباع الممدوح التي لا تخلو من الزيغ بالهلال الذي على الرغم من سموّه ورفعته وعلوّ مكانته، إلا أنّه ليس كاملاً، فهو مُقوَّس ومعوجّ:

وفي طباعِكَ زَيْغٌ والهلالُ على سُمُوِّهِ حِلْفُ تَقويسٍ وتعويجِ[(٢)]

ومن الصور الغريبة للبدر عنده تشبيهه بالحارس أو الشرطيّ الذي يقوم على حفظ الأمن في الليل:

مَلِكٌ أَنشأَ السماواتِ فالبــَـدْ رُ لَدَيْهِ في صورةِ الجِلْــوازِ

كمْ لَهُ كوكبٌ أَبَرَّ وَأَزَّ النــــا س حتَّى سَطا على أبْــرِوازِ[(٣)]

" فالبدر هنا شرطيٌّ يحرس السماء، وهي صورة تخيليّة، إذ لا شَبَهَ ظاهرًا بين الاثنين، غير أنَّ مسيرة البدر المتنقّلة من منزل إلى آخر كل ليلة، واقتصار ظهوره على الليل، يكشف عن نوع المشابهة بينهما، فالشرطيّ (المشبّه به) تكثر حركته عادةً في الليل لحفظ الأمن؛ لأنّه مظنة السرقة وفرصة اللصوص .كما أنّه يتنقّل في حركة دائبة من مكان لآخر للغرض ذاته"[(٤)].

وللمعرّيّ موقفه من العالم العلويّ، وهو موقف متسائل وحــائر فــي آن، يتفقــد الطبيعــة وينقدها، ويرى أنه لا بدّ لها من تأثيرات في بنية الكون، فلا بدّ من وجود أثر لهذه الكائنــــات

---

(١) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، سقط الزند، ص ٢٠٠

(٢) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، اللزوميات ،ج ١، ص ١٨١

(٣) نفسه ج٢، ص٨، وأبر غلب، وأزّ الشيء حركه بعنف وأبرواز ملك من ملوك الفرس

(٤) الفهيد، جاسم حمد،التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء ص٢٨

العلويّة على الحياة الأرضيَّة، كلّ هذا يجعله يتساءل عن عقلها، وعن مقدرتها على فهم نفسها قبل أن تفهم الآخرين، بل ويزيد من تشكّكه في سؤال إذا ما كانت تسمع، أو تعاين ، أو تعاني، أو تتذوّق، أو غير ذلك من السّمات، التي تجعله يشكّ في إمكانية قدرتها على الفعل الأرضي، إذا كانت تفتقر إلى مقدرتها على الفعل في ذاتها، يقول:

لقدْ عِشْتُ الكثيرَ مِنَ الليالي ولم أرْقُبْ متى يَقَعُ الكُسُوفُ

فهلْ لِطوالِعِ الأقمارِ عَقْلٌ فَتَعْلَمَ حينَ يُدركُها الخُسوفُ

أَتَسْمَعُ، أو تعايِنُ، أو تُعاني بَلاءً، أو تَذَوَّقُ، أو تَسُوفُ[(١)]

وفي صورة أخرى يرسم لنا صورة لامرأة تتمنّع من وصاله ، وتجادله في ذلك، وبالطبع فإنّ محاور الطبيعة السماوية هي العناصر الأكثر تبلورًا في هذا الحوار، ولا سيّما قمرها المطلّ من علٍ:

هيَ قالتْ لمَّا رأتْ شَيْبَ رأْسِي وأرادَتْ تَنَكُّرًا وازْوِرارا

أَنا بدْرٌ وقدْ بدا الصُّبْحُ في رأْ سِكَ والصّبْحُ يطرُدُ الأَقمارا

لسْتِ بدْرًا وإنَّما أنتِ شمسٌ لا تُرى في الدجى وتبدو نهارا[(٢)]

وهو هنا يعلّل " تنكّرها له، وتجافيها عنه، بأنّها بدر والبدر لا يظهر إلا ليلا، والشيب الذي بدا في رأسه هو كالصبح، الذي لا يجتمع بالأقمار، بل يطردها بطلوعه، وقد أفلت أبو العلاء من عقال إلزام هذا القياس الجدلي، بنقض مقدمته الأولى، إذ نازع في كونها بدرًا في الأصل، بل

---

(١) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله، اللزوميات، ج٢، ص ٢٧٨، وتسوف : تشمّ

(٢) المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبدالله، سقط الزند، ص٢٠٧

هي كالشمس التي تفوق البدر نورًا وحسنًا، وإذا كانت كذلك فإنَّها لا تطلع إلا نهارًا، ومن ثمّ لا سبب يحول دون اجتماعها به، لأن الصبح لا يطرد الشمس." (١)

وللمعرّيّ صور كثيرة يتعاطى فيها القمر، ويسبغ فيها عليه ألوانًا وأشـــكالا لـــم يبـــصرها بعينيه، بل ببصيرته، تلك البصيرة التي جعلته يصف المحسوسات الماديّة وصفًا حـــسيًّا حينًـــا، ومعنويًا أحيانا أخرى، وهو في كل ذلك على اتصال مباشر بمحيطنا الكونيّ، يرقبه، ويتأملـــه، ويحاوره.

---

(١) الفهيد ، جاسم حمد، التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العلاء المعري، ص١٠٢

قمر ابن خفاجة(ت٥٣٣هـ)

وقف ابن خفاجة عند كثير من مظاهر الطبيعة الصامتة فاستنطقها، وأسبغ عليها من مشاعره وأحاسيسه، وجعلها تشاركه أفراحه وأتراحه، ومن ذلك قصيدته المشهورة في وصف الجبل، التي مطلعها:

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدري أهوجُ الجَنائِبِ   تَخُبُّ برَحْلي أم ظُهورُ النجائِبِ؟(١)

ولكنّ الجبل ليس وحده الذي يتربَّع على عرش الموصوفات لدى ابن خفاجة، فهناك كائنات سماويّة، تُطلُّ من عليائها، فتنبري لها عيون المتأمِّل، ومن تلك الكائنات التي تحظى بعلاقة مستمرّة ومُحبّبة لدى البشرِ القمرُ، فقد كانت قصائده حافلةً بالحضور القمريّ بمستوياته المختلفة وتسمياته المتنوّعة، ولم يكن ذلك الحضور الذي يربو على الخمسين بيتًا ومقطوعةً حضورًا عابرًا، بل كان مقصودًا لذاته في كثير منها، ومحورًا للتفكّر والتأمّل والمناجاة في كثير أيضًا.

ومن شعره التأمّليّ قصيدته في القمر، فجعل يتأمّل الدورة التي تعتري القمر بالنقصان والكمال, والاختفاء والظهور. ولم تكن قصيدته هذه وحيدة في الرؤية والطرح، فقد كان القمر حاضرًا في قصائده المختلفة، ولكنّ ذلك الحضور لم يكن لاستحضار صور الموصوف وتقريبها فحسب، وإنّما كان وصفه – عمومًا – يميل إلى الوصف الوجدانيّ، إذ " يتخطّى الشاعر حدود الظاهرة وينيط بها مفهومًا شعريًّا جديدًا هو امتداد من المفهوم العام أو تأويل له ".(٢)

---

(١) ابن خفاجة ، ديوان ابن خفاجة ص ٤٧ . وهوج الجنائب : الرّياح الجنوبيّة الشّديدة ، وتَخُبّ : تضرب والنجائب : النوق .

(٢) الحاوي، إيليا سليم، فن الوصف وتطوره في الأدب العربي، ط٢، ١٩٩٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت ص ١٢

فشاعر الوصف الوجدانيّ يُعبِّر عن ذاته، ويُعطي الطبيعة الجامدة الحركة والحياة والنشاط، فالوجود عنده كائن حَيّ ناطقٌ وضاحكٌ وباكٍ يشعر بالألم والفرح وغيرها.

نجوى القمر*

لَقَد أصَختُ إلى نجواكَ مِن قَمَرٍ	**وبتُّ أُدلجُ بَينَ الوَعيِ والنَّظَرِ** [١]
لا أجتَلي مُلْحةً حَتَّى أعي مُلَحاً	**عَدلاً مِنَ الحُكمِ بَينَ السَّمعِ والبَصَرِ** [٢]
وَقد مَلأتَ سَوادَ العينِ مِن وَضحٍ	**فَقَرِّطِ السَّمعَ قُرطَ الأُنسِ مِن سَمَرِ** [٣]
فَلَو جَمَعتَ إلى حُسنٍ مُحاوَرَةً	**حُزتَ الجَمالينِ مِن خُبرٍ وَمِن خَبَرِ** [٤]
وإن صَمَمتَ فَفي مَرآك لي عِظَةٌ	**قَد أفصَحت لِيَ عَنها ألسُنُ العِبَرِ** [٥]
تَمُرُّ مِن ناقِصٍ حَوراً ومُكتملٍ	**كَوراً، وَمِن مُرتقٍ طَوراً، ومُنحَدرِ** [٦]
والنَّاسُ مِن مُعرِضٍ يَلهو ومُلتفِتٍ	**يَرعَى، ومِن ذاهِلٍ يَنسى، وَمُدَّكِرِ**
يلهُو بساحاتِ أقوامٍ تُحدِّثُنا	**وَقد قضوا، فمضوا، إنَّا عَلَى الأثَرِ** [٧]
فَإن بَكَيتُ، وَقَد يَبكي الخليل، فَعَن	**شَجوٍ، يُفَجِّرُ عَينَ الماءِ في الحَجَرِ** [٨]

*ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيق عبدالله سندة ص١٣٩-١٤٠

(١) أصخت: أصغيت – أدلج: أسير ليلا

(٢) الملح الأولى: بياض الشيب والثانية الكلام الحسن وفي ديوان ابن خفاجة تحقيق سيد مصطفى غازي ص١٣٠ وردت الأولى (لُمحا) وأراه أصوب.

(٣) القرط: مايعلق في أذن المرأة من حلي

(٤) الخُبر: جمال المنظر والخَبَر جمال النفس

(٥) صممت: أصبت بالصمم ووردت في تحقيق سيد مصطفى غازي ص ١٣٠ صمتً – العبر: العظات

(٦) الحور والكور، بالفتح، : النقص بعد الزيادة

(٧) في تحقيق سيد مصطفى غازي وردت (نلهو)

(٨) في التحقيق السابق وردت (وقد يبكي الجليد) أي الصبور

في هذه القصيدة نجد الشاعر يُشخِّص القمر، ويخاطبه بوصفه عاقلاً ماثلاً أمامه، وهو يبدو وقورًا صامتًا، لا يُحسن الكلام، إذ لا صوتَ له، ولكنّه يُقدّم العبرة والعظة، فيكون الصمتُ أبلغ من الكلام. والقمر بنظرته العلويّة المتأمّلة يحمل لنا قصّة حياة، فهو يحمل لنا دلالة زمنيّة بالحضور والغياب، والزيادة والنقصان، وهي مقاربة لحياة الإنسان المنسجمة نموًّا وموتًا مع ولادة القمر واختفائه .

فابن خفاجة يستمع إلى نجوى القمر، وبعد إيغال النظرة، يعود متأمّلاً ذاته، وهو يوائم بين ما يسمعه ويبصره، ولا يكتفي بالنظرة السريعة حتى يعي بهجتها وجمالها.

فالقمر عنده يملأ العين جمالاً ووضوحًا، وهو بذلك أهل للمحاورة، مع أنّه لا يملأ الأذن سمعًا، إذ إنّه لا يتكلم، ولا يمرّ حواره إلا عبر صمته، فيطلب منه كما ملأ العينَ جمالاً أن يملأ الأذن أيضًا، وجمال الأذن يكمن في كمال زينتها التي لا تتأتى إلا بالقرط، والقرط الذي يريد هو الأنس والصوت الرخيم والمسامرة الدافئة.

وأمام هذا الحسن يتمنّى على القمر أن يتبعه بحسن الحوار، ليحوز الجَماليْن: جمال مادّته وجمال أخباره، ولكنّ الصمت أيضًا هو نوع من المحاورة التي يُتقنها هذا الكائن الجماليّ، فهو ينطق بالموعظة، إذ يُطلُّ على الأرض من عليائه، مراقبًا منذ القدم، يحتفظ بأسرار الكائنات الأرضيّة التي يرقب حركاتها وسكناتها دون الحاجة إلى البوح.

وعندما يلوذ بصمته، فإنّه في منازله المختلفة، وتحوّلاته الدائمة، ينوء بحِملٍ كبيرٍ من الكلام، لا بصوته وإنّما بصورته، ويُقدِّم رسالة واضحة للبشريّة، فمن نقص إلى اكتمال، ومن ارتقاء إلى انحدار، وتلك حالات تستوجب التأمّل، فهي شبيهة بمراحل نموّ الإنسان، إذ يبدأ

صغيرًا ويكتمل شابًا، ثم لا يلبث أن يعود كهلاً.. وإن كان الإنسان يحصده الموت، فإنَّ القمــر يتجدّد ولا يلبث أن يعود سيرته الأولى..

ولعلّ هذه الأبيات تُذكّرنا بتلك المقطوعة للشاعر الجاهليّ حنظلة الطائيّ التي مرّت بنــا في المبحث الثاني من الفصل الأوّل، إذ يُشبّه فيها الشاعر القمر بمراحلــه المختلفــة بالإنــسان بمراحل عُمره المختلفة ايضًا، داعيًا إلى التأمّل و العبرة والعظة.

ومع ذلك فابن خفاجة يرى الناس في ذهول وإعراض وغفلة، وقليل من يَعتبر ويــتّعظ منهم، مع أنّهم يَعون فناء الأقوام السابقة، وابن خفاجة والحال هذه، يلجأ إلى البكاء العميق الذي يجلو الشجون، ويفتق الينابيع من بين الصخور.

*****

ومع أن ابن خفاجة سَبَرَ أغوار القمر بفكره الوثّاب وتأمّله العميق، وإحساسه المرهــف، إلاّ أنّه لم يغفل عن التشبيهات المتداولة للقمر في الشعر العربيّ، فقد تردّدت صور القمــر فــي أكثر من غرض من أغراضه الشعريّة، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصيدة طويلة يمدح بها أبــا الحسن ابن الربيع صاحب قرطبة *:

فاستهجنَتْ حَمْلَ الثريا تُومةً   واستصغَرَتْ لُبْسَ الهلال سِوارا

فهو هنا يؤنسن الهلال، فيصوّره بأنّه يلبس السوار، لينتقل في باب المقارنة بينه وبين ممدوحه:

فمن المُنى، وهو الغزالةُ سُنَّةً،   لو أنني كنتُ الهلالَ سِرارا

---

*انظر ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، القصيدة ص١٦٣ الأبيات ٤٠/٣٨/٣٦ واستهجنت: استقبحت، والتومــة: القرط، والغزالة: الشمس

فإذا كانت طلعة الممدوح تُشبه الشمس، فإنَّ ضوء القمر معها يختفي، فيتمنّى الشاعر لو أنّه كان كسرار القمر أمام هذا الظهور العظيم.

ثم ينتقل بعدها إلى عشيرة الممدوح، فيراهم قد طلعوا بدورًا من أوّل لياليهم، في حين يطلع البدر هلالاً ثم يكتمل بدرًا:

وكفاكَ أَنَّكَ منْ بُدورِ معاشرٍ، طلعُوا، لأَوَّلِ ليلةٍ، أَقمارا

***

هذا بعض من الحضور القمريّ في شعر ابن خفاجة، والمتتبع لديوانه يجد عشرات الصور أيضًا، متناثرة في ثنايا قصائده، ولعلّ قصيدته في وصف القمر هي التي ميزته بالتفرّد في إبداع قصيدة كاملة خاصة بهذا الكوكب.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض لصورة القمر في الشعر العربيّ القديم، يتبيَّن لنا ذلك المقام الرفيع، وتلك الحظوة الكبيرة، التي احتلّها الحضور القمريّ في الشعر القديم، كما يتبيَّن لنا ذلك التعسّف الذي يفترض سلفًا قصور الشعر القديم عن الاحتفاء بهذا الكوكب، مُشيراً إلى أنَّ هذه الدراسة كانت قد توصّلت في هذا الصّدد إلى عددٍ من النتائج:

- للقمر أهميّة كبيرة في حياة العربيّ عمومًا انعكست على ثقافته وفكره ومعتقداته، وأخذت مجالات متنوّعة في السَّرد والتدوين الثقافيّ العربيّ.
- يتجلّى الحضور القمريّ في الشعر القديم ثقافيًّا وجماليًّا، فقد رأينا كيف تجلّى في نظرات الشعراء ومواقفهم الواقعيّة والجماليّة والنفسيّة والفكريّة والعقديّة، وكان ذلك التجلّي ثريًّا ومتنوّعًا وغزيرًا.
- تداول الشعراء القدامى عمومًا الصور الجماليّة للقمر، ولم تكن صورته نمطيّة كما يتخيّل البعض، وإنّما كانت ذات أبعاد عميقة، إذ كان القمر محورًا للتشبيه ولم يقتصر على كونه مُشبّهًا به، والمُشبَّه حُكْمًا هو العمدة المقصود لذاته، وإنّما تستحضر صورة المُشبَّه به لجلاء أوصاف المُشبَّه.
- كان القمر حاضرًا في مختلف الأغراض الشعريّة، ولم يقتصر على المدح والغزل والرثاء كما يرى البعض.
- إنَّ عدم تفرّد القمر بقصائد كاملة في الشعر القديم ولا سيّما الجاهليّ منه، لا يعني عدم الاهتمام به، إذ إنّ القصيدة القديمة كانت ذات طابع تعدّديّ، فهي لا تحمل غرضًا بعينه، بل تتنوَّع مضامينها؛ ليكون الحضور القمريّ وافرًا كغيره من مضامين الطبيعة.

- هناك شعراء كبار احتفوا بالقمر، وقدّموا لنا نماذج رائعة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الخمسة الذين قُمتُ بدراسة نماذج لهم في هذه الرسالة، وهم: ابن المعتزّ، والبحتريّ، وابن الروميّ، والمعرّيّ، وابن خفاجة .
- تتفاوت نظرة الشعراء للقمر حسب المواقف النفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة، وقد يكون التفاوت لدى الشاعر الواحد في المواقف المختلفة.

وبعد، فإنّني أرى أنَّ هناك مادّة خصبة، يمكن أن يكون القمر محورًا لدراستها مستقبلاً، وهي مادّة قابلة للدراسة على مستوى الشاعر الواحد عند بعض الشعراء، أو على مستوى العصر الأدبيّ، إذ إنَّ اتّساع رقعة هذه الرسالة جغرافيًّا وزمنيًّا، جعلها تحاول اكتناه الوجود القمريّ في الشعر، وتتّبعه ظاهريًا، أكثر من الغوص في أعماقه.

واللهَ أسأل أن أكون قد وُفّقت.

قائمة المصادر والمراجع

- الأخطل، غياث بن غوث ، شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق فخرالدين قباوة، ط٤، ١٩٩٦م، دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر بيروت.
- الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمد محمد حسين، د ط، ١٩٥٠م، المطبعة النموذجية، مصر.
- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في أحوال العرب، تحقيق محمد الأثري، ط٣، د ت، مطابع دار الكتاب، مصر.
- البابنجي، ليلى سالم،الوصف في شعر عبدالله بن المعتز، رسالة ماجستير، ١٩٨٩م، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- البازعي، سعد، أقمار يضيئها الشعر، أم أشعار يضيئها القمر، مجلة القافلة، أرامكو، الظهران، المجلد الرابع، العدد ٥٢، ص ٨٩-٩٦، ٢٠٠٣م.
- الباهلي، عمرو بن أحمر ، ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، تحقيق حسين عطوان، د ط، د ت، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- البحتري، ديوان البحتري ، الوليد بن عبيد، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط٣، ١٩٦٤، دار المعارف، القاهرة.
- البدوي، خليل، موسوعة دار المعارف الشاملة / الموسوعة الفلكية، ط ١، ١٩٩٩م، دار عالم الثقافة ، عمان، الأردن.
- البربري، سابق بن عبدالله، شعرسابق بن عبدالله البربري، تحقيق بدر أحمد ضيف، د ط، ١٩٨٧م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية .

- ابن برد، بشار، ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر بن عاشــور، د ط، ١٩٦٦م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، مصر.
- البطل، علي، الصورة في الشعر الجاهلي، ط٣ ، ١٩٨٣م، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.
- أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوان أبي تمام بشرح التبريزي، تحقيق محمد عبده عــزام، ط٣، د ت، دار المعارف، مصر.
- التيمي، عمر بن لجأ، شعرعمر بن لجــأ التيمــي، يحيــى الجبــوري، د ط،١٩٧٦م، منشورات جامعة بغداد، بغداد.
- ابن ثابت، حسان، شرح ديوان حسان بن ثابت، لعبدالرحمن البرقــوقي، د ط، ١٩٢٩م، المكتبة التجارية الكبرى، طبعة المطبعة الرحمانية بمصر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البخلاء ، تحقيق طــه الحــاجري، د ط، د.ت، دار المعارف، مصر.
- الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد ، أسرار البلاغة، قــرأه وعلّــق عليــه محمود محمد شاكر، د ط، د ت، مطبعة المدني في القاهرة، ودار المدني في جدّة.
- جميل بثينة، جميل بن معمر، ديوان جميل بثينة،د ط، د ت، دار صادر، بيروت.
- الجهاد، هلال: جماليات الشعر العربي: دراسة في فلسفة الجمال في الــوعي الــشعري الجاهلي، ط١، ٢٠٠٧ م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت .
- الجهم، علي، ديوان علي بن الجهم، د ط، د ت، دار صادر، بيروت .
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢، ١٩٧٨م، دار العلم للملايين، بيروت.

- ابن الجوزية ، شمس الدين أبو عبدالله محمد، أخبار النساء، تحقيق محمد نزار رضـــا، ١٩٧٨م، دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح، تحقيق أحمـــد عبـــدالغفور عطـــار، ط ٢، ١٩٨٢م، دار الكتب ، مصر.
- الحاوي، إيليا سليم، فن الوصف وتطوره في الأدب العربي، ط٢، ١٩٩٨، دار الكتـــاب اللبناني بيروت
- حتي، فيليب ، تاريخ العرب المطول، ط٣ ، ١٩٦١، دار الكشاف ، بيروت.
- ابن حجر، أوس، ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، د ط ، ١٩٦٠م، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
- أبو الحسن التهامي، ديوان التهامي، تحقيق علي نجيب عطوي، ١٩٨٦دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان .
- الحسين، أحمد جاسم، الشعرية :قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي ،ط١، ٢٠٠٠م، الأوائل للنشر والتوزيع، سورية دمشق.
- الحطيئة، جرول بن أوس، ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت، دراسة وتبويـــب مفيـــد قميحة، ط١ ، ١٩٩٣م، دار صادر، بيروت .
- الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد، ديوان أبي فراس الحمـــداني، تقـــديم وشـــرح عبدالقادر محمد مايو، ط١، ٢٠٠٠م، دار القلم العربي، سوريا.
- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عباس، ١٩٩٦، دار صادر، بيروت.
- الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب، تحقيق عـــصام شـــعيتو، ط١، ١٩٨٧م، دار مكتبـــة الهلال، مصر.

- الخطفى ، جرير ابن عطية ، ديوان جرير، شـرح يوسـف عيـد، ط١، ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت .
- ابن خفاجة، ديوان ابن خفاجة، تحقيـق عبـدالله سـندة، ط ١، ٢٠٠٦م، دار المعرفـة بيروت.
- الخفاجي، محمد عبدالمنعم، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيـان، ط٢ ، ١٩٥٨، دار العهد الجديد للطباعة.
- الخنساء، تماضر بنت عمر، ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه حمـدو طمّـاس، ط٢، ٢٠٠٤م، دار المعرفة ، لبنان.
- ابن دانيال، المختار من شعر ابن دانيال لصلاح الدين الصفدي، تحقيق محمـد نـايف الدليمي، د ط، ١٩٧٩م، مكتبة البسام، الموصل.
- الدمشقي، الوأواء، ديوانه تحقيق سامي الدهان، ط١٩٩٣،٢م ، دار صادر، بيروت.
- الديلمي، مهيار ، ديوان مهيار الديلمي، ط١، ١٩٢٦، دار الكتب المصرية بالقاهرة .
- ذو الرمة ، غيلان بن عقبة ، ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، كتب مقدمتـه وهوامشه وفهارسه مجيد طراد، ط٢، ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الراعي النميري، عبيد بن حصين من ديوان الراعي النميري، شرح واضـح الـصمد، ط١، ١٩٩٥،دار الجيل ، بيروت.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفـضل، محاضـرات الأدبـاء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، ط ١، ١٩٩٩م، دار الأرقم، بيروت.
- الربابعة، حسن محمد علي، الصورة الفنية في شعر البحتري، المركز القومي للنشر، د ط ،٢٠٠٠م ، إربد الأردن.

- الرباعي، عبد القادر، شاعر السمو زهير بن أبي سلمى الصورة الفنية في شعره، ط١، ٢٠٠٦، جدارا للكتاب العالمي، عمان.
- ابن أبي ربيعة، عمر، شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط٢، ١٩٦٠م، مطبعة السعادة، مصر.
- ابن ربيعة، لبيد بن مالك العامري ، ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به: حمدو طماس، ط ١، ٢٠٠٤م، دار المعرفة، بيروت.
- ابن رشيق ،أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد عبدالحميد، ط٤ ، ١٩٧٢م، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق عبدالأمير علي مهنا ، ط١، ١٩٩١، دار مكتبة الهلال، بيروت.
- زاهر، جمال ، شعر الوأواء الدمشقي، دراسة فنية، ط١، ٢٠٠٧م، دار الوفاء، الاسكندرية.
- زكريا محمد: ذات النحيين؛ الأمثال الجاهلية بين الطقس والأسطورة، ط١، ٢٠١١م الأهلية للنشر والتوزيع، عمان.
- زكي، أحمد كمال، الأساطير دراسة حضارية مقارنة،ط٢، ١٩٧٩م، دار العودة، بيروت.
- الزمخشري ، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، د.ط، ١٩٧٩م، دار العودة ، بيروت.
- ابن الزيّات، محمد بن عبدالملك، ديوان الوزير محمد بن عبدالملك ابن الزيات، تحقيق جميل سعيد، د ط، د ت، المجمع الثقافي، مصر.

- ابن زيدون، أحمد بن عبدالله، ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب عبدالله سندة، ط١، ٢٠٠٥م، دار المعرفة، بيروت .
- ابن الساعاتي، ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدسي، الطبعة الأميركانية ، ١٩٣٨ ، بيروت.
- السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، تقديم وشرح كرم البستاني ، ط١، ١٩٩٦،دار صادر، بيروت.
- سعيد بن حميد، رسائل سعيد بن حميد وأشعاره، تحقيق يونس السامرائي،د ط، ١٩٧١م، مطبعة الإرشاد ، بغداد .
- ابن السكيت، يعقوب بن إسحق ، إصلاح المنطق ،تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هرون، دط، دت ، دار المعارف بمصر.
- ابن أبي سلمى، زهير، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس ثعلب، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه حنا نصر حتي ، د ط، ٢٠٠٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- سويلم، أنور عليان، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، ط ١، ١٩٨٣م، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض .
- السيد الحميري، ديوان السيد الحميري، تقديم نواف الجراح، ط١، ١٩٩٩م ، دار صادر، بيروت .
- شامي، يحيى عبد الأمير : النجوم في الشعر العربي القديم(حتى أواخر العصر الأموي)، ط١، ١٩٨٢م ،منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

- الشريف العقيلي، علي بن الحسين، ديوان الشريف العقيلي، زكي المحاسني، دط،دت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .
- الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، ديوان الشنفرى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط٢، ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي ، بيروت.
- الشورى، مصطفى عبدالشافي ، الشعر الجاهلي تفسير أسطوري، ط١، ١٩٦٦م، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.
- شوشة، فاروق، أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي، ط١، ١٩٩١م، دار الشروق، بيروت.
- شيخو، لويس ، رياض الأدب في مراثي شواعر العرب، جمع وضبط وتعليق لويس شيخو، د ط، ١٨٩٧م، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- صريع الغواني، مسلم بن الوليد، شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان، دط، دت، دار المعارف ، مصر .
- ابن الصمّة، دريد، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق محمد البقاعي ، د ط، ١٩٨١ ، دار قتيبة، دمشق .
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، ديوان شعر ابن المعتز، تحقيق يونس السامرائي، ط١، ١٩٩٧م ،عالم الكتب ، بيروت لبنان.
- أبو طالب،عبد مناف بن عبدالمطلب، ديوان أبي طالب عم الرسول -ﷺ-، جمعه وشرحه د. محمد التونجي، ط١ ،١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- الطغرائي ، أبو إسماعيل الحسين بن علي، ديوان الطغرائي، تحقيق على جواد الطاهر ويحيى الجبوري، د ط ، ١٩٧٦م ، وزارة الإعلام، العراق.

- الطيب، عبدالله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب، ط ١، ١٩٧٠، دار الفكر، بيروت.
- ابن ظافر، علي بن ظافر المصري، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تحقيق زغلول سلام ومصطفى الجويني، ١٩٨٣، دار المعارف ، القاهرة.
- ابن العبد، طرفة، ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به حمدو طماس، ط١، ٢٠٠٣ ، دار المعرفة، بيروت.
- عبد الخالق، محمود، ديوان ابن الفارض تحقيق ودراسة نقدية، د ط، د ت، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.
- عبدالرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، ط٢، ١٩٨٢م، مكتبة الأقصى ، عمان .
- العبسي ، عنترة بن شداد، ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طرَاد، ط١، ١٩٩٢م ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب في الجاهلية ودلالاتها، ط١، ١٩٩٤، دار الفارابي، بيروت.
- العرجي، عبدالله بن عمر، ديوان العرجي، تحقيق سجيع جميل الجبيلي، ط١، ١٩٩٨، دار صادر، بيروت.
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله ، شعر أبي هلال العسكري، تحقيق محسن غياض، ط ١، ١٩٧٥ م، منشورات عويدات، بيروت.
- العلوي, هادي, المنتخب من اللزوميّات, ط١, ١٩٩٠, مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكيّة في العالم العربي, دمشق.

- فتح الباب ، حسن ، صورة الهلال في الشعر، المجلة العربية ، الرياض، العـــدد٢٨٣، ص ٦٤–٧٨، ٢٠٠٠م.
- أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين، الأغـــاني، د ط، ١٩٦٣، دار إحيـــاء التـــراث العربي، القاهرة.
- الفرزدق، همام بن غالب ، ديوان الفرزدق، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، ط ١، ١٩٩٧م، دار الأرقم، بيروت، لبنان.
- الفهيد, جاسم سليمان حمد, التوظيف الفني للنجوم والكواكب في شعر أبي العـــلاء، ط١، ٢٠٠٥م، دار حوليات الآداب والعلوم الاجتماعيّة, جامعة الكويت، الكويت.
- القالي، أبوعلي ، إسماعيل بن القاســم، الأمـــالي ، د ط، د ت ، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت، لبنان.
- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم ، الأنواء في مواســم العـــرب،د ط، ١٩٨٨، وزارة الثقافـــة والإعلام ، بغداد .
- ابن قلاقس، نصر بن عبدالله، ديوان ابن قلاقس، تحقيق سهام الفريح، ط ١ ، ١٩٨٨م، مكتبة المعلا ، الكويت.
- القمر علم وأخبار وأشعار، ملف العدد، مجلة القافلة، أرامكو، الظهران، المجلد الرابع، العدد ٥٢، ص٨٤–٨٩، ٢٠٠٣م.
- ابن قميئة ، عمرو، ديوان عمرو بن قميئة، تحقيـــق حـــسن الـــصيرفي، القـــاهرة، د ط،١٩٦٥م، معهد المخطوطات،القاهرة.
- ابن قيس الرقيات، عبيدالله، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم، د. ط، د. ت، دار صادر، بيروت.

- كثير عزة، كثير بن عبدالرحمن، ديوان كثير عزة ، جمعه وشرحه إحسان عباس، د ط،١٩٧١م، دار الثقافة ، بيروت.
- كشاجم الرملي، محمود بن الحسين، ديوان كشاجم، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، ١٩٩٧م، مكتبة الخانجي ، القاهرة.
- ابن كلثوم ، عمرو، ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط٢،١٩٩٦م، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ماضية ،بيانكا ، نقلا عن أحمد زياد محبك، الموقف من القمر.. في الشعر العربي المعاصر، جريدة الجماهير،حلب ،٢٠٠٨/٢/١٨م، العدد١٤٤٥، ص ٣١ .
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، شرح ديوان المتنبي للعكبري، ضبطه وصححه كمال طالب، ط١، ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت .
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد، الأزمنة والأمكنة ، ط١، ١٣٣٢هـ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف، الهند.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٣، ١٩٥٦، مطبعة السعادة، مصر.
- مسلم، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، ط١، ١٩٢٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، شرح يوسف شكري فرحات، ط١، ١٩٩٥، دار الجيل، بيروت.
- ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار فراج، د ط ، د ت ، دار المعارف، مصر .

- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله ، سقط الزند، دار بيـــروت ودار صـــادر ، د ط، ١٩٥٧م، بيروت .
- المعري، أبو العلاء، أحمد بن عبدالله، اللزوميات، تحقيق سيدة حامد وآخـــرين،د ط، د ت، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم ، كتاب نثار الأزهار في الليل والنهار، ، د ط ،١٩٨٣م، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم، لـــسان العـــرب، د.ط، د.ت، دار صادر، بيروت.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال ، تحقيـــق قـــصي الحـــسين، د ط، ٢٠٠٣م، دار مكتبة الهلال ، بيروت .
- أبو نؤاس، ديوان أبي نؤاس، ط١، ٢٠٠١م، دار صادر، بيروت .
- النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه حمدو طماس، ط٢، ٢٠٠٥م، دار المعرفة ، بيروت.
- ابن ندبة، خفاف، شعرخفاف بن ندبة، جمعه وحققه نـــوري حمـــودي القيـــسي، د ط، ١٩٦٧،مطبعة دار المعارف ، بغداد .
- نصيب بن رباح، شعر نصيب بن رباح، تحقيق داود سلوم، ، د ط، ١٩٦٧م، مطبعـــة الإرشاد بغداد .
- النعيمي، أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإســـلام، ط١ ، ١٩٩٥م، سينا للنشر، مصر.

- النميري ، جران العود، ديوان جران العود، رواية أبي سعيد السكري، ط١، ١٩٣١م، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- نور الدين، حسن جعفر، ديك الجن الحمصي– عصره وحياته وشـــعره،د ط، د ت، دار الكتب العلمية، لبنان.
- نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، ط٢، د ت، دار المعارف، القاهرة.
- نيلسون، ديتلف وآخرون، التاريخ العربي القديم، ترجمة فـــؤاد حـــسنين، د.ط ،١٩٥٩م مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ابن هرمة، إبراهيم ، شعر إبراهيم بن هرمة القرشي، تحقيق محمـــد نفـــاع و حـــسين عطوان، د ط ، د ت، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- الهروي أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال تحقيق عبدالمجيد قطامش، د ط،١٩٨٠، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، مكة المكرمة .

Abstract

The Moon in The Ancient Arab Poetry

By:

Mohammad Essa Abdullah Al – Horani

Supervisor

Dr. Jamal Mohammad Maqableh

Associate Professor

The Moon is recognized as an indication of nature silence which poets focused on along the Arabic poetry, as it has an active presence as important as the presence of the manifestation of land nature that poets wrote about . The aim of this Thesis is to clarify the importance of this appearance, and to detect cases which poets dealt with this heavenly existence. Therefore, I had a set of essential questions that came out from the four chapters of the study. Firstly, How was the moon presence in the intellectual and cultural Arabic heritage? Secondly, How was the image of the moon in the poetic awareness in terms of beauty and culture? Thirdly, How did poets use the moon image to express their figures , and was it present in the pillars of the similarity? Or was it limited to a simile for a specific purpose as is widely believed? The last chapter was practical, in which after responding to a question about the existence of many models viable for the leading poets.

The first chapter is : Narratives of the moon in identifying the Arabic rhyming, this came in four main sections branched out of them different treatments .These sections searched in the names of the moon the most rotation in Arabic poetry, then his presence in the old Arab culture extended to the moon and old beliefs, then ended by a chapter about the moon in the Arab culture after Islam The second chapter is : The moon in the appearance of the poetic awareness culturally and aesthetically. This chapter consisted of five subjects in the perception of realism, aesthetic, psychological, intellectual contemplative, and the perception of belief The third chapter is : The aesthetic image of the moon in Arabic poetry, presented in an overview of that image, and began afterward to clarify the pillars of the metaphor in the various uses of poetry. The final chapter is an applied study of the Moon at five of the poets: Ibn AlMoataz,Ibn Rumi Al- Bohtouri, Ibn Khafaja,and Al Maari.

Results were emerged out of the Thesis: The moon has a great importance in the life of the Arabic man in general reflected his culture, thoughts and beliefs, and took a variety of areas in the narrative and notation of the Arab Culture. The moon is well appeared in the old poem culturally and aesthetically. We have seen how the moon was reflected in the view of poets and their realism positions, aesthetic, psychological, intellectual, and beliefs, and those positions were rich, diverse and abundant. The old poets generally focused on the aesthetic image of the moon. The image was not cursory as imagined by some, but were of profound proportion if the moon was the focus of a metaphor and not only for being likening it,the simile sentence is the intended to itself, but calls up the simile image to clarify the descriptions of the simile

the moon was present in the various uses of poetry, not only to praise, flirtation and lamentations as some believes.

The lack of uniqueness of the complete moon poetries in the old poem, especially in the Pre-Islamic Poetry. This does not mean lack of interest in it, as the old poem was a plurality and do not carry a specific purpose , but the contents were vary to present the moon as rich as other contents, like the contents of nature. There were poets celebrated the moon, and gave us great models, for example, the five poets who I have presented some patterns for them in this thesis. Poets point of views are vary to the moon according to the psychological positions, intellectual and social, therefore this variance may be occurs to one poet in different situations Finally, I see that there is a fertile material, the moon could be at the centre for study in the future , a substance subject to study at the level of one poet according to some poets, or at the level of modern literature. Since the expansion of this thesis geographically and temporally, it made it gain insight into the presence of the moon poem. and go beyond it.